H A M U D I A B E D M U H S E

رواية

في ظلال طاووس ملك

حمودي عبد محسن

بيت الكتاب السومري

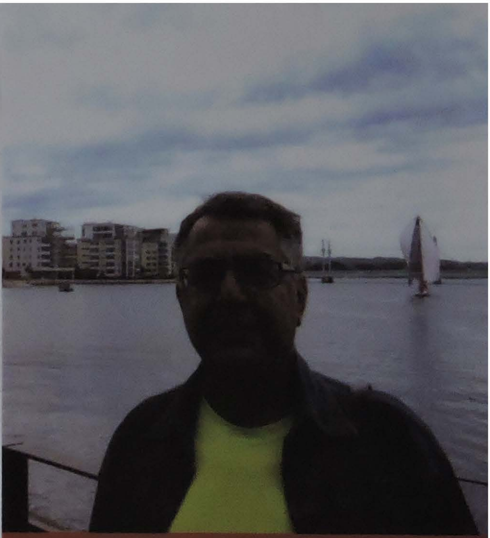

ولد الكاتب حمودي عبد محسن في مدينة النجف عام ١٩٥٣ وقد قال الشعر، ومارس فن الخطابة وهو في طور الصبا. درس في كلية الفقه عدة سنوات، ثم سافر الى دولة اوكرانية لدراسة الجيولوجيا وبعدها درس تطور المعرفة في السويد.

اصدر الكاتب احدى عشر كتابا في الادب منها ملحمة طويلة باللغة السويدية، والعديد من القصص في الصحف السويدية كما ترجمت له رواية الى اللغة السويدية، وهو عضو في اتحاد ادباء سمولاند وكذلك عضو في اتحاد ادباء السويديين ويقيم الكاتب في السويد حاليا.

رواية

حب في ظلال طاووس ملك

حمودي عبد محسن

بيت الكتاب السومري

حب في ظلال طاووس الملك

تأليف : حمودي عبد محسن

تصميم الغلاف : غلاف للتصميم

الاخراج الطباعي : ARJ

جميع الحقوق محفوظة لـ : بيت الكتاب السومري

مسجل في دار الكتب والوثائق العراقية ببغداد

رقم الإيداع 2300 لسنة 2017

الترقيم الدولي 978-9933-9226-3-4 ISBN

العراق – بغداد ت شارع المتنبي

07706883299

07904186569

إيميل : Iraq.aljarrah@yahoo.com

بيت الكتاب السومري

بيت الكتاب السومري

يمنع نسخ واستعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية ، ويشمل ذلك التصوير الفوتغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الكاتب .

All rights are reserved , no part of this book may reproduced , stored in a retrievel system , or transmitted in any form , or by any means without prior permission in writing from the author

Copyrights

الإهداء :

إليك أنتِ أيتها الأم الأيزيدية التي حملتِ عذابك في أكثر من أربعة عشر قرنا، وحملتَ أنا هذا العذاب في الليالي الطويلة العميقة كي اكتبُ هذا السفرَ الذي كلفني كثيرا، كلفني جهدا وسهرا، وأنا أتعايشُ مع نبض الدماء الجارية في العروق، أتعايشُ مع تلك الصرخات الخالدة التي تفزعُ الحجرَ، وتحزنُ الشجرَ، وتبكي القمرَ.

أجل، ذلك كلفني كثيرا، وأنا أرددُ مع نفسي: أيعقل أن يكون هؤلاء الطغاة الأشرار بشر ؟!

أما أنتِ يا هنار، فقد نلتِ من الحب لا يعرف الحدود أبدا، ونلتِ المثل الأعلى في القدسية والنقاء ليكون نورا للآخرين.

وأنتَ يا ميرزا صاحب الحب العنيد وقيمه الطاهرة، الذي شغفت به، وتيممت به، وصار استعبادا لك، فقد توجتَ حكمته في الموت الصامت.

فقبركما يا هنار وميرزا قد صار مزارا من قبل جنس البشر، فقد فزتما سوية بالمجد العظيم، وصدق العلى ومعزة الحب، لذلك حصلتما على العطف والود، وأسرتما قلوب ألوف الناس التي ما لبثت تتغنى بإسميكما.

هكذا سجلَ في التاريخ هذا الحب الخالد، وسيختم على الدهور عظمته.

هكذا يعرف الحب الأبدي في الحياة.

من ذا الذي يرتقي إلى مثله الأعلى،

ويبلغ العلى في هذه البراءة الخالدة؟

أما أنتِ أيتها الصبية الأيزيدية بذرة الأرض الفتية، وخضرة الربيع اليانع، النقية الطاهرة العذراء، أنت حاملة عنفوان النبل لأرضك ومعتقدك التي وقعتِ أسيرة طاحونة الشر داعش لتسحق عذريتك دون رحمة من سفاحي القرن الواحد والعشرين، يبقى صراخك الناعم إنشودة نقية جليلة توغل في صميم البشر الأنقياء، ويرجع صداها أشبه برثاء على أولئك القتلى الأيزيديين الذين سالت دماؤهم الغزيرة على أيدي الإرهابين المتمرسين بالقتل، أيادي مدنسة التي لا تعرف إلا الظلام المختوم على عيونهم. أنت يا من قاسيتِ أبشع الآلام والعذاب من وطأة الإستعباد والشقاء في تاريخ بشع سيء على أيدي سفاحين منغمسين في الجهل والكراهية أقدم إليك هذا الإهداء.

أنت، أيتها العذراء ابنة الشمس ترنيمة مخلدة على شفاه البشر.

حمودي عبد محسن

سُؤِلَ أبو نوفل: هل يسلم أحد من العشق ؟ فقال: نعم الجلف الجافي الذي ليس فيه فضل ولا عنده فهم.

قال الشعبي:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فأنت والعير في الفلاة سوى

العير: الحمار الوحشي

قال ابن أبي مليكة:

إذا أنت لم تطرب ولم تدر ما الهوى

فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

نهاية الأرب

شهاب الدين النويري

الفصل الأول

حين تبدأ الحكايات

قبل ساعات النوم في ليالي الشتاء الطويلة الباردة المظلمة، وأثناء هبوب الرياح من وادي السنجق مدوية تلاطم بيوت قرية بحزاني، وتندفع عاوية بين أزقة القرية الخالية من أهلها، وهي تصفر، وتهز أشجار الزيتون، وتمايل أغصانها، وتراقص أوراقها بعد أن أثارت الرعب في الحظائر والزرائب، ثم تمر عابرة متجاوزة القرية إلى السهل المفتوح الشاسع ... وأيضا أثناء دوي وميض الرعد الذي يرسل بريقه فوق القرية، وتنفجر السماء بوابل شديد من المطر، فيتساقط هطالا هائلا يدق بعنف فوق السطوح وفوق قباب المزارات، فتفيض المياه المنحدرة من وادي سنجق، وتسيل في مجراها الذي يشبه وادٍ صغير مخترقاً أعالي القرية، وتتشبع الأرض فيضاً، وتتخضب بللاً لأيام، وربما أسابيع ... وكذلك أثناء توقف الريح، وتوقف رعد السماء، وتوقف سقوط المطر حينئذ تبرز النجوم خافتة من عتمة السماء ... كان هناك صوت الجد العجوز يتهدهد هادئا حميما وقورا في غرفة تدفئها نار تهسهس بالخشب المحترق في مدفأة، وينبعث من خلال فتحة صغيرة ضوء احتراق الخشب. الغرفة ليست كبيرة، تلم أفرشة النوم على أرضيتها فوق سجادة حمراء مزركشة بورود سوداء، ويضيؤها نور الفانوس الباهت المعلق إلى الجدار، هذا الصوت أيضا فيه دفء أنفاس، أنفاس محببة للطفل ميرزا الذي هو الآن في السابعة من عمره، أنفاس تتصاعد وتنخفض في شهيق وزفير، تختلط مع أنفاس ميرزا

المسحوبة من صدره بلهفة سماع الكلمات، لم يكن هذا الصوت مثل بقية الأصوات التي كان يسمعها ميرزا، إنه صوت مميز وفريد ينسل إلى أعماقه، إذ من كلماته يستمد عوالم مختلفة سواء كانت في السماء أم فوق قمة جبل أم في وادٍ عميق أم على سهل مترامي الأطراف، عوالم تعود إلى أزمنة سحيقة أم أزمنة الطوفان، أم أزمنة ما بعد الطوفان، أم أزمنة عصور ليست موغلة في القدم. هذا الصوت المتقطع أحيانا المسترسل أحيانا أخرى يأخذه على الدوام بعيدا في حكايات عوالم غريبة وعجيبة فيفتح ميرزا عينيه بدهشة وهو يحدق إلى وجه جده الذي غضنته السنون وأرهقته الليالي المضنية التي مرت على بحزاني فصار وجها صارما بتجاعيد تغور العينان في محجر لكن ماذا أراد الجد من حفيده في هذه الحكايات ؟! أأراد منه أن يتجبل مثل الجبل أم أراد من قلبه أن يكون غضا مثل غصن زيتون ؟! كانت تلك الحكايات دائما تتموج في ذهن الحفيد قبل أن يطفئ ضوء الفانوس، وقبل أن ينام في عالم فسيح مليء بالمفاجأت، فغالبا ما كان ينام ميرزا في حلم بحر لم يره، وأرض بيضاء لم تطأها قدماه، قد تكون مغطاة بالثلوج، ثلوج لا تذوب على مر الأعوام، وقد تكون ذات أعشاب طويلة تعيش فيها حشرات عملاقة يلفها ضباب أبيض ساخن ينفث بخارا ساخنا، وقد يقوده حلمه إلى أشجار سامقة ترتفع لتعانق السماء في غابات كثيفة، أغصانها حمراء ملفوفة حول جذعها لتعانقه عناقا أبديا، أجل كان ينام ميرزا في أحلام، وتحتضن ذراعاه زهرة ذهبية في بستان الخيال، ثم يحلق بجناحين مع طيور ذات أجنحة ضخمة تشق غيوما سوداء، ويرى من خلف الغيوم مدنا بأبراج شاهقة، وأخرى مضيئة ليل نهار، أجل كان ميرزا ينام في حلم لا ينتهي، وقد يتكرر هذه الحلم في ليالٍ عديدة، وحلمه

لا ينتهي، قد يكون رقيقا، وقد يكون صاخباً يتصاعد مع أمواج البحر العاصفة الهادرة المخيفة، إلا إنها أحلام دائماً تمتزج مع نغمات البطولة والخير والحب، ألم يقل كبير القوالين:

- سر نحو الخير بذاته!

الطريق إليه ظاهر وجلي،

يليق بالمرء الحسن.

كان جده دائماً يغرس فيه حب الآخرين والجمال والتآلف مع البشر، لتكون روحه دائما نظيفة صادقة، وهو يكرر دائما بعد كل حكاية:

- كنْ مثل وجه الخبز يا ولدي!

لكن نهايات تلك الحكايات كانت أحيانا توجعه، وأحيانا أخرى تملأ قلبه فرحا، وكان في أحيان كثيرة يغلبه النعاس، وهو جالس قرب المدفأة ويتابع الحكاية، فيغمض عينيه نصف إغماضة، ثم إغماضة كاملة، فيحمله جده إلى فراشه، ويطعم خده بقبلة خفيفة لئلا يفززه، ويقول بصوت خفيض:

- نم يا ولدي مع الحلم نوما هنيئا!

نعم، كان ميرزا دائما في منامه يرتقي بحلم إلى الجبل، ويتأجج قلبه في حب مكوناته، وحيواته، وأشجاره، ويتوارى في أحلام متنوعة تنقله من عالم إلى عالم آخر، تتراءى له فراشة ملونة بألوان الجبل، لها عينان براقتان، وجناحان شفافان

ترفرف بهما فوق زهرة برية ذات جمال خارق، فتتكلم الزهرة، وتتكلم الفراشة:

الزهرة:

- أنا خائفة ...

الفراشة:

- لماذا ؟!

الزهرة:

- أن يقتلني الفرمان ...

الفراشة:

- من هو الفرمان ؟!

الزهرة:

- ألم تسمعي من ذلك الزمان ؟!

الفراشة:

- أجل ... الذئب أكال الزهور ...

الزهرة:

- لا ... إنه رجل عثماني يحرق حدائق الورود ...

الفراشة:

ـ نعم ... سمعت ... ويقتل أطفال بساتين الزيتون ...

هذا ما كان يستحضر ذهنه خوفاً من ذلك الزمان، ويستحضر أيضا أنغام صدى وأناشيد وترانيم مجهولة، وذهنه يحلم وينبش ويكتشف أسرارا، لذلك غالبا ما يردد في نومه كلمات تتهدج في الغرفة: شلال ... قمر ... شمس ... كهف ... عنكبوت ... بلبل ... غيمة ... مطر ... إذ كانت تتوالى عليه الأحلام في فيض متراكم، بعضها تعبر ذهنه، وبعضها تترسخ فيه، وفي صباح اليوم ما بعد حكايات الليل يحكي لصديقته هنار التي تسكن في نفس زقاق محلة البرافية، والتي يكبرها بسنة واحدة، فيمسك بيدها، ويهرعان سوية إلى آثار الناعور في الديلي أو يهرعان إلى الكوتل وهو أيضا بقايا آثار طاحونة أو يهرعان إلى حفر معامل الجص العميقة التي قد تتجاوز المائة مترا والتي تمتد بمحاذاة الجبل بين بحزاني وبعشيقة، وتبدأ حكايات الصباح، وتستمع إليه هنار بانبهار، وهي تقول بروح طفولة بريئة:

ـ أنا أيضا خائفة.

ـ لماذا ؟

ـ أخاف أن يقتلني ...

ـ من هو ... الذئب ... ؟!

ـ لا ... لا ... الأمير الأعور ...

ـ لا تخافي ... إنه مات ...

ـ أنت تعرفه ...!

ـ سمعت جدي يقول: إنه مات منذ زمان قديم ...

في هذه الليلة كان ينساب صوت الجد، وهو يمسد لحيته البيضاء المتدلية على صدره، ويبدأ حكايته: يا ولدي كان في ذلك الزمان دبة شريرة قد خطفت الراعي درويش الذي كان يرعى الماشية في الجبل، وحملته إلى الكهف، وأغلقت فتحته بصخرة ضخمة، ثم لحست قدميه، وركبتيه كي لا يقوى على الهروب، وكانت تستخدمه كذكر، وكيف يستطيع الهروب، والدبة كلما خرجت من الكهف أغلقته بالصخرة التي لا تتزحزح من مكانها ... غير أن في ذات يوم سقط ثلج غزير، وهبت عاصفة ثلجية، فانزلقت الصخرة، وسقطت في الوادي، وأطلق سقوطها دويا مرعبا، فخاف درويش أن تقتله الدبة، لكن يا ابني لم ير درويش الدبة، فقاطع الحفيد كلام جده، قائلا:

ـ ماذا رأى يا جدي، ماذا رأى ؟!

ـ نعم يا ولدي .. انتظر ...

رأى درويش ضوءاً لامعاً يتسلل إلى الكهف المظلم، فانتابه فرح شديد وهو يصيح بأعلى صوته:

ـ أنا درويش ... أنا هنا...

إذ كان يتصور أن أهل بحزاني جاءوا لينقذوه ... لكن يا بني ... أهل بحزاني بحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه، ولم يعرفوا إن الدبة أخفته في هذا الكهف الذي يجهلوه تماما ... لم

تمر لحظات كي يسحب الجد نفسا طويلا حتى تعجل ميرزا بسؤاله:

ـ من كان جدي ... قل ... قل ... من كان ...؟!

ـ نعم يا بني ...

وراح الجد يواصل حكايته: رأى درويش شبحا، فحاول النهوض إلا إنه لم يستطع لأنه صار مخلوقا بائسا هزيل الجسد، إذ راح الشبح يقترب منه بخطوات بطيئة وديعة، ويقترب رويدا رويدا، ثم انحنى على وجهه، فرأى درويش وجه غزالة أبيض مثل الثلج بعينين حالكتي السواد، واسعتين براقتين، ولها قرنان لمساويان بحلقات، وأذنان طويلتان مدببتان نحيلتان، وجبين بشعر قصير ناعم، صارت أنفاسها ترتعش على وجهه دافئة ذات عطر مسكر، لم يحس إلا بلسان الغزالة رقيق ناعم يلمس خده، إذ راح يسيل من فم الغزالة ماء أبيض، تبرق منه رغوة بيضاء كالبلور، ما لبث أن لحس اللسان خد درويش برقة، ثم أخذ يزحف على كامل جسده، واستقر على جروح ركبتيه، وقروح باطن قدميه ... وأخيرا يا ابني ...أخيراً ... وجد درويش نفسه مطروحا قرب مزار الشيخ مند ...

حدق إليه ميرزا باستغراب، وهو يسأله باندهاش:

ـ الغزالة حملته يا جدي ..!

ـ نعم يا ولدي ... نعم ... يجب أن تنام ... الوقت متأخر الآن.

ـ نعم يا جدي ...

كان ميرزا ينظر إلى سقف الغرفة قبل أن يغفو، وينقاد خياله إلى الغزالة، وهو يردد مع نفسه:

- سأحكي قصة الغزالة غدا لهنار ...

ثم غط في نوم عميق، لينهض من رقاده في الصباح الذي خرجت الشمس فيه من خلف الغيوم، فها هو ميرزا يقف قرب التنور الذي يقع في زاوية الحوش، ينتظر أن تمتد ذراع أمه إلى فوهة التنور، لتخرج رغيفا محمصا كي يهرع إلى ملاعبه، وهو ما يحدث في أغلب الصباحيات إلا في تلك الصباحيات التي لا يفوتها إطلاقا حينما تمتد ذراعا أمه إلى قاع التنور، وترفع القدر الفخاري الذي ترك كل الليل على جمر نار هادئة داخل التنور، والمغلفة حواف القدر بالعجين كي لا يخرج البخار الحار منه، إذ بهذا البخار يطهى الحمص والعدس والحنطة مع اللحم، ويهرس سوية دون تحريك بآلة خشبية، فتستوي أكلة لذيذة يشتهيها ميرزا والتي تسمى أكلة الدلي، أما في عيد خضر الياس فيحق للجار أن يأخذ القدر الفخاري من التنور بغفلة من أهله سواء كان ذلك في منتصف الليل أم الهزيع الأخير من الليل، ويفطر مع أهله بأكلة شهية مهيأة من الجار الحميم الحنون دون أن ينزعج أهل القدر، ودون أن تتكدر علاقتهما، عندئذ يردد أهل القدر الفخاري:

- ... بالعافية يا جيران ...

هذه عادة شائعة في بحزاني، عادة حميمة منذ قديم الزمان... أما الآن فإن ميرزا كان ينتظر أن تخرج له أمه من التنور رغيف البنداني المليء بقشور الحنطة، ها هو الرغيف

يخرج ساخناً يتصاعد منه البخار، ويرمى على صينية مطروحة على الأرض، فينحني ميرزا ، ويمد يده الصغيرة، ويلتقطه من الصينية، ويقلبه بيديه، وهو يقول:

ـ إنه حاراً يا أمي.

ـ ألم أقل لك اتركه حتى يبرد !

ـ أنا أحبه حاراً يا أمي.

ما لبث أن رش قليلا من العسل فوق الرغيف، وأخذ يقضم أطرافه، ثم شرب قليلا من الحليب الدافئ، وأكمل فطوره الشهي، وخرج راكضاً ليلعب مع أقرانه كرة القدم أو الطفرة على انحناء الظهور أو الاختفاء خلف أبواب البيوت غير أن فرح صباح اليوم كان يشتعل شوقا في داخله ليقص على هنار حكاية الليل، إلا أن وقت اللعب قد حان، فها هم يتجمعون عند مجرى تجمع المياه قرب مزار الشيخ مند، وهو ينتظر نهاية اللعبة التي كانت بمثابة تمثيلية مسرحية عن الحب البريء، فانقسم الحشد إلى فريقين متضادين متخاصمين، فهذا فريق يعلن عن حب نشأ بين ميرزا وهنار، ويدعو إلى زواجهما ضمن طقوس القرية، فيجابهه فريق ابن عم هنار الذي يدعي إنه أحق له بالزواج من ابن عمته هنار، فتشبثت ذراعا هنار بعنق الحبيب ميرزا، وراحت تمثل دور الحبيبة الولهانة:

ـ يا حبيبي لنهرب إلى الجبال.

فيرد عليها الحبيب ميرزا بتفاخر:

ـ نعم، يا حبيبتي لنفر إلى بعيد.

عندئذ أعطى ابن العم إشارة المعركة، وبدأ الفريقان العراك بالأيدي والتصارع، فتلوت الأذرع، وسقط البعض على الأرض متعفراً وجهه بالتراب، والآخر حدثت خدوش في أنفه أو في ركبتيه حينئذ صرخت هنار بغضب:

- كفى ... كفى ...

ثم هرعت راكضة إلى جوار المزار، فتبعها ميرزا، عندئذ لفت ذراعها حول شجرة الزيتون ودارت حولها، وقد سألت ميرزا بغنج:

- صحيح ، أنت تحبني.

فأجاب بعجلة:

- طبعا ... طبعا ...

ثم جلسا عند طرف الكوم وهو أشبه بحفرة مياه ملأته مياه عين كاني زركي، وعين القرية الرئيسية، وعين باب الكاف، وكذلك الأمطار، وهو مسبح ميرزا في فصل الصيف، ولم تمر لحظات حتى بدأت حكايات ميرزا النهارية مغيرا أحداثها، ومتلاعباً بمنطقها ليلفظها بلغة طفل وديع، ثم انتهت، فسألته هنار، والدموع تترقرق في عينيها :

- لماذا كانوا يقتلوننا ؟!

- لأننا أيزيدين ...

هذا ميرزا الطفل قد شدته الحكايات إلى عوالمها التي صارت تحتشد في ذهنه، وصارت رؤيا له أينما يذهب أو أينما

يلعب في بساتين الزيتون أو قرب المزارات، تارة تتوقف الرؤيا في ملاعبه وتارة أخرى تنهال عليه مثل مطر عندما يكون وحيدا أو يكون منعزلا عن زملائه، وتمر مشاهد مختلفة في ذهنه دون أن يدرك معانيها، وتلك يدرك تماماً مضامينها، ثم تلوح له شخصياتها التي فرضت نفسها عليه سواء كانت خارجة من التاريخ أم خارجة من عمق البحر أم من وادي سنجق، سواء كان ظهورها طفيفا أم ظلا تحوم حوله، شخصيات كونية أحيانا تتراقص أمام عينيه وأحياناً تهرب منه، إنها أثارته، لذلك أراد أن يكون بطلا، وأراد أن يكون داعية خير، وأراد أن يكون مثل وجه الغزالة، وأراد أن يكون فراشة أو زهرة، إذ ثمة إصرار ولد في داخله أن يكون شيئا مهما يقدمه إلى بحزاني، ولم يجده إلا في هنار التي كانت تصغي إليه باهتمام، فيعود إلى البيت وفيه شغف كبير أن يسمع حكايات الليل.

وجاء الليل، وجاءت الحكايات، إلا أن حكاية هذا الليل تختلف عن كل حكايات ليالي الشتاء كما لو أن جده أختارها له من بين آلاف الحكايات التي يعرفها أو التي من خلق ذاته، من يدري وهو العجوز المجرب الخبير في الحياة، وقد عاصر أحداث ومشاهد، وورث كنوز تراث، ويحفظ تسلسل الأزمنة، وكذلك هو دليل الجبل في ألغازه، وعندما يرفع رأسه إلى السماء، ويرى غيمة رمادية، سيحدد وقت المطر، ويحدد موعد الرياح، ومتى سيظهر الصقر زائرا جبل بحزاني، ولا ينفك أن يرشد أهل بحزاني إلى أعشاب أو زهور برية أو أوراق شجيرات أو نبتة تفرش جذورها بين الصخور لتستخدم كل تلك النباتات في علاج لأنها ستكون أفضل دواء. هو هذا الجد نفسه

يدخل في هذه الليلة في امتحان، لذلك كان حذرا في لفظ الكلمات:

يا ولدي كان في ذلك الزمان القديم ذئب يجوب الجبال، ذئب شرس، شديد الضراوة، تهابه الوحوش، وتخاف منه القرى، عواءه يتردد صداه مثل طبول تقرع، يغور على الماشية، ويقتلها، ويثير الرعب فيها... ذات ليلة دهماء هجم على ماشية أهل بحزاني، فارتعدت خوفاً ، فصارت تخور، وتئن، وتشتت في البرية، غارسا أنيابه الحادة في رقابها، وبراثينه في بطونها، تلك الليلة كانت فاجعة تذكر في الليالي العميقة، وكانت كارثة لا تنسى، فصار الذئب يغور في الليالي خفية ويلحق الأذى بالماشية دون أن يعرف أهل بحزاني كيف يتفادونه بالرغم من الجهود التي بذلوها لقتله لكنه كان يفلت بدهاء من كل شرك يحاولون أن يوقعونه به، وصاروا يخافون على أطفالهم منه، هكذا مرت شهور وأهل بحزاني في حيرة من أمرهم، ومهما حاولوا أن يشددوا الحراسة، ويزيدون عدد أفرادها، ويشعلون النيران، فإنه كان يباغت الماشية، ويقتلها، حتى بدأت الماشية بالانقراض، فشاعت أخبار الهلاك الذي لحق بالماشية، وإن أهل بحزاني لم يقدروا أن يقتلوا الذئب الوحش، فحاول أهل القرى الأخرى أن يرسلوا نجدة إلى القرية من رجال وسلاح إلا أن أهل بحزاني رفضوا ذلك، وكانوا يشكرون أهل العون، ويرددون هذا شأننا مع الذئب الوحش، وقد اجتمع وجهاء القرية، وقرروا خططا للإيقاع به غير أن ذلك لم يجد نفعا، وقد انتشر اليأس في القرية للتخلص من الذئب الوحش، وهذا ما أحزن رجال القرية، وذات ليلة رهيبة رآه أحد الحراس، وقد وصفه كما رآه، كان ضخم الجثة أسود، عيناه

تبرقان ضوءا أصفرا مثل نار ملتهبة، يزمجر بغضب، فكه كبير ذو أنياب طويلة بيضاء مدببة، رأيته يسحل بقرة وأنا غير مصدق ما تراه عيناي، فجفلت في مكاني مرتعباً، ولم أقو على الحراك، أو أقدر أن أتفوه بكلمة أو أصرخ، كان يطلق أنفاسا رهيبة من منخريه، ويحرك خطمه الطويل المرعب، كنت ليس بعيداً عنه، وأنفاسه اللاهثة النتنة تضرب أنفاسي حتى كدت أختنق من رائحتها الكريهة، فتسمرت على الأرض كي لا يشرب دمي.

كان ميرزا يستمع إلى حكاية خاصة، وينساب خياله مع صورها وأحداثها، ليست بمتعة الحكايات القديمة، فهذه الحكاية ممتزجة بالدماء، والقتل، فبدا ساهيا وهو يطوف بخياله، ويتفرس في وجه جده متعجبا مستغربا، ليقترن ذلك بسؤال:

- جدي ... الذئب قتل كل الماشية ... حتى الصغار ؟!

- ليس كلها يا ابني ... أكثرها ...

تابع الجد إيقاع الحكاية، وهو ينسج الكلمات، وتتدفق، بينما ميرزا قد استغرق في صمت بعد أن أدخلته الحكاية عالما فيه القهر والجزع دون أن يعرف أشياء كثيرة فيها، فها هو جده يواصل كلامه:

وذات يوم يا ولدي حدث شيء لم يكن في الحسبان، فقد اختفي الفتى جدنا الأول كنجي، ولا أحد يعرف كيف اختفى، فطارت الأقاويل والإشاعات، فهذه تقول أن الذئب افترسه وشرب دمه وأكل لحمه، ولكن أهل بحزاني بحثوا عنه فلم يجدوا أي عظام وهذا يعني أن الذئب لم يفترسه، لكن أين

اختفى، لا أحد يدري، وتناقلت إشاعات أخرى تقول أن كنجي صار يحيا مع الذئاب، وطبعه صار طبع ذئب، يعوي مثل الذئاب، ويأكل مثل الذئاب، وينام مثل الذئاب، ويمشي على أربع، وإشاعات أخرى راحت تقول إنه أصبح له خطما، وصارت له أنياب، وصارت له فروة، لكن يا ولدي لم يكن جدنا كذلك، فلم يمسخ ذئبا، ولم يكن طبعه طبع ذئب، ولم يكن على الإطلاق مثل الذئاب، لأنه من أهل بحزاني، وطبعه طبع بحزاني أصيل. فذات صباح باكر ظهر كنجي من وادي سنجق يمشي بخطوات بطيئة، نحيف الجسد، أشعث الشعر، ممزق الثياب، يبدو التعب والإرهاق عليه، وهو يمسك رأس الذئب الوحش من أذنه، ويتدلى من يده، فكان أهل بحزاني ينظرون إليه فاغري الأفواه، وهم يتجمعون حوله، فرمى رأس الذئب الوحش على الأرض قائلا بصوت ضعيف:

ـ هذا رأس الذئب الأسود.

فتعالت الهلاهيل والزغاريد في القرية إلا أن جدنا سقط على الأرض مغميا عليه، وكان ذلك اليوم يوم فرح عظيم في المنطقة كلها، إذ جاءت وفود القرى مهنأة، تشارك بحزاني باليوم السعيد، وبعودة الابن البار.

هكذا عرفنا منه لاحقا إنه كان يتابع أثر الذئب ليل نهار، وهو يجمع الأفاعي من جحورها، ويضعها في كيس من صوف أخذه معه، وأخذ سكينا أيضا معه عندما جاءته فطنة الإيقاع بالذئب، فراح يعيش وحيداً في الجبال معزولاً عن عالم البشر، ينام في الكهوف والمغارات، يسد رمقه من ثمار النباتات التي صار يميز طعمها وألوانها، تلك التي كان يقطفها من الأغصان،

وتلك التي كان يخرجها من الأرض كالكعوب بعد أن يزيل الأشواك من نهاياتها الحادة لتظهر سيقانها البيضاء، وكذلك جرب الكثير من الأعشاب البرية، خاصة وقد وجد في سيقان الريواس الطويلة ذات طعم حامضي مستساغ، فقد مرت عليه الأيام صعبة مريرة وهو يتنقل من جبل إلى جبل، يتحدث مع نفسه كي لا ينسى لغة بحزاني، نعم مرت عليه أيام رهيبة، وليالٍ مرعبة موحشة، وهو يغامر بحياته من أجل بحزاني، ويتابع أثر الذئب، ويتربص به، لم يظفره بسهولة ، لذلك كان يقتات على ما يسد جوعه، ويشرب ماءاً ما يطفيءُ ظمأه، حتى وجد الذئب نائما ذات مرة وحيداً دون قطيعه، فأرسل عليه الأفاعي التي راحت تلتف على جسده، وتنهال عليه لدغا وعضا، ولم يقدر أن يقاوم، فصار يعوي ويزمجر ويدور حول نفسه كأي وحش متهالك، عندئذ أيقن جدنا أنه هلك، فتقدم إليه، وقطع رأسه.

أخذت المفاجأة ميرزا من هذه الحكاية، وسيطر عليه الذهول، إذ كان احتدام أسى يتفجر في روحه العذبة، تلك الفاجعة التي مرت ببحزاني، فكم كانت الحكاية طويلة هذه الليلة إلا إنها سريعة مرت عليه لتولد اضطرابا في نفسه، وهو لم يستطع أن يطرد النعاس من عينيه، ولم يقدر أن يطرد أنين صغار الماشية الموجوعة تحت مخالب الذئب، إنه قتلها، وكذلك لم يستطع أن يطرد صور الأفاعي التي التفت حول الذئب، وأشبعته سموما، ومات الذئب، وكان يصارع ميرزا سؤال: لماذا كل هذا ؟! فسحب نفسه إلى فراشه، وهو يقول بأسى:

- أريد أنام يا جدي ...

- نعم، يا بني ...

لكن صور الدماء، والقتل، والموت، صارت ترهقه، وهو يندس في فراشه قلقا مشوشا، فنام نوما مضطرباً مع تلك الصور، والتساؤلات البريئة، حتى بلغ منتصف الليل فانطلقت صرخة قوية من أعماقه، وهو يرفس غطاء النوم، ويستيقظ بهلع، فهب إليه جده، ومسد رأسه، وهو يردد:

- لا تخف يا ولدي، إنه حلم.

فنطق ميرزا بصوت وديع مثل وداعة روحه، وهو بين اليقظة والنوم:

- أريد غزالة ...

ثم غط في نوم عميق.

الفصل الثاني

الشرير فريق باشا

في يوم من أيام هذا الشتاء القارص أصابت الحمى الحارة الجد، فراح طريح الفراش، تارة يئن وتثار عنده جروح الماضي، وتارة يستيقظ هلعا، وقد تصبب جسده عرقاً وهو ينظر إلى ميرزا الذي كان يغط في نوم عميق، فيتألم قلبه وهو يكافح ضد هذه الحمى اللعينة التي لم يعرف كيف غزته على حين غرة، فيضع رأسه على الوسادة وتأخذه كوابيس مرعبة تشده إلى ظلال التاريخ، هو الشرير ـ فريق باشا شبح خرج من رماد معتم أو خرج من تجويف مظلم أو من مقبرة مظلمة أو إنه متوحش ليس من رس الجنس البشري. بعدئذ صارت عينا الجد في نصف إغماضة ليتكيف مع كابوس الحلم، ليظل الجد ساكنا في فراشه، كان ذلك صعب جدا، حيث خارج غرفته كانت تسحب الرياح ذيولها في أزقة بحزاني، تتوسع، وتشتد مسرعة، تقود غمائم، وتسوق سحاب قطع صغيرة متدانية بعضها فوق بعض، تتفرق متراكمة مكللة السماء بها تارة غليظة، تارة رقيقة، بعضها يركب بعضا في تلبد واكفهرار، وسحاب يتعلق بسحاب، فأبرقت سحابة صادقة صواعق، وأخرى جرت أهدابا، فارتجست رعدا، ولمع برق، وقد حارت به الرياح، فحفت الغيوم بوارقها، وقد تجلجل رعد في ضحك وبكاء، وراحت لوامع تبتسم، وتمد جناحيها على بحزاني النائمة في دفء وحنان، بل في ليلة ظلمة تنام، إذ صار سراجها ومض برق يمحو السواد، فجعلت من برقها المتبسم ضياء ليلغي عبوس وجه الظلام، وثنيت سواد الغمام مطراً، وثنيت بحزاني من أجفان ماء. أهي الرعود ألبست الجد ظلاً موغلاً في زمان

مجروراً إليها بأنفاس الرياح ؟! الشرير في عيني الجد ليس حيوانا، والشرير كلمة لا تعني كائنا جسده نصف إنسان ونصفه الآخر حيوان أو وجهه مركب على جسد حيوان، وقد اختلفت الروايات والحكايات حوله، فهذا يقول أنه عفريت، وذاك يقول أنه ثعبان، وهذا يقول إن حجمه أكبر من الذئب يسرق الفتيات الجميلات، وذات مرة وجد شعر رأس فتاة وحليها على صخرة، فالشرير وحش في كل الأحوال، وأولئك يقولون أنه جن، وغيرهم يقول أنه غول، لكن يتفقون جميعهم على أنه غريب الأطوار سواء كان حيواناً أم إنسان، إنه متوحش، ومن أبرز ميزته تقدح عيناه دائما شرراً، ويعيش في الظلمة، إن هذا الشرير العجيب الغريب يظهر ويختفي، ولا أحد يعرف متى ظهوره، وكم تستغرق مدة غيابه، ولا أحد يعرف إنه يفنى ويزول، والأكثر من هذا أتفق أهل بحزاني إنه الشرير الأوحد الذي يضاف إلى قاموس الأشرار، وأن روحه عدوانية متوحشة، متعطشة دائما للدماء، وإنه يكره بحزاني ولطف أهلها وغابات زيتونها ومياهها العذبة لذلك كان يتربص لها، وينتظر الفرصة لتدميرها، ولا يريد لها سوى الخراب، لأنه بارع في التدمير، وهو بارع في الانقضاض على فريسته أي إنه بارع في القتل، وله خبرة في فن القتل، إذ إنه يتلذذ به كأي متوحش جائع خرج من التاريخ فهو يعتقد بمقولة: أن التاريخ يصنعه تارة الجهلاء، وتارة أخرى يصنعه القتلة. لذلك شاعت أخباراً مشوهة يطغي عليها التضخيم في القرى البعيدة والقريبة أن الشرير فاتك جبار قبيح الوجه، فمه كبير يبتلع الفريسة، ويمضغها في أنيابه التي تشبه أنياب ذئاب، بقرنين كبيرين، وجثة ضخمة، يكسو جسده الشعر الأسود، وشعر رأسه طويل يتدلى على كتفيه، إنه الكائن الخرافي، لكن الشرير الحقيقي الذي

كان يتلاطم شكله في الحلم الكابوس لدى الجد هو الفريق باشا، هو الشرير الذي فتك بالأيزيديين، ليطعم غريزته الدموية، ويطيب قلبه برائحة الدماء، فهو يذبح مثلما يريد، وهو صاحب الصدر الأعظم في الآستانة، المليء صدره بالنياشين والأوسمة، وتفترش على كتفيه الرتب، وهو صاحب الكفاءة العالية في تنفيذ المهام في المذابح لتتلاءم مع العقيدة العثمانية، فهذا الشرير الشرس صار هو المتسلط المستبد والجلاد الطاغية المشهور في بحزاني، فقد سمع عنه أهل بحزاني أشياءً تثير الرعب والجزع من جرائمه، فهو يترك ذبيحته تموت ببطء حتى تستفرغ دماءها، عندئذ يغمس سيفه في بقعة الدم كأن ذلك أمرءُ إلهي ينفذه بأبرياء، وغالباً ما يترك سيفه مغروزا في عتبة بيت الضحية أو في واجهة باب المنزل، إنه الشرير صاحب المآثر البطولية العظيمة في تنفيذ القرار السماوي المطلق الذي يأتيه من واسطته السلطان الأعظم الجالس على عرش الإمبراطورية، لذلك أصبح الشرير مشهورا جدا ليس في بحزاني وحدها، وإنما في سائر العالم الأيزيدي، ذات مرة أجلس أيزيدي على خازوق، ثم قطع يده اليسرى، ورماها إلى الأيزيديين المربوطين بحبال، ثم قطع يده اليمنى، ورماها إليهم، وهو يصرخ: موت ... موت... ثم ضرب عنقه. ثم وضع مئات الرؤوس على أسنة الرماح بين جثث الموتى، وكانت تتعالى أصوات جنوده ابتهاجا لعظمته، وهو كعادته يرفع رأسه إلى أعلى ساكنا، لا يتأوه، وعندما وطأت قدماه سنجار فلم تنج منه قراها، ذبح كما أراد، وأحرق أحياءاً في بيوتهم لتشويههم النار، وباع أطفالا في سوق النخاسة بالموصل، هو الفاتح الجبار، المتوحش المختار، الذي لا نظير له في العدوانية، ولا نظير له في تعذيب البشر، فكلمة الشرير تنطبق على همجيته المتوحشة.

روح شريرة من قوى شريرة - لا علاقة له بشيء أسمه رحمة أو شفقة أو حياء، وقد تجاوز عصره إلى ما قبل التاريخ في إجرامه لأن قلبه من حجر، وكان بحذائه الأسود الطويل يدوس كل قوانين البشر، فهو مذهل في التعذيب، والعنف، وأساليبه مقرفة ودنيئة ضد ناس أبرياء، وإذا تساهل في التلذذ فإنه يضرب الضحية بأخمص البندقية أو الجلد على الظهر، وقد اشتهر بربط أيدي الأيزيديين في الموصل إلى حيوانات، وتم سحلهم في الشوارع، تنهال عليهم الهراوات والحجارة والأسواط، ذات يوم وضع أيزيديا في قدر كبير يغلي ماءً تحت نار ملتهبة متأججة، ومرة استبد به الحزن وهو يسأل نفسه: كيف يمر اليوم دون أن أقتل أحدا. أمر آنذاك بتعليق جثث الموتى في الساحات والطرقات، عندئذ نفخ البوق، ودق الطبل، وصرخ المنادي: إعدام ... إعدام ... وجاء بالأبرياء، أجلس البريء على ركبتيه، وقطع رأسه بضربة سيف في عنقه، ثم أتوا إليه بالثاني، والثالث، والرابع حتى وصل تلذذه إلى المئة، حينئذ غادره الحزن بعد ضرب الأعناق، حينها جنح خياله بعيدا إلى الإبادات الجماعية، واستقرت أحلامه المجنونة في بحزاني، بيد أن الشرير فريق باشا كانت له ميزة فريدة، وهي كرهه للشمس ليس لأنها تعطي الضوء والدفء، وليس لأنها شبهت بسراج الأرض أو وجهها إلى السماء وقفاها إلى الأرض أو بالعكس أن وجهها إلى الأرض وقفاها إلى السماء، بالطبع ليس كل هذا السبب أنه يكره الشمس، أنه يعرف أنها مستديرة، وإن لها مستقر في السماء، ليس كل هذا أيضا، وإنما كان يجنح بخياله أن يمتلك الشمس، ويمتد استبداده إلى أشعتها، عندئذ يقدر أن يتحكم بشروقها وغروبها، فيجعلها تشرق في الغرب، وتغيب في الشرق، عندئذ تكون الشمس في كف يده، يقبض عليها

قبضة قوية متى أراد، ويخفف قبضته متى أراد فيما إذا غادره الحزن، فستخر الشمس شاحبة ساجدة بين أصابعه، وإذا أشاء أن يجعل الدنيا بلا نهار، أياما كلها ظلام، فهو يقدر عندئذ أن يتحكم بمصير العالم، يؤذن لطلوع الشمس متى أشاء، هو الشرير فريق باشا أراد ما أشاء أن ينزع الموت من الموتى أو أن ترجع الشمس إليه أي ترجع من حيث خرجت من كفه، ليكون كفه طلوعها وخروجها من سجنها، هذا هو الشرير فريق باشا العظيم الجبار الغول، العفريت، العملاق، الجن، الدموي المتوحش، وكل شيء من هذا القبيل. غالبا ما يتحول حلمه إلى خرافة يتناسب مع خرافته هو أن يحرق ما يريد، هو الطموح جداً، الذي أيضا له طموحات أخرى مثلا أن يجعل الكواكب السبعة ملكا لديه، ويصبح إله اليابسة والمياه، وإنه قادر أن يفكك الأرض، حيث يفصل الجبال عن الوديان، ويجعل غابات الأشجار تذهب راكضة إلى الصحراء، خاصة أشجار الزيتون تلك الموجودة في بحزاني، حتى المياه لا تخلص من أحلامه، فأرادها أن تغلي وتفور، إن كل ما يريده هي الميزة الوحيدة الفريدة أن يقدر على كل شيء، فهو في قناعة نفسه أشهر رجل في العالم، وأشهر من الشمس، لأنه دائما في طلوع حتى عندما يكون في منامه، فهو يهذي:

ـ الشرير فريق باشا.

لكن هذا الشرير فريق باشا عندما يكون في بحزاني تكون الشمس في أوارها، حينئذ ينتابه الغضب الشديد، إذ ليس بوده أن يقترب من ضيائها أو يتظلل في فئ شجرة، غالبا ما يتقي الشمس باليد على جبينه لكي لا تغشو عينيه، دائما كان يفر منها ليس بسبب الحر، هو يدرك بالتأكيد أن الشمس منيرة دون

حاجب، وهو يدرك كم هي بازغة تبدو، ثم ترتفع صفراء حمراء، هي دائما مليحة ينبسط شعاعها على الأرض، وفي نفس الوقت كم يفرحه أن تكون عليلة في المغرب، ليس إلا إنه يفهم ملاءتها الحمراء الذهبية تناسب راحته، بالرغم من ذلك فإنه لا يديم النظر إلى حمرة الغروب، فكلما نظر إليها وجدها صفراء حمراء، وهذان اللونان لم يتناسبا مع مزاجه، ربما ـ أراد أن تكون الألوان كلها وفق ما يريد، بيد أنه لا يستطيع أن ينكر النهار على الإطلاق بسبب بسيط جدا إن أغلب مهمات سيفه في النهار، وبمرأى الجماهير المحتشدة الخائفة من جنونه.

الكابوس الحلم اختفى من رأس الجد حينما هز كتفه ميرزا، وهو يقول بصوت وديع:

ـ إنه الصباح يا جدي.

استيقظ الجد تنضح ملابسه عرقا ليس من كوابس الأحلام وحدها، بل لأن الحمى اشتدت عليه، لم ينهض من فراش المرض حين فززه ميرزا، وهو يخرج براته من تحت الوسادة التي حملها معه من لالش، وقال بصوت متلعثم:

ـ اجلب لي كوب ماء يا ولدي.

فهرع ميرزا إلى خارج الغرفة، وعاد مع كوب ماء، فوضع الجد البراة في الكوب، لم تمض لحظات حتى صارت البراة تذوب تدريجياً في قدحها وتتعالى حبيباتها إلى أعلى الكوب كأن الماء صار يفور فيه، وقد تغير لون الماء ليكون لون التراب، ثم رفع الكوب بيد مرتجفة، وأطبق بشفتيه على حافة الكوب بعد أن اتجه وجهه إلى لالش، شرب الماء الفوار

داعيا متضرعاً أن تغادره الحمى، ثم طلب من ميرزا أن يجلب له شريطاً أسوداً وخيطاً أحمر، فذهب إلى أمه، وطلب منها شريط أسود وخيط أحمر، وهو يتسلمهما ويقول بصوت حزين:

- جدي مريض اليوم يا أمي.

ثم عاد إلى جده الذي راح يشد الشريط الأسود على رأسه من جهة الجبين، وأخيرا وضع يده على كتف ميرزا وخرجا سوية من البيت، والجد يسحب بتثاقل ساقيه حتى وصلا مزار الشيخ مند، وانسلا فيه، انحنى الجد على الأرض ورفع من أرضية المزار قبضة تراب، عفر جبينه بالتراب، وتقدم إلى نبع صاف تخرخر فيه المياه بهدوء، غرف بكلتي راحتيه الماء، وصبه على وجهه، فشعر ببرودة الماء تلسع وجهه بعد أن رسمت جداولا فيه تنزلق إلى صدره، ثم تقدم إلى شجرة زيتون، وقطف ورقة زيتون، ووضعها في فمه، وراح يلوكها حتى أحس بذوقها المر ينخز في بلعومه، ثم قفلا خارجين من المزار يبحثان عن شجرة الدفلى، فوجداها ليست بعيدة عن المزار، فشد الجد الخيط الأحمر في أحد غصونها، وراح يحل عقد الخيوط ذات الألوان المختلفة التي تشبه قوس قزح التي تزين الغصون، ويرميها على الأرض، وهذا يعني أن هؤلاء المرضى قد فلت عقدتهم، وإنه سيأتي شخص ما، ويفل عقدة الجد، وينقذه من الحمى اللعينة، ثم طلب الجد من حفيده أن يأتيه بجرة فخار مكسورة من البيت، وهو ينظر إلى أحواض معاصر الزيتون المتروكة، وقد تجمدت المياه فيها، عندئذ أدرك شدة الزمهرير، التقى مع حفيده عند ساقية المياه، وسارا سوية إلى مزار حجر كرمك في جنوب القرية، فعفر جبينه بتراب المزار، وأخذ من حفيده الجرة المكسورة، وراح يغرف بها المياه ويصبها على

حجر كرمك، ثم قفلا راجعين إلى البيت، وقد شاع الخبر في القرية أن الجد الكبير قد أصابته الحمى، وأن وجهه صار شاحبا، وقد خارت قواه، وهذا لم يعتده أحد من قبل عليه إذ أن الجد الكبير قوي البدن، وقلبه واسع، وصبره لا ينفد، وقد صقلته المخاطر والصعوبات، ربما ـ حسدته عين شريرة ـ هذا ما راح يردده أهل بحزاني بينما كان يمشي الجد متوكئا على كتف ميرزا حزينا صامتا لا حيلة له، وعند عتبة الباب وجدا ميرزا والجد ديكا مذبوحاً، فأدركا أن الأهل ذبحوا الديك كنذر للشيخ آدي كي يغادر المرض جدهم الكبير.

وفي الليل وعلى فراش مرضه غزته رؤيا تلو رؤيا، مرة أن الشرير الحيوان اختطف هنار، فهرع ميرزا حاملا فأسه ليحطم رأس الشرير الحيوان، وإذا به وهو يبحث عنها وجد حليها وأقراطها وضفيرتيها على صخرة، عندئذ أدرك أن الشرير الحيوان أكلها، فذرفت عيناه الدموع، وبكى بكاءا مؤلما، فأيقضت هذه الرؤيا الجد من منامه مكتئباً متذمراً حائراً وهو يتصبب عرقا، وكانت الحمى تشتد عليه، وهو يضع رأسه على الوسادة، ويحاول أن ينام، إنه الآن ينام في رؤيا أخرى: وجه جنائزي جامد، صارم وقاسي، يخون الموتى، نظرته غريبة فيها تهديد ووعد، تحركها عضلات الوجه بصعوبة، نظرة غريبة مرعبة، كئيبة متعمدة، الآن يرى الوجه قد تغير، وأتاحت له الفرصة أن يميزها بوضوح، ففتح الجد شفتيه، وتمتم بأقوال:

ـ لا ... ليس ميرزا ...

كان قوله أشبه بصرخة في منامه، وصار الوجه وراء قناع ضخم هائل متوحش، فأتت الكلمات

- أيها الشرير ابتعد عن ميرزا ...

كان هذا يؤلمه ألماً شديداً، إذ الوجع الشديد يؤذيه، فقد تمثل له الرعب وفظاعة الموت والشهوات المتلهفة للسياط والأغلال والقتل في غزو جديد، ويبدأ العذاب، وانتهاك الحرمات، فالوجه الجامد الميت، الآن لن يراه وهو يرفض أعوام ألسنة اللهب التي تفرقعت في بحزاني، ألا يكفي تلك الإبادات التي امتدت قرونا، إذ مذبحة تلو مذبحة، لم يرد الجد أن يثوى جسده وهو يكافح الحمى العدو، الشرير العدو، كان يجاهد في منامه أن يقنع نفسه إنه ينتصر على العدو، إذ لابد أن يقاوم لتكتمل رسالته إلى حفيده، وهذا يتطلب سلسلة تتابع أزمنة، لتكون مسيرة حياة جديدة مليئة بالحنان والمحبة، فليطرد هذا العدو الظالم القاسي من رؤاه، هذا هو لغز الخلود الإنساني، فلم يعرف كيف فز من نومه، ليرى مدهوشاً وجهاً لوجه قبالة المستبصر (الكوجك) الصامت، وقد راودت الجد رغبة أن ينهض من فراشه إلا إنه تسمر فيه، وقد احمر وجهه، وتراقصت أجفانه وهو يسحب نفسه في فراشه ساندا ظهره إلى الجدار، ساحبا الغطاء إلى بطنه، ويرى أيضا قد ارتسمت ابتسامة عجيبة على وجه الكوجك الملتحي، وهو في ثيابه البيضاء، تعتمر رأسه كوفية حمراء، ويلف خصره بحزام من قماش أحمر، كان الكوجك يحمل في يده اليمنى كتابا من عدة صفحات، وارتسمت على غلافه الخارجي مربعات كثيرة وفي داخل كل مربع حرف كبير. إذن هذا هو الكوجك الزاهد في الدنيا، المتفرغ للصلاة، المتضرع للسماء، المتعبد الذي يصوم مرتين كل سنة أربعين يوما في الشتاء وأربعين يوماً في الصيف، التقي الصالح الذي شاعت حوله في القرى أقاويل إنه

صاحب المعجزات والقدرات الخارقة أن يشفى المرضى، هو الذي يتصل بعالم الغيب، ويتنبأ بالحدث، هو الذي روحه نبيلة لا تقبل الأذى للإنسان أو الحيوان أو النبات، هو صاحب سلطان الخير يدفع البلاء عن شعبه، ويقاتل قوى الشر، ويدفعها، ويبعدها، ويطردها عن بلاده لذلك منزلته رفيعة عند الأيزيدين، الآن كان الكوجك مستغرقاً في عالم روحاني رؤاه بؤرة روحية بين مصائر أرواح الموتى ونعيمها، عيناه ساهيتان في اللاوجود، تبحران إلى المنتهى، وهو يرتقي بروحه الفاضلة في غياب، فلزم الجد الصمت، وحل في الغرفة طقس كهنوتي عجيب، كان الكوجك ساكناً، ترتجف شفتاه في أعماق السكون، شيء يلوح للجد أن الرؤى ترتفع في تحدٍ واضح، وقد تغيرت ملامح الوجوه في صمت طويل، حينئذ أغمض الكوجك عينيه وهو يبحث في الغيب، وربما يبحث في الحقيقة، ثم ارتجف كما لو أنه في إرادة أخرى، ثم خيم صمت أزلي متعمد، ثم فتح عينيه الثابتتين الواسعتين المخلصتين دون حركة أجفان ولا انسياب في خلق آخر. كان ثمة شيء رائع في شروده الذهني عن الوجود، وشرود عينيه إلى البعد، فيهما يستبصر ما سيحدث، ثمة شيء عجيب في جلسته التي تهدلت يداه اليمنى الحاملة للكتاب إلى حضنه، فصارت مسترخية، وهو يبحر في خيال أو يسرح إلى بعيد، كما لو إنه يعيش في مكان قصي، ثم انحنى رأسه إلى صدره، ولم تمض لحظة حتى ارتفع وجهه إلى عالم آخر، لم يعرف الجد أهو كان يخاطب السماء أو يخاطب أحدا آخر، إذ حل في الغرفة صمت غريب جدا، ثم صارت نظراته متحدية فيها تيقظ، ثم حميمة مصممة فيها ود القلب، بغتة تبين اللطف والنبل المجمدين في وجه الكوجك، وهو يداعب بيده اليسرى الحرة لحيته كما لو أنه يبلغ شيئاً غامضاً

عظيماً، يبلغه ويراه ويلتقيه بعيدا عن عالم الوجود، هذا اللقاء الغيبي لا يعرفه أحد لأنه لقاء أرواح نقية وتقية ومضيئة في محاربة الشر، فصار جيشاً لها من أرواح العباد الأتقياء لمحاربة جيش الأشرار، قوتان هائلتان ذات عداوة أزلية. كان لغز الكوجك الدنيوي الحاد الذي لا يقوى أن يبتعد عنه، فهو بقدر ما نزاع بين الجسد والروح في ذات الكوجك، هو في نفس الوقت نزاع تلك الأرواح، فلذلك هناك أرواح خير، وهناك أرواح شر، ودائما يتفجر الصراع دون مصالحة تذكر، لابد من مقاومة حتى لو كانت قصيرة الأمد التي غالباً ما تتوج بانتصار الروح الطيبة التي يحملها جسد الإنسان، فالجسد ثقيل والروح خفيفة، فروح الكوجك ساهرة ليل نهار لتذود عن شعبها، فما غيبوبة الكوجك إلا ارتقاء إلى عالم آخر، انغمس فيه بألفة شديدة خارج كينونة الجسد البشري، ارتقاء مضيء مبتهج ومجاهد، ذلك الذي انتصر فيه واقتلع من الجد الكبير مخاوفه من الشرير، لم تمض لحظات حتى التفت الكوجك إلى الجد ليبلغه عن انتصاره الكبير النهائي اللامادي، انتصار على أحابيل الشر والبلوى، وتلك كانت مأثرة بالنسبة إلى الجد، وقد غدا عنصرا آخر قادراً أن يقهر الشرير دون هوادة، ولا يخاف على مصير ميرزا.

فجأة وضع الكوجك الكتاب على كفه، وطلب من الجد أن يضع ابهامه على أحد الأحرف الكبيرة بين المربعات، فصارت تداعب الأحرف، وتوقف الابهام عند واحد منها، ففتح الكوجك الصفحة التي عنونت بذات الحرف، وراح يقرأ ببطء وهدوء كما لو أنه يترنم بالكلمات والجد يصغي بكل انتباه واهتمام، وعندما انتهى الكوجك من قراءة الصفحة نهض مع نظرة

راعشة صريحة للجد، حينئذ نهض الجد واقفا من فراش المرض، فأدار الكوجك ظهره واتجه بخطى بطيئة نحو الباب وهو يقول:

- مثل سليمان بتي ...

عندما خيم ظلام الليل نزع الجد ملابسه ، وتعرى، ثم لف نفسه بعباءة الصوف الحروانية وخرج من البيت ذاهبا إلى معاصر الزيتون قرب الكوم، مسك حجرا وراح يفتت الثلج الذي يغطي فتحة أحد معاصر الزيتون، ويغوص فيها ثم ينط ثم خرج وهو يتذكر حكاية سليمان بتي حين نط في الليل العميق من فتحة المعصرة ليطرد الحمى الحارة وخرج عاريا، وكان في نفس اللحظة قد مر الباعة المتجولين، وهم يحملون بضائعهم على ظهور حيواناتهم، فرأوا سليمان بتي يخرج عاريا من المعصرة، فأصابهم الرعب، وفروا هاربين، تاركين حيواناتهم، وهم يصرخون:

- عملاق ....

الفصل الثالث

الغزالة البيضاء

ـ كان في الزمان القديم سر مجهول له طقوسه الخاصة، هذا السر تحدث عنه القدماء من أهل بحزاني، وقد حفظته الصدور، وتناقلته الأجيال، وصار مثل أعجوبة، وقد تكون من أعاجيب الدنيا، لذلك سأقصه عليك بالتمام والكمال كما حفظته ذاكرتي، هناك من يقول أن هذا السر المجهول من صنع الخيال، وبناه الذهن، مثلما يكون النور أشد يكون ظله شديدا، والآن يعود الذهن إلى ما حفظته الذاكرة.

هذا ما ابتدأ الجد كلامه ليربط ذهن ميرزا إلى الحفظ وهذه عادة متبعة في بحزاني فالقوالون يحفظون الأدعية عن ظهر قلب، ويحفظون مراسيم الأعياد أيضاً عن ظهر قلب، خاصة وقد بطش السيف بهم حوالي ثمانمائة عاماً، لذلك صاروا يخشون على طقوسهم، فصارت شفوية محفوظة في الصدور، واتبعوا منهج الحفظ ، فالذاكرة تجيب عن الأسئلة حتى المتعلقة بالموت والحياة، فلذلك اعتمد الجد تلقين الحفيد بنفس ذات المنهج الحفظ في الصدور لأنه كان يخشى أن تنسى الحكايات بمرور السنوات. صمت الجد لحظة، وشرد ذهنه إلى ما هو من غرائب الدنيا، وبدأت الحكاية:

ـ تأتي غزالة بيضاء مرة واحدة كل مئة عام من أقاصي الأرض إلى بحزاني، تصعد جبالا وتهبط من جبال، تجتاز سهوباً وسهولا وتمر في غابات، وترتوي من مياه عذبة، وتتنفس أزهى عطور الزهور، فيكون شهيقها نقيا وزفيرها نقيا، هي

جذابة تشتهيها الذئاب، ولا يقدر أن يصيدها صياد، هي حذرة ذكية وسريعة الجريان، هي جميلة وقد وصفها الشعراء بالحكمة والجمال، وديعة تعشق صوت الشباب، تمتلك كنزا لا تملكه الغزلان الأخرى، وهذا ما يجعلها محبوبة عند أهل بحزاني لأنها تسلمه فقط مرة واحدة كل مئة عام.

اندهش ميرزا، وهو يسأل جده:

ـ ما هو الكنز جدي ؟

هز الجد رأسه، وقال بصوت واثق:

ـ ستراه يا ولدي أما الآن فنم.

فنام ميرزا بعد أن استغرق في تفكيره عن الكنز بينما كان الجد يتقلب في فراشه، تارة يغفو وتارة أخرى توقظه حكايات القدامى من أهل بحزاني، إنه يتذكرها، وسيقصها على حفيده سواء بصور أو مشاهد خيال من ذلك الزمان البعيد أو ما وراء الزمان الخفي، وكم هو حنون الصمت في الغرفة الذي يبدو ثقيلا على الجد الذي راح يتنهد بألم، ويأتيه نداء مكتوم من تنفس الحكايات، بيد أن الرياح ما زالت تجري خافقة ذات أصوات، والبرق يحث السحاب من ضوء برقه، ثم تبسمت الأرض لدموع سحائب، وميرزا في نومه مع الحكايات، قد تكون بيضاء أو سوداء، وقد تكون عذبة، فجأة هدأ كل شيء في بحزاني كأن السماء تهادن الأرض، وتمحو سحائبها ، وتكون مرهفة، وأضحت بدون غيوم، فنهض الجد بسرعة مثل هيجان مفزع كما لو أن الغرائب أتت في موعدها أو خارج موعدها في عتمة

الغرفة لأن روحه امتدت إلى مئة عام، فالغزالة تظهر مرة واحدة كل مئة عام، وراح يردد مع نفسه:

ـ إنها ستأتي، بالتأكيد ستأتي .

ثم أيقظ حفيده، وهو يكرر:

ـ انهض ... انهض ...

استيقظ ميرزا مندهشا دون أن يفهم ما يجري حوله، فتمالك نفسه، ونهض بوثبة من فراشه، لم يفهم شيئا سوى استيقاظ مباغت وهو يسمع صوت جده الخفيض فيه رقة حسم ، فسأله ميرزا، وهو قد تعود على المفاجئات التي يخفيها جده عنه:

ـ من هي يا جدي ؟

استدار نحو الجدار، وهو يرتدي ثياب الخروج، ثم ارتسمت على فمه الكلمات، كلمات مشتتة، تفترش في الغرفة كأنها تنبض من فمه المفتوح، وتقفز من داخله:

ـ الغزالة البيضاء.

تملك ميرزا فرحا لا مثيل له، وهو يكمل ارتداء ملابس خشنة من الصوف، وقال:

ـ أنا جاهز يا جدي.

خرجا صامتين وقت ما قبل الفجر، والظلام ما يزال يفرش أجنحته على بحزاني النائمة في ألفة، وتعايش زمني

سرمدي، وبدا الظلام حنونا يتنفس ما وراء الزمان في هذا الوقت، وقال الجد بصوت رقيق جدا، خفيض جدا:

- لا تتحرك، ولا تصدر صوتا، ولا تيأس من الانتظار !

فأجاب الحفيد، وصورة الغزالة البيضاء ترتسم في عينيه:

- نعم يا جدي.

واقتربا من رأس العين، واختفيا خلف صخرة كبيرة، وميرزا يعاني من الانتظار الطويل، فهمس في أذن جده:

- متى تظهر ؟!

فرد عليه جده، وهو يسحب نفسا عميقا، ويقول:

- لا تتكلم ... اسكت ....

وبدأ الظلام يسافر تدريجيا، وخرير رأس العين يخور قويا حادا شاقا طريقه إلى بحزاني، بيد طال الانتظار، وقد نفد صبر ميرزا وبصوت واطئ سأل جده:

- هل تأتي لتشرب ماء.

ورد عليه جده ممتعضا:

- نعم ... اسكت، ولا تتكلم.

كان الظلام غريبا وميرزا يتنفس البهجة، وهو يتذكر حكاية الغزالة البيضاء الوديعة، رفع رأسه ونظر حوله نظرة

شبه مختلسة، وعيناه تطرفان تحت حاجبيه الأسودين، ولم يفقد الأمل من ظهورها المفاجئ:

- إنها ستظهر.

هذا ما قاله مع نفسه، وقد ارتسمت ابتسامة عذبة نقية على وجهه المتورد، وظل ينتظر حائرا قلقا شارد الذهن في صمت تام، وهو يزهو بنفسه إنه سيرى شيئاً عجيباً، فارتعدت فرائصه، ودق قلبه نبرات واطئة، إذ لا شيء يظهر من هذا الظلام سوى الغزالة، إنه صار يهوى مثل هذا الظلام فها هو سيرى المفاجأة، وسيكتشف شيئا جديدا في انبلاج الخيط الأبيض من ظلام لم يشهده سابقا مثل هكذا انبلاج، فبدا الظلام يسحب نفسه كليا، ويتلاشى، وميرزا يراقب رأس العين، ومن راس العين أيضا يتلاشى الظلام ويسحب أذياله منها، ولوح لون الفجر البارد، إذ بدا خفيفا رقيقا، وروح ميرزا تتجاوب معه، وتتجاوب مع صبره، وجاءت لحظة التوتر ، ليهتز كيانه، وهو ينتعش بهذا المنظر المثير، الجميل، ولم يعد النعاس يأتيه، فهو أمام أعجوبة الفجر الأول القوي الذي يفرش بياضه على الجبل، وكلما جاءه النعاس يهز رأسه ليطرده، فراح جده يخاطبه:

- لا تنم.

ثم راح يراقب رأس العين، إذ ثمة صبر متوتر ينتابه، فاللحظات تمر ولم يغلبه اليأس، وهو يخاطب نفسه:

- إنها ستأتي ...

وهو يذعن للصبر والصمت، وقد تولدت عنده رغبة أن يذهب إلى رأس العين ليشرب الماء ، ثم تلاشت عنده، وهو

يراقب خريرها الجذاب كأنها هي الأخرى تريد أن تثب بمياهها إلى أعلى بالرغم من أنها تبعث متعة إلى نفسه لأن مياهها ترقص وتغني، تركض وتغني، لذا ظل في مكانه بلا حراك يترقب ظهور الغزالة المدهشة، وقد مر عليه الانتظار ببطء، وقلبه ينبض بلهفة، وتتدفق داخله دماء حارة، وهو يراقب المياه مرة أخرى، فكانت تجري غزيرة، متفجرة، تصطدم بالصخور، وترحل إلى داخل بحزاني مندفعة صاخبة، وتدفع معها حشائش وأعشاب وعيدان صفراء، إنها تجرف أشياء كثيرة في طريقها، وتتبختر في تحررها من نبعها مع مياه أمطار شكلت مجاري في الجبل، كانت المياه تتسكع في مجار ملوحة بأنها طائشة.

- جدي ... جدي ... هذه الغزالة البيضاء !

هذا ما قاله بصوت خافت، وقد أخذته الدهشة والانبهار، وراح يتأملها وسط قطيع من الغزلان ذات الألوان البنية الفاتحة التي راحت تنتشر بين الصخور، وتقترب من المياه، وحدق ميرزا في الغزالة البيضاء الجميلة الرشيقة ذات العينين السوداوين الواسعتين، وذات قرنين لمساوين دقيقين بحلقات متدرجة حولها، وأذنين طويلتين نحيفتين مدببتين، وذيل رشيق قصير تحركه يمينا وشمالا بأناقة، وقد لاحظ ميرزا فروتها الناعمة البيضاء التي تجذب النظر إليها، ولم تمض لحظات حتى دنت من رأس العين، وحركت رأسها وتوترت أذناها، وهي تتطلع فيما حولها كأنها أدركت وجودهما بحاسة الشم القوية، وأيضا تتمتع بحاسة بصر قوية، تشبث ميرزا في بثوب جده لئلا تهرب بأرجلها القوية الطويلة النحيفة، وذات العدو السريع.

- كم هي جميلة يا جدي !

فرد عليه جده برقة قائلا:

ـ أذهب إليها بحذر وترو.

فخطا ميرزا إليها بتأنٍ وهو يتحرق شوقا إليها، فكانت واقفة إلى جوار رأس العين تحدق في ميرزا، وتحرك رأسها، وقد انتابته رغبة جامحة أن يلمسها، ويتحدث معها، فصار يواجهها وجها لوجه، لم ير ميرزا مثل روعتها، بيد إنها خفضت رأسها إلى المياه وراحت تشرب منه، واستغل ميرزا هذه اللحظة، واستدار إلى جده، فكان يؤشر له أن يتقدم إليها، فرفعت رأسها، وحدقت فيه بحدة متزايدة، وتظاهرت بسعة قوة تحديقها، وبؤرة رؤيتها، فكان ميرزا ساكناً في مكانه، وهو ينظر إليها بعينين خجولتين، فوجد أن عينيها براقتان، تتوهجان ألقا، وكانت روحه مهتاجة أن يتقدم إليها، ويلمسها، ظل ينتظر بلهفة لئلا تغادره واثبة قافزة فوق الصخور، تجرأ، وخطا نحوها مترددا، ثم توقف حائرا قلقا. كان يتأمل كل منهما الآخر، فالتقت نظراتهما المغلفة بالحذر من عيون كأنها مبللة بالمطر، نظرات غريبة مغسولة بالصفاء، وصارت ترقص بين الأجفان، كم كان الصمت هائلا في تبادل النظرات، كان ثمة ترقب وحذر بينهما، ثمة توجس غير مفهوم، أطرق ميرزا بصره إلى الأرض، ثم رفعه، وانفجرت روحه المنفتحة الدافئة، لتتوحد مع الغزالة، إذ نشأ توحد لا ينفصل في هذه المواجهة الحميمية، عندئذ تقدم غير مبال بما يحدث، وكان تقدمه عدة خطوات، وتقدمت هي إليه متباهية مثيرة، الآن حلت اللحظة الجبارة أن لف ذراعيه حول عنقها، ووضع رأسه على قرنيها تمتلكه تلك العادة التي لا توصف، وكانت قطرات المطر تتدلى من أغصان الشجر ببطء لتعانق الأرض، والسماء ترش رذاذا خفيفا عليهما،

ثم داعب فروة ظهرها بنعومة ورقة، لتكون ألفة الصداقة قد ابتدأت في البراءة التي لا مثيل لها، كان كل شيء قد جرى بصمت في برهة مدهشة، وقد أحس ميرزا إنه امتلك العالم كله في زهو ومتعة وحنان، أمن هنا يبدأ السر الخفي يتلألأ وينتهي في خير إذا كانت الروح تمشي بطريق صحيح ؟! فثمة العديد من الأشياء المشرقة الجميلة لم تتبلج بعد الظلام. أجل كان كل شيء يجري بصمت انتصار، خاصة وقد انسحبت بهدوء من بين ذراعيه إلى عالمها الحر كأنها توحي إليه أن ليس لديها متسع من الوقت أن تبقى وتمرح معه، فهناك عدوها الصياد يطاردها، ويريد ذبحها، فوقف ميرزا بلا حراك ينظر إليها، وهو يودعها بنظراته، ويتأمل قفزاتها على الصخور، وتتهادى في مشيتها، وتحك نفسها بشدة بالصخور. فجاء جده مسرعا، وتعجل في القول:

- اتبعني يا ولدي.

إلا إنه لم يتبعه فظل ساكناً في مكانه، وقد رأى جده يخرج من جيب ثوبه كيسا صغيرا محاكا من صوف أحمر، ويتابع حركة الغزالة الغريبة بحك جسدها بالصخور، وإفراغ حبيبات سوداء، وجده يستعجل في جمعها، ويضعها في الكيس، ثم تسمر ميرزا مندهشا قرب عين رأس العين تاركا جده يتابع الغزالة، وكانت روحه متألقة متقدة لطيفة غير مبال بما يقوم به جده، عندئذ أبشرت الدنيا، إذ مرت سحابة بيضاء فوق ميرزا تنث عن نفسها، وأنزلت أول المطر رشا ثم طشا، فكان أضعفه وأخفه هو الطلل، وكان الرذاذ، فمد ميرزا يده في المطر، فإذا به كان أبيضا فكان هذا المزن. ثم نضح المطر، وصار قطراً

بين قطرتين. كان كل شيء يزحف ببطء وتوق ميرزا ولد اليوم خارج البعد وما وراء الزمان.

ولم يمر وقت طويل حتى ظهر الجد فرحاً، وهو يرفع الكيس، ويقول ببهجة:

ـ هذا هو المسك الأسود ملك الأطياب.

وسارا عائدين إلى البيت حيث ابتدأ الديك بالصياح، إذ العالم الذي ما زال نائما قد نهض، كان الأمر يبدو مضيئا، ويبدو أيضا أن وجوه أهل بحزاني في انبلاج نهاري جديد في الحياة، وكان جده يواصل حديثه وهو يمشي وراءه ويستمع إليه: المسك الأسود يا ولدي نادر، وأغلى وأثمن عطر في الدنيا يشفي الروح والجسد من الآلام، ويقوي القلب، هذه الغزالة البيضاء تظهر كل مئة عام، تنثره من سرتها في المكان الذي تحبه بعد أن تمتلئ سرتها به، وعندما تكون فرحة، هذه أعجوبة يا ولدي، ويقول القدماء إنها تظهر أيضا عندما يكون أليفها من البشر بحاجة إلى هذا العطر، ولماذا لا تظهر دائما ؟ أنا أقول لك: لأنها تخاف البشر، وخاصة الصيادين أعداءها، لذلك تخرج في الليل تبحث عن الأكل، وتختفي في النهار في أماكن لا يصلها إنسان، وتظهر فقط في بداية الفجر، ونهاية الغروب، وهي تكون في أوج نشاطها وحيويتها، فهذا المسك هو أشرف وأطيب الروائح الذي يضرب به المثل ولا يشبه بغيره، إنه يغري حتى الطائر في السماء، لأن رائحته تحلق بعيدا، إنه فواح لسنوات.

الفصل الرابع

شجرة الزيتون

أن لشجرة الزيتون أساطير تمتد إلى ماض سحيق موغل في القدم، ولم تحظ أية شجرة أخرى في موروث طقوس العبادة ومراسم التعبد بهذا الاهتمام والعناية والتعلق مثل شجرة الزيتون، فهي مقدسة، وهي مباركة ، وهي شجرة الحياة، وشجرة الجنة، والشجرة الراعية للإخصاب والعطاء، ومنها تفوح أنسام الآلهة، أزهارها بيضاء تزهو العينان حين تنظران إليها، وثمارها لامعة براقة ذات نور روحاني يتسلل إلى أعماق البشر، تعيش حياة طويلة وقد تصل إلى قرون، وحتى إذ مات جذعها فإنها تنبت من جذرها فسيلة جديدة، وتعيد نفسها بشجرة جديدة، لكن شجرة الزيتون ليست خالدة مثل العنقاء تحرق نفسها كل مائة عام، وتنهض فتية من الرماد. أجل، كانت شجرة الزيتون أول شجرة نبتت بعد الطوفان، ويقال إنها أول شجرة غرستها الآلهة اليونانية أثينا قرب نبع ماء، وسمي باسمها جبل الزيتون الذي تعبد سليمان فيه لربه في حوض البحر الأبيض المتوسط، وقد سمي الرومان ولاية من ولاياتهم بزيت الزيتون، وهي تلفظ بالكنعانية زيت، وبالعبرية زيتن، وبالسريانية زيتا، وبالأكدية زيرتون، وزيتها سكب على رؤوس الآلهة وأنصاف الآلهة والملوك والأميرات الجميلات والعذارى الحكيمات، ومسحت بالزيت أيضا أصناماً وتماثيل وأجسام أبطال مسحاً كاملاً وأطلق عليهم أولئك الممسوحة أجسادهم بالزيت، وذات يوم نبتت شجرة زيتون ضخمة في أرض اليونان، لم ير اليوناني مثيلا لها، فسميت المدينة التي برزت فيها أثينا، وانبثق قربها أيضا نبع غرير فسمي بوسيدون، وهكذا ارتبطت شجرة

مجموعات شبيهة بالعناقيد، فلكل زهرة فيها أكثر من أربع بتلات بيضاء ذات مدق وأخرى بدون مدق وتلك بمدق ناقص، ثم تنمو ثمرة، ثم زيتونة بألوان تبهر عيني البحزاني، فبدايتها لون أخضر، ثم أصفر، ثم متقلبة إلى أحمر خفيف، ثم أحمر غامق، ثم أسود، وهذا بداية موسم القطاف، وإذا أرادها البحزاني سوداء فينتظر شهرا آخر أو شهرين ثم يقطفها سوداء، أما أوراقها فتبقى خضراء لامعة حتى في برد الشتاء، هذه هي شجرة الزيتون والزيتونة سواء في بساتين شيخ بكر أم بستان التوت أم بستان العتمي وسمي هكذا لكثافة أغصان الزيتون المتشابكة التي تخلق ظلالاً كثيفة في الصيف، إذ كل البساتين تشكل قوسا يمتد من غرب القرية إلى شرقها ليعانق بعشيقة.

أما ميرزا الذي تجتذبه الرقة، ويجتذبه اللطف، ويهرب في مئة حلم إلى أول عالم لا نهائي من عوالم حكايات جده، ليدخل مرهف الحس لحنا قبل فوات الأوان، طليقا في ضروب رغائب طفولته التي يحملها في قلبه، هذا القلب الرقيق في مسحة الكون الذي يلفه بعجائبه، فغالبا ما كان يقضي أوقاته في بستان الزيتون يمرح مع الطيور دون كلل أو ملل حين تبني أعشاشها في الربيع، يطاردها بين شجرة وأخرى، وكم تمنى أن يكون عنده جطلا مثل الصبيان وهي مصيدة صغيرة من خشب على شكل رقم سبع يضع الصبيان فيها حجرة صغيرة، يسحبون شريطيها المطاطيين، ويرمون الحجرة باتجاه العصفور، فيسقط رافسا، ثم ينتفون ريشه، ويشوونه على نار هادئة، ويأكلونه مع عروق الزيتون وهو من طحين وحمص وزيت الزيتون، وذات مرة مسك عصفورا بني اللون جميلا سقط من عشه، تفرس في عينيه، ومنقاره الصغير، ما لبث أن نفث زفيرا دافئا في وجهه،

فتراقص ريش العصفور، ثم اغلق عينيه، ثم بعد لحظة فتحهما، وهو يتخبط بين أصابعه:

ـ تريد أن تطير.

هذا ما خاطب به العصفور، ففتح العصفور منقاره كأنه يجيب:

ـ نعم ...

ثم أطلق سراحه في الفضاء الرحب لأن جده اشترط عليه أن لا يسجن طائرا أو يؤذيه، فراح يتابع طيرانه، وعاد إلى عشه في أعلى شجرة الزيتون، وهو ينصت إلى زقزقته، وقد امتلأ قلبه دفقا من الانتعاش، فقفز على قدميه، وهو يصيح:

ـ جدي ... أطلقت سراحه.

فيرد عليه جده فرحا:

ـ أنت وفيت بالعهد يا بني.

وفي الربيع السابق، قطع غصنا ممتلئا بالزهور، وجعل منه إكليلا، وتوج به رأس هنار قائلا بصوت وديع:

ـ أنت أميرة.

فضحكت من ملء روحها، ونزعته من رأسها، ووضعته على رأسه قائلة:

ـ أنت أمير.

ثم هرعا سوية في البستان يلعبان مع الطيور، ويطاردان فراشات نادرة بمختلف الألوان والأحجام والأشكال التي كانت تنتقل بين زهور الزيتون، وهي ترفرف فوق الزهور، فيختلط رفيفها الناعم مع زقزقة العصافير، فيكون الربيع متفردا بجماله البديع، ورونقه الخلاب.

وعندما كانا يحسان بالتعب في ركضهما حيث تكون الشمس في أوجها بصيفها الحار، يلتجئان إلى ظل الشجرة الكبيرة، ويستلقيان تحته، وعيونهما تتعلق بأوراق الزيتون الناعمة الصلبة الملمس ذات النسيج الجلدي، الحاد طرفها، المتصلة بفروعها على شكل أزواج، إذ كل ورقة تواجه ورقة، وتتقابل بلون أخضر لماع قد يميل إلى الرمادي أحيانا، داكن إلى حد ما في جهته العلوية، وفضي في جهته السفلى، ويكسو الجهة العلوية شمع يجنبها تبخر مائها، ويقي جزءها السفلي من أشعة حر الشمس، وأحيانا كانا يسندان ظهريهما إلى جذعها، ويحلقان في براءتهما إلى عالم فسيح، ويسألان السحب البيضاء بعيونهما:

- أنت جميلة أيتها السحب.

أحب ميرزا الشجرة الكبيرة لأن هنار أحبتها، ولأن تداعياته، وتأملاته كانت في ظلالها، وهي تواجه شجرة هرمة منزوعة اللحاء كثيفة الأغصان متداخلة كأنها تعانق بعضها، وقد مالت قليلا باتجاه شجرته الكبيرة، وكان غالبا ما يردد مع نفسه، وهو يتجه بهدوء ودفء إليها:

- شجرتي ...

الشجرة الكبيرة معمرة تتوسط البستان، ذات هيكل مهيب، متأصلة جذورها في أعماق الأرض، وذات جذع غليظ صلب بني اللون، تتفرع في أعلاه أغصان كثيرة، وقرب قاعدته عقل كثيرة حيث أخذت كشتلات جديدة، فمنظر الشجرة الكبيرة جذاب وملهم لتأملات ميرزا البريئة، فعند هذه الشجرة حدث شيء مروع كما لو أنه زرع مثل شجرة الزيتون في خيال ميرزا، وكثيرا ما كان يعاوده الحدث الذي سمعه من أحاديث جده، فكان يتوهج قلبه ألما، ويصنع له صورا في مخيلته، مرة تختفي ومرة أخرى تظهر بمأساة، فشكلت عنده هوة كبيرة مع الماضي القديم، وهو يكرر مع نفسه لماذا ؟! هذا السؤال كان يلازمه ويدفعه إلى المجهول القاسي، وفي أحيان كثيرة يدفعه إلى عالم بغيض فيه القسوة والموت، فذهنه جريح تجاه الأمس البعيد الكئيب، إذ دوما كانت الدموع والهموم والدماء قد حكيت فوق كل ثوب أو صبغت كف دمها فوق صخرة في وادٍ أو كهف أو مغارة. الآن تخرج الصور من ظلامها، وتظهر غائمة سوداوية تمر عليه عابرة مدلهمة، إنه هاجس نسائم الخوف لابد أن تخرج من ظلام، كما أن حزنه حزن لا حول له تجاه ما مضى، حزن لا يوصف دون أن يترافق مع نحيب، فهذه صور مدلهمة، هذه هنار انبثقت له مثل شرارة لهب، امرأة منتفخة البطن بجنينها الذي تحمله في أحشائها، انهارت مرهقة محطمة متهاوية من شدة الإجهاد، إذ كان جند الموت يطاردونها، فتارة كان يتخيلهم بعربة نار يغذون عجلاتها بأجساد وعظام ويروونها بدماء، وتارة أخرى كان يتخيلهم على ظهور جياد شاهرين سيوفهم في الفضاء، لم تمر لحظات حتى تعثرت هنار وسقطت تحت الشجرة الكبيرة لاهثة، يتصبب وجهها عرقا، وعيناها مرفوعتان بهلع إلى جنود الموت، وهم يدنون منها،

ويقتربون منها، يطلقون ضحكات عالية، وقهقهات، فهذا يقول: الجنين ذكر، وذاك يقول: الجنين أنثى، ثم صارت أشعة الشمس تضرب وجهها الهلع، كان وجهها يستبكي ليس لذاتها بل لجنينها الراقد في بطنها، وكان جنود الموت يحومون حولها بوجوههم الشرسة المكشرة بأنياب حادة سوداء. عندئذ حاول ميرزا أن يضرب على عينيه حجاباً قاتما أو يغشيهما غمامة رمادية كي لا يرى الحادث المروع الذي غالبا ما كان يرتكبه الجنود العثمانيون، وأراد أن تغيب عن ذهنه الصور أو تخمد في عينيه، لم يكن يريد أن يرى هنار تموت موتا شنيعا، فصارت الصور مثل شبح غارق في ظلام، وصار ميرزا يرى الجنود غرباء عن عالم البشر، فهم متوحشون قساة القلوب، وما قهقهاتهم إلا صدى عواء متعطش للدماء، ها هو الموت العنيف يستيقظ في عيني ميرزا، ثم ترتعش شفتا هنار بكلمات مبعثرة مرتجفة:

- ألا تستحوا من ربكم ؟!

ثم أصبحت الكلمات صوتاً مذعوراً يسبح في الهواء، ثم يتضخم، ويثور، ويصعد إلى السماء، ثم يهبط، ويتهاوى فوق أشجار الزيتون، ثم يتحول إلى أغنية، ثم يسير بمسار حزين سحري، ويتغير إلى أنشودة، فتصدح الطيور، وترعد السماء، وتهتز الأرض، وصدى رنين يتردد في الأرجاء:

- ألا تستحوا ...

وما زالت تزهر شفتا هنار في عيني ميرزا، فيغلق جفنيه، ثم يفتحهما بنظرة خشوع إلى بطن هنار، ثم قطرة دم

تنزف، ثم يغمد العثماني السيف في بطنها، ثم يبقر بطنها، فثمة نزيف غزير يسيل ويغطي بستان الزيتون، ويسير بعيدا، والسماء ترتعد ، والأرض ترتعد، أصوات تتداخل في نحيب وبكاء:

- ألا تستحوا ...

وقد تولى العثماني الدموي تعجب، إذ لم يعرف دنس روحه مثل صفاء ونقاء روح هنار، فلم يهزمها الموت، فكانت روحها عظيمة، وظلت تتعاظم أعواما وعقودا وقرونا، وميرزا يبتكر صورا من خياله، فتدحرجت الدموع من وجنتيه المتوردتين، فقد عثرت روحه القلقة على ذاتها كما لو أنه يخوض معركته الخاصة مع ذلك الماضي الأليم، فنهض من ظل شجرة الزيتون الكبيرة، وقد أخذ الجوع به، فامتدت يده لتقطف حبة زيتون دون أن يدري، ووضعها في فمه، لم تكن إلا مرا علقما، فنفضها من فمه، وهو يقول بغضب:

- إنها مرة.

فراح يبتكر صورا لهنار الطفلة هذه المرة متنورة مشرقة تخرج من شرنقة فراشة ساحرة في حسنها وجمالها، ترفرف بجناحين أبيضين فوق زهور الربيع، وأخيرا ابتكرها تخرج من برعم زيتون مع قطرات الندى في شفق فجر جديد، وهو يبتكرها مئة مرة حتى جاءه موسم القطاف في العام الماضي، وقد اندهش للقطاف الضرير الذي راح يقطف طوال النهار، ويضع الزيتون في كيس قماش لفه على خصره دون أن يبقى

من الزيتون المعلق في أغصانه إلا القليل، وقد سأله ميرزا بانبهار:

- عمي، كيف ترى الزيتون ؟!

كان يجيبه مبتسما:

- أنا أعمى، عيناي لا تريان، أنا أرى بصدري.

لم يفهم ميرزا، فراح جده يوضح له عن الإحساس، والتعود باللمس، وبقي لم يفهم، فما لبث أن هرع في البستان ليطارد أسراب العصافير التي تزغرد، وتنقر في الزيتون، وإذا به يواجه بقرة صفراء ضخمة، يتهدل من رقبتها حبل يسحل على الأرض ويترك أثره فيها وهي تقضم العشب وتجتره، وتهز ذيلها، ثم ترفع رأسها قليلا وتطلق خوارا مديداً، فقال مع نفسه:

- إنها هاربة من الراعي.

ثم خطا نحوها، وهو يصرخ بها:

- دع ... دع ... دع ...

ألا أن البقرة لم تخرج من البستان، فمسك طرف الحبل، وحاول أن يجرها غير أنها شدته بقوة، وأسقطته على الأرض، وراحت تعدو، وتخور، وهو يعدو وراءها، وجده يبتسم ويتابع محاولاته الفاشلة، فجأة جاءه صوت نباح كلب، فتطلع حوله يبحث عن الكلب، ما لبث أن برز في البستان يريد البقرة، اتجه نحوها، وراح يحوم حولها وينبح، ليسوقها إلى راعيها،

استجابت البقرة، وخرجت من البستان تعدو، والكلب يسوقها إلى القطيع الذي فرت منه. حينئذ هرع ميرزا إلى البيت، ليخبر أمه عما دار في البستان، فابتدأ قوله:

- ماما ... اليوم دخلت بقرة إلى البستان.

ابتسمت، وهي تروح وتجييء في فناء الدار، وتهيئ مراسم عصر الزيتون بعد أن عملت منه كميات ليكون طرشيا مكبوسا، ثم سألته بصوتها الحنين:

- هل طردتها ؟

فنكس رأسه إلى الأرض كما لو أنه كان يشعر بالفشل، وقال بصوت حزين:

- لا ... الكلب طردها ... ماما ... كانت كبيرة ...

ثم راح بصره يقع على أكداس الزيتون المعبأة في أكياس (كواني) قرب المعصرة، فأردف قائلا:

- اليوم نعصر الزيتون ...

فهزت أمه رأسها، وهي تقول:

- أجل يا أبني ...

فجأة دخل جده يرافقه القطاف الضرير، وابتدأت مراسم العصر بمعصرة حجرية نقرت في صخرة لتكون في حفرتها داخل فناء الدار أشبه بحوض صغير، وتصبح ملساء ناعمة لتراكم الأعوام عليها، عملت على أطرافها ثلاث فرش ليعصر

فوقها الزيتون ويسيل نقيا إلى الحوض، وكان قربه قدر كبير يغلي فيه الماء، وهم يدوسون على الأكياس والأم تغرف الماء بطاس كبير، وترشه على الأكياس، وهم يعصرون بأقدامهم، وزيت الزيتون ينساب في الحوض، حينئذ مرت ساعات، عندئذ بدأت الأم تغرف من الحوض الزيت بكارفة خشبية نهايتها طاس، وتصبه في تنك ، هذا الزيت الغني بالدهون النقية. هذا كان أول عصر لقدمي ميرزا من موسم قطاف، وقد امتلأت في روحه المحبة للزيتون الذي أحس بنكهته الطيبة الدسمة مبكرا، نعم زيت عجيب من ثمار الزيتون براق طازج شفاف.

ولكن في هذا اليوم من منتصف تشرين الثاني أطلت الشمس باهتة من بين سحب السماء الشاهقة العلو، سحب بيضاء مبعثرة عشوائياً فوق بحزاني، وفوق سهلها الشاسع الذي تؤطره وهدات تلوت بين تلال هائلة، وتؤطره أيضا طرق رملية لتربط القرى في نسيج متطاول من التلال مثل لوحة بديعة التكوين إذا ما سرح البصر فيها فيقع على حقول محروثة أو تنتظر الحراثة أو تقع العين على أشجار عارية من أوراقها تغرد طيور فوق أغصانها، فتسقط بقايا أوراق ذهبية معلقة بأغصانها بحركة اهتزازية راقصة، فتكون أشبه بهمهمة أو حفيف خافت لتعانق الأرض الندية، وتتناغم مع أنسام ناعمة باردة، لتعزف لحن الشجر والأرض والإنسان. هذا التآلف يخلب روح الأيزيدي، ويذهب خياله بعيدا، وينتعش ذهنه بما آلت إليه طقوس الحياة والكون، وهو يتنشق هواءاً صافيا عليلا غير أن أشجار الزيتون لا يضاهيها شيء آخر، فدائما تحلق ترنيمة البحزاني إليها، وهي لم تتخل عن أوراقها، فهي دائما خضراء، إذ لأوراقها معزوفتها الخاصة مع تلك الأنسام الرطبة القادمة من الجبل،

فتتمايل أغصانها بلطف، وينبعث حفيف أوراقها مع خرير سواقي المياه، أجل، في هذا اليوم دبت حركة غير عادية في بحزاني، القرية من عصر قديم تبدو اليوم شيئاً آخر في لطفها وسخائها، إذ كل شيء ينمو فيها بكرامة، ويتدفق عند البحزاني فيض إيقاع متوازن عذب مع السماء والأرض والحياة ، فالسماء التي فوقه خالدة من الخوالد، حتى الأعشاب النامية في الجبل خالدة من الخوالد، والأمطار التي تغسلها خالدة من الخوالد، لأن البحزاني لا يمكن أن يعيش إلا صدقا وأصالة، أليس الأيزيدي في السومرية هو الإنسان السوي المستقيم والروح الخيرة غير الملوثة، الذي يسير في الطريق الصحيح، أجل، لقد دبت اليوم حركة أكثر حيوية ونشاطا، فتداخلت أصوات بشرية بهيجة مع صيحات وقرقرة مياه وحفيف أوراق وتغريد طيور ونباح كلاب وخوار بقر وثغاء أغنام، إذ بدأت القرية تضج، فهذا يحمل معولاً ليقتلع صخرة أو دغلاً أو يحفر في الأرض، وذاك يحمل مسحاة ليحرث التربة الرمادية، وراعٍ يسوق قطيعه إلى المراعي، ورجل يشد حزامه إلى خصره، ويضع قدمه على جناحي ديك، والديك يحتج ويقاوم ويطلق صوتا حادا، ويرفس برجليه، ويحاول أن يضرب بجناحيه رافضاً الألم، لم تمض لحظة، فيترك مذبوحا في الحوش، وقد عمل السكين في رقبته، فتتناوشه أيدٍ نسائية ناعمة، وتبدأ بنتف ريشه، ليجهز في قدر، تضرم تحته نار، فتبدأ تقرقع أغصان يابسة، ويتدفق وهج أحمر، فتأتي عجوز البيت، تراقب موقد النار أو تجلس قرب الموقد وتحرك نولها لتحيك درعا لفتاة من صوف خالص، ثم تتنهد، وقد حلت شالها، وأسقطته من رأسها ليستقر على كتفيها متفادية وهج النار، ثم تنهمك بأحاديث شتى مرحة مع أبنتها، وقد ارتسمت ابتسامة خجلة على وجه الفتاة

خاصة وإن الحديث تشعب إلى الثلج الأحمر، إذ بدأت العجوز تتنهد وتروي قصة أشجار الزيتون المرعبة التي استطاع أهل بحزاني يتجاوزونها بتكاتف وتعاون: حدث ذلك في الشتاء... بداية القرن ... القرن يسمونه العشرين، فيه هبت عاصفة رهيبة، عاصفة ثلج حمراء، فسمي ذلك العام عام الثلج الأحمر... لا أحد يدري لماذا ثلج أحمر ...إنه أحمر ..واحد يقول السماء أنزلت ثلجا أحمر ... واحد يقول العاصفة جاءت بغبار أحمر ... المهم إنه ثلج أحمر تراكم فوق أشجار الزيتون... تكسرت الأشجار وحلت الكارثة ... حزن الكبار والصغار ... ما فائدة بحزاني دون أشجار الزيتون ... كان ذلك في ليالٍ مظلمة باردة ... اجتمع وجهاء القرية، وشيوخها، ومعمروها في بيت الكوجك حسن المعروف بزهده ونزاهته وصبره وصفاء روحه، ورجاحة عقله، أحبه أهل بحزاني، وأحب هو أهل بحزاني، وأحب أشجار الزيتون، تداولوا وبحثوا في الأمر بعد أن هدأت السماء، وبعد أن دمرت البساتين، وذابت الثلوج، وقد أشرقت الشمس بعد شهور، وشجرة الزيتون تقاوم الكارثة، وتأبى أن تموت، فتنهد كوجك حسن، وقال بصوت وقور:

- ستبرز براعم الزيتون بعد عدة أيام.

ابتهجت الوجوه فرحاً، وانتابت الأنفس غمرة عامرة من ارتعاشه الأمل أن تعود شجرة الزيتون زاهية باهيه في سموها، خاصة جاء ذلك من تصريح الرجل الحكيم الجليل، فخيم صمت ثقيل على مجلس التجمع، ما لبث أن زعزعه شيخ معمر قائلاً:

- الماشية ستهجم على البساتين، وتأكل البراعم ... إنها تتضور جوعا ...

صمت كوجك حسن لحظات متفكراً، ثم قال بصوت حاسم:

- امنعوا الماشية أن تدخل البساتين.

حينئذ قال أحد الحاضرين متسائلاً:

- وإذا دخلت ... ؟!

فرد كوجك حسن بعجلة دون أن يجعل الاجتماع يطول في أحاديث:

- اذبحوها ... ووزعوا لحمها على المحتاجين ...

هكذا يا ابنتي مرت الأيام، وإذا بأحد الأفراد يطرق باب بيت كوجك حسن، ويخبره أن بقرة صفراء دخلت بستان الشيخ بكر، فلم يتردد كوجك حسن، فقال بحزم:

- اذبحوها ...

كان الشاب الذي جاء بالخبر ينظر إليه بحزن، وهو يتلعثم بكلامه:

- إنها بقرتك، وإنها ولدت وليداً قبل أيام.

حدق كوجك حسن بتمعن إلى الشاب، وهز رأسه قائلا:

- يا ولدي لا أعفو نفسي من عهد اتخذناه سوية ... اذبحوها ...

هكذا يا ابنتي ذبح أهل القرية البقرة، ووزعوا لحمها على المحتاجين، ولقب أهل بحزاني الكوجك حسن بالأمين الكريم،

ثم عادت أشجار الزيتون سخية معطاة، إنها مباركة، وشجرة خير، تأتين بموارد رزق.

هكذا انتهت قصة شجرة الزيتون في هذا البيت التي سردتها العجوز لابنتها، ومن يدري قد يكون لشجرة الزيتون قصة خاصة في كل بيت من بيوت بحزاني، لكن في هذا اليوم عمت حركة في بحزاني بتباشير خير وبركة، وباشر البحزاني بحراثة الأرض في أسفل القرية، ويد البحزاني تمتد إلى كيس حبوب القمح، ينثره، وهو يتقدم إلى نهايات الخطوط التي حرثها، ثم يعود راجعا من حيث بدأ، وينكب على عمله بجد وأحيانا بصمت، ثم يصرخ بغضب ليطرد الغربان ذات اللونين الأسود الفاحم والأبيض، المتواثبة فوق الرقع المحروثة، وتشحذ مناقيرها على البذور لتلتقطها من التربة، ثم ما تلبث أن تفر، وهي تنعق بأصوات عالية مزعجة، لتغزو بساتين الزيتون، لأن الغربان مغرمة بأكل الزيتون الذي صار بمثل هذا الوقت أشد نضجا وبراقا خاصة وإن الغربان مولعة بأكل الثمار البراقة والزاهية الألوان، واللامعة ، بينما كان ميرزا مولعا بمطاردتها، ورميها بالحجارة، فوقف الآن باهتاً، واضعاً يده على فمه، مندهشاً لهذا الغزو الذي لم يتوقعه بهذه الكثرة، التي راحت الغربان تهجم بشراسة، وتنقر الزيتون بتهالك، وهي تطلق نعيقها المزعج الذي يشبه صراخ: قاقي ... قاقي ... قاقي ... بينما كان ميرزا ينظر إليها، وهو يردد بخفوت:

- قاقاجي ...

فجأة احتجب شعاع الشمس لبرهة من الزمن، فرفع ميرزا رأسه إلى السماء، وإذا به يرى تشكلا عجيباً لأسراب

طيور محتشدة بالآلاف محلقة هائلة خلقت أشكالا مختلفة في الفضاء، وعلى حين غرة اخترق طائر جارح تشكلها، فتفرقت، وتبعثرت، وتحطم تشكلها الرائع في السماء، فهبطت مسرعة إلى أشجار الزيتون ببراعة وخفة، وهي تصدح، وترفرف بأجنحتها، فملأت الأشجار، فكان منها من ينقر في الزيتون، وكان منها يتسلق الأغصان بمهارة عالية، ومنها من يسير ببطء على الأرض، ومنها من يشدو ويصفر ، كانت سوداء قاتمة ذات ريش لامع معدني يصدر بريقاً عجيباً ، فتعلق هذا البريق بعيني ميرزا، الذي كان يحدق في قوة جسدها، وعنقها القصير، وأقدامها الرباعية الأصابع الطويلة نسبيا، ذات المخالب المعقوفة والكبيرة، ومناقيرها رفيعة طويلة ونهاياتها معقوفة إلى أسفل، وذيولها قصيرة، وأجنحتها طويلة، فانطلقت الكلمات من فم ميرزا وهو ينظر إليها باندهاش:

- هذه الزرازير اللامعة ...

ذلك خلق ضجيجا في البستان حيث اختلطت الأصوات والتسابق بين الزرازير والغربان في نقر بقايا الزيتون الناضج تماما، فسحب ميرزا ساقيه بهدوء، وخرج من البستان عائدا إلى البيت، وهو يقول بصوت خفيض:

- كل هذا ... لأن الزيتون طيب ... طيب جدا ...

الفصل الخامس

عصا الراعي

اصطفى الجد ميرزا أن يكون راعيا في جبل بحزاني، ليقوى عظمه، ويشتد أزره، ولا تخور قواه أو تهن في الأيام الصعبة، إذ في ذلك تكمن حكمة المعرفة بأسرار الجبل، وليبسط الجبل ظلاله على ميرزا، وتقيل عنه العثرات إذا حدثت، ذلك يجعله طينة صلبة حسنة تتشكل كجزء من سلالته الأيزيدية التي كانت دائما طينة حسنة صلبة في شعبه عبر مر العصور، هذا كان مآرب جده لتتعاظم روح ميرزا، ويتعاظم حبه للجبل، ففيه يبتهج قلبه لسماع أنغام القطا والدراج وحمام الحب الذي غالبا ما يسمى حمام الصخر الرمادي أو حمام زهرة الجلنار، فهو المختار في الرعي، وهو المختار في منزلة القلب، القلب الذي يصطفي بالصفاء، ويتدفق بالنبل عندما تبسط على جسده ظلال الأشجار، فقد أراد الجد أن تكون روحه أيزيدية صالحة طيبة، فيها قدسية لعهده الأيزيدي الذي كان هذا الشعب يساق من فرمان عثماني إلى آخر في أسر، ويساق إلى الموت على أيدي الطغاة، فتصادر أراضيه، ومواشيه، ومحصولاته الزراعية التي جناها بعرق الجبين، هذا التاريخ الذي ارتبط بالمذابح في قطع الرؤوس، والتمثيل في الأوصال، وجر أجساد الأيزيديين بالحبال مقهورين دون أن تهزم أرواحهم أو تتلوى ألما، لكن لا، الراعي البحزاني يرعى الماشية من جديد، فها هو ميرزا في السابعة عشرة من عمره، فتى وسيم، ذو شعر أسود نحيف القامة، قوي البدن، وقد نبت الشعر في ذقنه وشاربيه، شديد

سواد العينين مع سعة المقلتين، بيده عصا الرعاة يهش الماشية أمامه، يقودها بكلمات: دع ... دع ... دع ... ثم يصفر، ثم يصرخ، فيكون لصراخه دويا في وجه الماشية التي يقودها كبش أبيض قوي قد علقت في رقبته أجراس فضية، هذا الكبش راعي الرؤوس البيض المتعفرة بالتراب، ماشية مدجنة من خراف تلتهم الحشائش والأعشاب وأوراق الأشجار، وتنهل المياه من أحواض صنعتها طبيعة الجبل الصخرية لتكون ورود الماشية، فالكبش يقفز فوق الصخور، ويتسلق، ويمد رقبته لينهل من أوراق البلوط الخضراء، وأجراسه ترن، وتتبعه الماشية، فهو الراعي المرشد، وهو الرئيس للقطيع، يتقدم دائما مع صفير أو كلمات ميرزا، ويقود القطيع على السفوح والوديان يطيعه القطيع، ويستسلم إليه، وهو دائما يتقدم أقرانه، وميرزا يهش بعصاه على رؤوس الماشية، ويصفر، فالمراعي خصبة، والكلأ وفير، ومجاري المياه متدفقة في هذا الربيع الأخضر، ربيع الأخصاب، تارة يتوقف القطيع على بركة مياه بينما ميرزا يشم روائح عطرة منبعثة من أزهار برية أو تفتقت توا من براعمها، تارة يتفيء في ظل شجرة عندما تكون الشمس في أوجها الربيعي، فيوغل ذهنه إلى عالم فيه صور متعددة: فهذا جدي يتسلق شجرة عملاقة هاربا من سبع يلاحقه ليوقع الشر فيه، فالشجرة العملاقة ملاذه الأمين، يستجير بعلوها وضخامتها، وهذا كائن خرافي مجنح يطلق دويا في الوادي، فيلوذ القطيع إلى الكهوف والمغارات، وبعصا الرعاة يقاوم ميرزا الكائن الخرافي، ولا يسمح له أن يلحق الأذى بقطيعه، فعصا الراعي تكون دائما سلاح المقاومة، فبها يقاوم الوحوش الضارية، والطيور الجارحة، والماشية ترفع رؤوسها إليه ابتهالا وتوسلا لعصاه التي تقاوم المهاجم الشرس، وحتى الغزلان الكثيرة

التواجد في أرض بحزاني تلتمس الحماية من العصا كأنها تؤدي طقوس البقاء، طقوس مباركة دينية في رد هجوم الكائن الخرافي، هكذ تكون عصا الرعاة تؤدي واجبها في مكافحة الشر، وبث إحساس الأمان، فالعصا رمز الحماية، ورد الأذى حتى إذا كان هجوم الضواري من الخلف.

وفي لحظات تخيلات ميرزا يجد نفسه تارة رامي نبال باتجاه سبع مهاجم، لتمط الماشية أعناقها، وتطاول أوراق الشجر، عندئذ لا يستطيع أن تطال مخالب السبع القطيع ليبطش بها، فيردعه ميرزا من أن يكون وحشا دمويا، وتارة أخرى يجد نفسه يحمل رمحا، ويوجهه ضد الحيوان الخرافي المجنح، ليمنعه أن ينقض على بقرة تلد، ويمنعه أن ينقض على وليدها لافتراسه، فيعاجله بطعنة في بطنه، وتتمزق أحشاؤه، ويسقط على الأرض وهو ينزف دما، أجل إنه يسقط بين قدميه، وميرزا يرى مولودا جديدا يخرج من رحم أمه. في هذه الصور التخيلية صارت العصا مرة قوسا ونبالا، ومرة رمحا، ومرة عصا تقدح نورا في رد عدوان الظلام، ثم قدم نفسه منقذا حاميا مصارعا منتصرا على آفة الشر، وبذلك يكون قد صان القطيع ذا الرؤوس البيض، آمنا في الكلأ الوفير، يرتوي من المياه العذبة، وبذلك صارت عصاه خير، وصارت حماية، وفيها صان شجرة الحياة، ومياه الحياة، وتجدد الأخصاب، ووضع قدمه على صدر آفة الشر، ذلك رمز القوة والمناعة التي راحت تتجذر في أعماقه، حينئذ يكون الرضيع يرضع من ثدي أمه بأمان، حينئذ يستطعن البيريات أن يتستدرن الحليب من الماشية. أهذا ما أراده جده أن تتجذر روح ميرزا في الرؤيا وتأمل الذات ؟! أن الراعي دائما يتأمل أيضا ما يحيط به، ويتأمل السماء، والأفق

الممتد بعيدا، لكن في هذه المرة كأنما يرى إعجوبة الأرض، وهو يتجاوز بقطيعه قمة جبل بحزاني الممتدة بفسحة عدة كيلومترات شرقا وغربا، وهي أرض الحنطة والشعير منذ أقدم الأزمان، فكانت قديما تعج بسنابلها الذهبية التي تحصد بالمنجل، والتي كانت تدرس أولا بأقدام الحيوانات ثم تكدس بأكوام عالية كبيادر خير، ثم تنقل على ظهور الحيوانات إلى القرية، لتدرس نهائيا بآلة الجرجر الشهيرة البدائية، التي امتهنت صناعتها عائلة النجار سليمان قطي، وقد توارثت المهنة أجيال بعد أجيال، والتي يطلق أهل بحزاني على هذه الآلة الجغجغ، آلة خشبية عجلاتها من حديد، تجرها حيوانات، فتدور بدوران الحيوانات، وينفصل القش عن بذرات الحنطة والشعير. أجل، الآن ينزل بقطيعه إلى أسفل تاركا أرض مزارع الحنطة والشعير، وهو يرى مندهشا أن الأرض مزينة بخواتم زفاف زهور برية ذات ألوان جذابة مبهرة، ألوان بنفسجية وقرمزية وأرجوانية وقرنفلية وصفراء وبيضاء، هي على مقربة من قمة جبل بحزاني التي تسمى العقبي وغالبا ما تسمى سنكي، كانت مكسوة بالأبهة والحلي ليغدو ميرزا مبتهجا في أسفل عقبة الجبل، وكانت تتشرب روحه بروائح عطرة زكية تفوح من أنواع العطور، لكن كان يشد بصره إلى تلك الزهور ذات الحمرة الشديدة المتشربة حمرتها بحمرة الدم، والتي سلبت الجمال من كل زهور أسفل عقبة الجبل كما لو أنها تخجل من كبريائها، ومنظرها المختال، فهي تنتصب وسط عشب أخضر بساق رفيع غض متفرع بأوراق رمحية، حافاتها مسننة ذات أعناق، إذ من أباط الأوراق يبرز الساق الطويل الوحيد ليرتفع بتاجه الأنيق، بزهرة أحادية رائعة، ذات أربع وريقات شفافة تستقر في كأسها بقعة داكنة من بذور سوداء محاطة بدائرة

بيضاء، فمد ميرزا يده الخشنة، وداعب شعيرات بيضاء منتشرة على الساق، وتذكر حديث جده الذي غرس حب الجبل في روحه عندما سأله ميرزا:

- جدي لماذا تسمى شقائق النعمان ؟!

- ذات يوم يا ولدي قبل ظهور الأسلام، أمر طاغية بلاد فارس كسرى بن برويز بن هرمز الذي كان يحكم سواد العراق من ملك الحيرة العظيم النعمان بن المنذر أن يسوق إليه أجمل نساء العرب، وأن يزف ابنته الجميلة هند إلى ولده، بعد أن سمع كسرى بجمال هند الذي لا يوصف، وذكائها الخارق، فما كان من الملك النعمان إلا أن يستشير ابنته بطلب كسرى، فقالت له:

- يا أبي، ما لي وديار الغربة.

ما لي بالعجم يا أبي.

فقال الملك النعمان بن المنذر للرسول الذي أرسله كسرى:

- ابلغ اعتذاري للملك كسرى بن هرمز.

لكن الرسول كان يحقد على الملك النعمان، وقد أراد الشر بالنعمان ، فقال لكسرى:

- يقول النعمان: ستجد في بقر العراق ما يكفيك.

فغضب كسرى الذي كان يتخذ من المدائن عاصمة له، واشتد غيضه طالبا من النعمان المجيء إليه، فأدرك النعمان بأنه مقتول لا محال، فأودع عند عرب البادية نسوته وأسلحته

ودروعه وخزائنه، وكانت في استقبالهم حجيجة، وهي صفية من بني شيبان، التي عرفت بشجاعتها وعدلها، وذهب النعمان بن المنذر إلى كسرى، فسجنه، ثم قتله تحت أقدام الفيلة، فنبتت من دمه في نفس المكان الذي قتل فيه هذه الشقائق الحمراء، فسميت بشقائق النعمان.

توقف ميرزا قرب عين فنجان، وترك القطيع يرتوي من المياه المتدفقة بين الصخور، وروحه تهفو حية متقدة مزدهرة في ربيع زاه، وهو يكتشف في هذا الربيع سحر وألق هذ الألفة الفريدة المرحة الشفافة الطاهرة تتجاوب مع لحن متناسق من ألوان وتدفق مياه وروائح عطرة وسجع طيور الحب. تقدم إلى عين فنجان التي تشبه في شكلها الفنجان، لذلك أطلق عليها البحزاني عين الفنجان، كانت قطراتها تنساب سريعا، وقد ضرب وجهه رذاذ مياه هابطة من بين الصخور، وكان ينتابه إحساس سخي مدهش فاتن، إذ أن حلمه كبير، ويزداد فرحا بتدفق المياه، وعلى حين غرة وجد كوبا خشبيا مطروحا على صخرة قرب العين، وتحت كهفين منقورين في الصخر يعودان إلى أزمنة سحيقة، ملأ ميرزا الكوب من مياه عين فنجان، ورفعه بتأن بكلتي يديه إلى ثغره، وسقا نفسه ماء عذبا، ثم رفعه إلى أعلى بيده اليمنى، وصبه فوق مفرق شعر الرأس، ليندمج مع المياه بوحدة عميقة مثلما اتحدت روحه مع الجمال الصامت أو المتكلم، ثم حلق بخياله إلى حكايات جده عن شجرة الرمان البرية الفارعة ذات الأوراق الخضراء الداكنة التي تتلألأ في يوم الربيع المشرق، الباهرة في جمال ساحر، شجرة الرمان أجمل كل الأشجار، ذات الأزهار القرمزية الساطعة التي تغازل العشاق، وتدعوهم أن يحبوا في موسم الربيع، شجرة الرمان

رمانها أحمر بلون الدم، وبذورها ذات حمرة أرجوانية، أحبها سرب من مئة حمام، فاختارت واحدا منهم، وتركت تسعة وتسعين حمائم، لا أحد يعرف سر اختيار الحبيب صاحب الطوق الأحمر، هناك من يقول إنه قطف منها رمانة، ولم يأكلها أعوام طويلة أما التسعة والتسعين حمام، فحملوا منها سلالا من الرمان، حتى صاروا يستخرجون صبغة الأرجوان منها، فكان الحبيب يسجع سجعا حزينا يندب نفسه وعزلته، مرددا: أين أنت... أين أنت ... وصار التسعة والتسعين حمام يلقبونه الحبيب خارج سرب الحمام لأنه كان يأتي في كل ربيع إليها، يقترب من زهرة الجلنار وهو يرفرف بخفة، ويتنفس من عبيرها، ويتيمم به، ثم يسجع سجعا لا شبيه له: ريمون ... ريمون ... ريمون ... ويضمها في دفء جناحيه فتردد هي صوته، وتهدر بترنيمة: أنا لك ... أنا لك ... أنا لك ... وكان الحبيب يرفرف فوق عين فنجان، ولم ينقر فيه، بل يشرب نفسا نفسا حتى يرتوي، ويقال أن ريشه سقط وغدا يمشي في القفر، وصار صوته كله هدير حب حتى مات وحيدا منعزلا، فبكته شجرة الرمان واختفت عن الظهور إلى الأبد.

فكان ميرزا يطوف بخياله وترتسم له زهرة الجلنار الذي تحدث عنها جده في حكايته وهي تسهر لتكون نفسها ولونها وعبيرها، ولا تعرف الذبول، أهذا اتحاد في الحب البريء ؟! غير أن ميرزا كان يسبح في خياله إلى الرمانة هنار ترتسم في عينيه ابتسامتها اللطيفة العذبة التي افترشت على وجهها، ثم يغوص في رؤياه إلى رقبتها، وكفيها باطنهما وظاهرهما، فيهما نفح الطيب والعطر الذكي، إذ في قلب ميرزا زنار قداح الحب

راح يقدح فيه، ويضرمه الشوق إلى هنار. أجل، قداح يروي قلبه ويستولي عليه ، ويستثيره متمثلا في كلماته:

- أنا أحبك يا هنار.

وقرع صوت هنار في أذنه:

- أنا أيضا أحبك يا ميرزا.

من يدري .... لربما قطفت هنار بيد راعشة زهرة الجلنار، ووضعتها بين نهديها، وقد أحبيت الحب، ودفئتها في صدرها، وعيناها المدهوشتان الغائصتان في جمال شجرة الرمان الفارعة التي لا يضاهيها أي جمال، قد ولدت الحب في أعلى درجاته وكماله وتمامه، وسيبقى ميرزا يحوم حولها خارج سرب الحمام، سرب تسعة وتسعين حمائم، فجأة انتبه ميرزا إلى نفسه، وهو يلملم شتات أفكاره، وقرر حينما يكون قد وصل إلى عين شيخو بكر، ويأتن البيريات يحلبن الماشية ، سيظهر قداح قلبه:

- أنا أحبك يا هنار.

ثم صفر، وقد خرج توا من مليء رؤيا في عالم آخر ساحر، ومن مليء نشوة ذات إثارة، لاسيما كانت تحف به لحظة البدء في رغبة تجره أن يكتشف المزيد خارج نفسه، لتحيي نفسه في يقظة حاسمة مؤثرة في الربيع، وهو يحمل عصا الرعاة، ظل الكبش ساكنا في مكانه دون أن يتحرك، وهذا أثار اندهاش ميرزا، حتى لم يحرك رأسه يمينا أو شمالا، فاستغرب ميرزا، وراح يحث قدميه إليه، ويقترب منه، فانسابت

إلى أنفه رائحة طيبة ذات نكهة خاصة، فكان يواجه نبات الكبر المعمر الشوكي ذا الأوراق الكثيفة التي تنمو في أبط أوراقها براعم زهرية بيضاء أرجوانية، فراح ميرزا يستنشقها بعمق حتى أحس بمدى تأثيرها على نفسه التي أصبحت هادئة في غير المعتاد، وهو يتطلع إلى زحف النبات بفروعه المتعددة، المتسلقة على صخرة كبيرة بأوراق خضراء مدورة كأنها ترنو لتلامس الكبش أو أن الكبش يبتغي ملامستها غير إنه كان جافلا في مكانه لربما كان يخشى أشواكها، ثم لم تمض لحظات حتى تحرك الكبش من مكانه إلى شجيرة الزعتر، هذه الشجيرة التي يطلق عليها البحزاني مفرحة الجبل أو مبهجة الجبل لرائحتها العطرة القوية المميزة، ولأن فروعها تكسو الأرض زاحفة منبطحة بملاءة خضراء من أوراقها البيضوية المتقابلة ذات الزغب الأبيض، تعلو قمتها أزهار صغيرة أرجوانية ثلاثية الفصوص بتاج سفلي، وذات كأس أنبوبي زغبي بشفتين عليا وسفلى. عندئذ أدرك ميرزا أن لغة الروائح صامتة، فيها نشوة رقيقة يتمخض منها انجذاب مكتوم في النفس، حينئذ صرخ ميرزا: دع ... دع ... دع ... ولوح بعصا الرعاة، فتحرك الكبش نازلا باتجاه وادي سنجق، فتبعه القطيع منحني الرؤوس ليمر متجاوزا جداول من المياه، ومتجاوزا حدائق أقامها الربيع، حدائق من زهور تبيض في النهار وتصفر في الليل العميق، وأخرى أزهرت بها الحياة الدنيا كدرر زهراء بيضاء صافية أو شديدة الحمرة، وكذلك تلك زينة متناثرة بين الصخور، وعلى حافاة المياه، بزينتها البيضاء العتيقة كأنها في ثوب عروس، إنها زهور النرجس الجذابة بمنظرها البراق، فرفع ميرزا العصا ولوح في الهواء، وهو يتجاوز بركة مياه، ويتذكر كلمات جده عن النرجس : إنها تميل بساقها دائما إلى المياه، إنها تعشق

الماء، إنها عدائية غيورة أنانية، تحب ذاتها، وتقتل النبات القريب منها.

لكن في هذا الربيع بالذات الذي لا يشبه ربيعا آخر مضى، قد أسفر عن وجهه تماما، وهو يزهر تماما، ودرة الزهراء قد أضاءت في قلب ميرزا الحب ليعلنه، وهو يلوح بعصا الراعي، وتكون كلماته صدى في ربيع زاه:

- أنا أحبك يا هنار.

الفصل السادس

رأس السنة ـ أكيتو ـ سر صالي

بعد أن لطخت واجهات البيوت في بحزاني قبل يوم من رأس السنة بحفنة طين تعلوها رموز الأرض من أزهار شقائق النعمان الحمراء، هذا الطين ممزوج بقشور البيض المسلوق المصبوغ بألوان متنوعة ليلتصق في واجهات البيوت معانقا صور الشمس التي تزهو أبواب بيوتها بصورها، وما تكسير قشور البيض إلا رمز اندحار تجمد الأرض أما ألوانها التي صبغت بأصباغ متنوعة مدهشة إلا لتكن رمز الخير والعطاء وتفتح براعم الأزهار في فصل الربيع وتواصل حياة المحبة والسلام، وقد ذبحت أيضا قبل يوم رأس السنة قرابين الدجاج والأبقار والثيران من كل حسب إمكانيته، وليقدم قسما من لحمها إلى الفقراء.

ذلك كان في يوم الثلاثاء ...

أما الآن فقد صحت هنار من منامها، وظلت تتقلب من جنب إلى جنب دون أن تنهض من تحت الغطاء، فقد دخلت بقلب طاهر صاف حلما مقدسا. حلم فيه لحظة رؤية عظيمة ذات خشوع وصمت، إذ كانت ترى العرش الإلهي محمولا على أجنحة بيضاء، وأمامه طائر الطاووس الجميل البديع الخلق وملائكة بوجوه مشرقة، والخالق يصدر أوامره:

ـ بسبعة أيام خلقت الأرض، اليوم أكملت حسنها وزينتها وألوانها وظلالها، تسلموا إدارة هذه الدنيا !

وكان هذا شأن طاووس ملك ليدير شؤون الدنيا بحكمته ...

ثم صار الطاووس شابا جميلا يجلس على كرسي وبيمينه حية، وبيسراه مصحف، وقد ترافق مع حلم هنار أن بان في قبة السماء فوق بحزاني السحار وهو أول عبور لآخر الليل من ظلمته إلى طلوع الفجر، أول عبور من الظلمة إلى النور، ليتبين خيط البيضاء عن خيط السوداء كآخر الليل، كالعبور إلى شفق في أوله، وتنكشف ظلمة الليل عن نور الصبح ، وتشع الدنيا بالضياء والأنوار، ويبدأ النهار بطلوع الفجر، فتنطلق في هذا الفجر أول نسمة منعشة من وادي سنجق في الأربعاء الأول من شهر نيسان الشرقي، يوم الأربعاء المقدس، وهو يوم طاووس ملك، ويوم عطارد، فكان حلم هنار يتسع لترى عطارد راكبا طاووس، وبيمناه حية، وبيسراه لوح القدر، وكان يقرأ فيه، ثم تغيرت الصورة، إذ أصبح عطارد جالسا على كرسي بثياب صفراء وخضراء، ويعتمر تاجا على رأسه، ويواصل قراءته في المصحف. كان تعبير هذه الصورة أشد عمقا مثلما كان عطارد يلتهم بعينيه الغارقتين في المصحف الكلمات. عندئذ انطلق أول شدو طيور بأنغام فوق بساتين الزيتون، وتعانقت أغصان أغصانا، ولثمت فراشات تيجان أزهار، وكان هذا أول مطلع الفجر من ليلة مظلمة في بحزاني لا يشبه على الإطلاق مطلع فجر آخر أي في فجر هذا الأربعاء المقدس. وبعد هنيئة سمعت عزف الناي الذي تسلل إلى سمعها من أحد السطوح كما لو أنها تستهدي منه بشائر العيد وهو يحمل إلى أذنيها أنغام الربيع وأنغام ولادة عام جديد، ولادة يوم تفتح وتجديد وإخصاب، كانت تنصت بانتباه، والأنغام تثير في طبعها الهادئ الرقيق البهجة والسكينة، وتسبح في خيالها، وتندمج اندماجا

فريدا عجيبا مع إيقاع العزف الرقيق الخافت، العذب المرح، ليتهلهل وجهها كأنه يشرق نورا، ويجعلها تحس بلذة روحية لا مثيل لها تنفذ إلى قلبها برمز الخصب، برمز لغة الناي كي تحاكي قلبها ليرتاح في الحب السحري الذي يتشبع الآن بظلال الحب فيه مسحة نور تمتلك العالم كله، فتأخذها الدهشة من نفسها ، والعزف يتواصل بلا توقف، عزف خالص صافٍ بإيقاع خروج النور من الظلمة، عزف حميم مرح:

ـ هذا عزف القوال الكبير يدعونا للنهوض !

هذا ما قالته، وهي تنهض من فراشها مبتسمة، يضيء وجهها بريق الفرح كأن الاشتياق والتلهف للحب السحري يكمن في هذا العزف الذي تصورته إنه يسألها:

ـ ماذا يقول قلبك ؟!

ففجر هذا اليوم الجديد يوم الأربعاء المقدس عيد سلام فيه نفع وخصوبة وخير وبركة، عيد سلام في فجر منعش مشوق لطيف مبهج باسم حيث نهضت الآن هنار ورددت صلاة الفجر:

ـ باسم أزدان المقدس الرحيم، إلهي لعظمتك، ولمقامك، ولملكويتك يا رب أنت الكريم الرحيم، الإله مالك الملك جملة الأرض والسماء !

أن هنار كانت تعرف أن أزدان هو ذات العليا الخالقة، ذات النور والضياء، وهو خالق السموات والأرض، وهي تعبده، وما الشمس إلا تجلٍ لمخلوقات الخالق، فلذلك تحب

الشمس، فها هي تتجه حافية نحو الشباك المطل على فناء الدار، وتراقب ضوء الصباح وهو حمرة الشمس في سواد الليل، ويرتفع نظرها في الفراغ الطلق حيث يكون الصفاء، فيرتفع نظرها إلى أعلى، ها قد أشرقت الشمس متوهجة مستعجلة لتمر على شباكها، فحركت يدها اليمنى ممتنة شاكرة وقبلت إطلالتها، ثم فتحت باب غرفتها لتقف على عتبتها وليمتلئ جسدها بنور الشمس الدافئ، حينئذ فرشت الشمس شعاها على جدار غرفتها، وراحت تغسل الأرض بنور الضياء في سكون وصمت عميق يكاد يكون أزليا، وتستغرق في تخصيب الأرض الرحم، وتزهر الحياة، وتتفتح من جديد، فها هي بحزاني تنهض اليوم مثل سنبلة قمح ذهبية في عيدها صامتة مبتهجة تغتسل بذرتها الأرض بأشعة الشمس لأن أرضها تتوهج بحمرة شقائق النعمان، وبأشجار خضراء، وحقول القمح، ومياه رقراقة عذبة، وطيور تصدح فوقها بأنغام الربيع، أرض تتخصب، وتنتج، والبحزاني يجمع محصول ثمار هذه الأرض المزهوة بالعطاء، فاليوم عيد جميل خاص في دنيا بحزاني، فالخضرة قوية، ومجرى المياه قوي، وألوان الزهور لطيفة، وعبيرها أخاذ عطر حتى البراعم الفتية التي لم تتفتح بعد أن تنفث عبيرها الزكي، والهواء كله مليء برائحة العبير يحمله بعيدا فائحا في الوجوه حيث لكل شيء سحر خاصة في هذا اليوم.

ها هي بحزاني تتوحد في طقوس رأس السنة مع مراسيم عيد رأس السنة البابلي الذي يطلق عليه أكيتو ـ إذ تبدأ احتفالاته في أول يوم من نيسان ويستمر إلى اليوم الحادي عشر من نيسان بينما في بحزاني يستمر أربعين يوما، فبعيدا عن عيد بحزاني اليوم، بحزاني التي حملت ذكرى بابل الخالدة ذات

ذروة المجد العظيم، ذات الروعة والبهاء، ذات الأسوار العالية والحصون الهائلة وعجائب الحدائق المعلقة التي أذهلت البشرية وبرجها الذي يشق عباب السماء ومعبد مردوخ الكبير، وكذلك خارج هذا الزمن، إذ في ذلك الزمن السحيق هز بابل بكاء وندب، فقد اختفى الراعي إله الخصب تموز في ظلمة العالم السفلي المخيفة المرعبة، إنها رحلة عنيفة قاسية إلى عالم الأموات الذي لا رجعة منه، عالم الأبدية اللاعودة منه، هكذا أصبحت بابل فريسة الهلاك حيث يتوقف الإخصاب على وجود تموز، فبظهوره تزهر الأرض، وبدونه تصبح كالحة جدباء أي أرض قفار رمادية شبه ميتة. هذه بابل الآن خربة مدمرة تنوح عليها آلهة الإخصاب والحب والحروب عشتار زوجة وحبيبة تموز، تتلفع بالسواد وتلطم وجهها وتضرب صدرها وتمزق شعرها وثوبها، وتصرخ:

ـ أهذه أنت يا بابل العظيمة ؟!

هذه بحزاني في عيدها التي تمتد طقوسها في الربيع إلى زمن بابل السحيق، زمن إشارات وعلامات ورموز أرض الرافدين، إنه رباط مقدس بين الحاضر والماضي ـ حروب، موتى، أوجاع، محن، مجاعات، آلام مخاض، أكثر من سبعين فرمانا ـ آثار متفرقة محطمة تكاد تكون مندثرة، إذ ذاك الإله تموز يصعد من العالم السفلي، وهذا طاووس ملك ينزل من الأعلى حيث تتجدد الحياة، يتجدد الربيع في كل شيء، وتدب الحياة في كل شيء سواء كان ذلك إشارات أم علامات سماء وأرض أو أعلى وأسفل أو ظلمة ونور أو شروق وغروب أو خير وشر، أي إنه في كل الأحوال انبعاث جديد ـ تموز، تاووس، طاووس ـ في لذة العيش في وادي الرافدين، انبعاث

واحد من شروق ونور وخير، حينئذ يأتي خلق العالم من جديد - إخصاب، إنجاب، وخلق - أو (كثرة نسل / محصول وفير) حينذاك كانت بابل في تألق وأبهة عندما سارت مواكب الآلهة ترافقها ترانيم فرح وموسيقى عذبة فوق شارع الموكب العظيم الجميل المتأنق المبلط بأحجار كلسية حمراء وسوداء والذي يحف على جانبي جداريه طابوق أزرق مصقول تزخرفه صور جدارية لاسود وثيران وحيوانات مقدسة، تصاحب هذه المواكب جماهير الشعب سواء كانت مشيا وهي بأروع ملابس وبأبهى زينة وبأحسن مظهر أو فوق عربات مزوقة تحمل تماثيل الآلهة المزوقة أيضا بأبهى حلي وزينة. ها هو موكب الإله - نابو - القادم من معبد أيزيدا في سيبار على ضفة نهر الفرات بعد أن جرت مراسيم الآلهة السرية في أحد أعياد رأس السنة - الزغموك - في حجرة الأقدار - الأوبشوكينا - التي انتزع فيها سيد الآلهة مردوخ لوح الأقدار من صدره، وسلمه إلى ابنه - نابو - إله الحكمة، ليتقرر مصير بابل في السنة القادمة، لذلك صار نابو محبوب الشعب البابلي، فهو يرعى الزراعة بتفجير ينابيع المياه، وهو يجعل الحنطة وفيرة، ويكدسها في الإهراء، لذلك صار يهتم بسعادة الشعب البابلي ويهتم في معيشته، وهو في نفس الوقت حامل الأوامر الإلهية، ورسول الآلهة إلى البشر، وهذا ما دعا نبوخذ نصر آنذاك أن يقول كلمته الشهيرة: (أن نابو هو الذي يهب صولجان السلطان للملك ليحكم، وهذا يكون معبد أيزيدا في سيبار موطن صولجان الدنيا). وهذا حمورابي صاحب الشريعة الأولى في تاريخ البشرية، وموزع ثروة بابل بعدل، وأول من وضع لبنات الاشتراكية في عهد العبودية أن يردد دائما: (سيبار حبيبة بابل).

الآن تجتاز المواكب بهدوء عتبة باب عشتار وتمر تحت قوسها المذهب الذي يسمى قوس النصر، والذي نقشت عليه الكلمات: (لا تجعل عدوك ينتصر عليك). حينئذ تعالت الهتافات والأهازيج والهلاهيل ثم توقفت المواكب في ساحة قرب معبد مردوخ الذي يسمى (ايساكيلا)، ودلف إلى محراب المعبد فقط الكاهن وحاشيته، والملك وحاشيته، وقد تعطرت وجوههم بأزكى العطور، وكان يتصاعد دخان البخور الأبيض إلى أعلى ليصدم بقبة المعبد من أوانٍ وأطباق حجرية تتوزع على جانبي هيكل مردوخ الجالس على عرش الإلوهية بملابسه الفاخرة المنمنمة والمطرزة بالذهب والأحجار الكريمة، وبيده حلقة الكون، وباليد الأخرى عصا السلطان، وقد اعتمر رأسه تاجا مثبتا فوقه قرنا الثور رمز الإلوهية الأبدية، وكان أمامه مذبح الآلهة أو مائدة القربان من العاج الأسود التي قدم قبل يومين فوقها ثورا أبيضا قربانا لمردوخ، ولطخ دم الثور قاعدة الهيكل، ثم أخذت جثة الثور ورميت في نهر الفرات. لم تمض هنيهة حين بدأت تقام الصلوات وتنشد التراتيل مبتدئة بأسطورة الخليقة البابلية. ثم تقدم رئيس الكهنة بثوبه الفضفاض اللامع الأحمر الذي يصل إلى الأرض والمخططة أكمامه القصيرة بخطوط مذهبة، ويلتف حول خصره حزام مزخرف. ركع على قاعدة الهيكل حتى لامست سطحه جبهته، ثم نهض بخشوع ولثم ثوب تمثال كبير الآلهة مردوخ، وقبل قدمه، وتراجع ببطء إلى الوراء إلا إنه تسمر في مكانه مرتعبا، غارقا في تامل تمثال مردوخ الحجري ذي العينين الواسعتين المجوفتين المطعمتين بحجرين كريمين اخضرين كأنهما لؤلؤتين مدورتين فيهما بؤبؤان بيضاويان، خاصة وإن العينين تغطيان ثلث الوجه بأجفان بارزة، وحاجبين غليظين، إذ تراءى لرئيس الكهنة أن

العينين تنظران إليه فيهما الرهبة والحزن مما حدى به أن يبدأ بتلاوة نشيد العظمة، ثم بدأ يترنم بدعاء الخشوع داعيا الإله مردوخ أن يمن بخيراته على شعب بابل، بعدها تقدم الملك وهو بلباسه الملوكي، ولمس يد الإله مردوخ، ورجاه أن ينهض، وبهذا الخشوع تم إقرار شرعية حكمه. آنئذ استأذن رئيس الكهنة الإله مردوخ ليتقمص شخصيته في تأدية الزواج المقدس لأن عذراء بابل تنتظره في هذا اليوم الكريم، فودع الملك، وسار وحيدا إلى برج ببل المسمى (أي تمن - ان - كي) أي بيت أسس السماء والأرض، وهو يجاور المعبد. صعد رئيس الكهنة على سلم لولبي إلى الطابق الأبيض، ثم الطابق الأسود ثم الطابق الأصفر، ثم وصل الطابق السابع، وكل الطوابق ترمز إلى الكواكب الدرية كمرصد فلكي لدورة السنة، ليؤدي مراسيم الزواج المقدس متقمصا دور سيد الإله مردوخ، لكنه قبل ذلك ظهر من أعلى البرج رافعا ذراعيه كما لو إنه أراد من طابقه الأزرق أن يبقر بطن السماء الزرقاء، فتعالت الهتافات في أرجاء بابل مدوية تترك صداها فوق نهر الفرات:

- عاد تموز، عاد الخير والبركة !

هذه هنار تخرج مع أهلها إلى البرية، فيفترشوا قرب المقبرة، ثم يتفرقوا لحظات، فذهب الأب إلى حقله ليس ليحفر الأرض فهذا محرم في نيسان مثلما محرم الزواج لأنه شهر زواج الآلهة بل لينثر قشور البيض الملونة كي تكون هذه السنة الجديدة سنة خير وسلام ووفرة المحصول أما الأم فذهبت إلى قبور أهلها، ووضعت أشهى المأكولات وأطيبها مع خبز - بصوك - الثخين المطلي بالدهن بالقرب منها، عل - فقيرا يمر في المقبرة ويسد رمق جوعه بها فترتاح تلك الأرواح الطاهرة،

غير أن هنار ذهبت إلى شجرة بلوط ليست بعيدا عن المقبرة ن وهي تمشي يدها على رؤوس أعشاب برية منتصبة خضراء ندية، ووقفت بروعة جمالها وثيابها المزركشة وزينتها تحت شمس الربيع قبالة الشجرة كما تقف وردة متألقة، خاصة وكانت تحيطها الزهور البرية التي ساعدتها الشمس على تفتحها بشكل غير مألوف، إنه ربيع جميل بطقسه وإشراقه، فكل شيء يزهو اليوم في الأربعاء المقدس بتفتح الجمال الطاغي كما لو أنه يناجي الخيال، جمال يفيض عذوبة، جمال ينساب تأثيره في الروح الصافية الهادئة كي تتناغم مع خفقات القلب ودفق الأحاسيس، عندئذ يصبح عيد رأس السنة أروع مباهج الحياة، وهذا ما يحدث الآن في بحزاني التي انتشر أهلها في الطبيعة الخلابة يتزاورون ويتبادلون البيض الملون، ويهنئ بعضهم بعضا فرحين متمنين للآخر السلامة والبركات، إنهم يعيدون في جمال أخاذ حتى درجة الكمال، ما لبثت هنار أن انحنت وقطفت وردة حمراء من الأرض، وزينت رأسها بها، إنها أحبت الورود الحمراء خاصة شقائق النعمان ذات الساق الطويل، وذات الأسطورة العجيبة، إنها أحبت في القلب، أجل، أن أبواب قلبها تفتحت. فجأة ألقت نظرة عميقة على الندى الذي يقطر من أوراقه، فيسقط متراقصا على الأرض، فأخذتها ابتسامة نورانية رقيقة جدا خرجت من روح قدسية مشبعة بالمحبة لاسيما وقد ظهرت الابتسامة على ثغرها كأنها اندفعت لتبوح عما في تفتح القلب، ثم تأرجحت في عينيها دمعتان نقيتان ببياض ناصع لكن لم تسقطا مثل الندى بل بدأتا تتراقصان بين رموشها، وبعد انقضاء هذه الهنيهة التي تحدث لها لأول مرة، لم يكن أمامها إلا أن تمد ذراعيها تحت أوراق شجرة البلوط، جاعلة من كفيها أشبه بزورق أبيض في فراغ ليقطر فيه الندى قطرات بيضاء

صافية متلألئة باردة. لم تملأ قطرات الندى كفيها بل بدأت القطرات تتسرب من خلل تمحور كفيها مع بعضهما، هذه اللحظة كانت تتكرر كل ربيع لأن فيها تحس أن قلبها دافئ خالص مثل هذه القطرات الناصعة كأن في القلب بدأت دقات خفيفة أشبه بنقرات قيثارة: القلب يحب في الربيع ! لم تمض برهة، فرفعت كفيها، ومسحت بما تبقى من قطرات الندى بها وجهها، وهذه عادة بحزانية أن يبقى الوجه مشرقا دائما.

عادت هنار إلى مائدة العيد الشهية، وتبارت مع أمها في تكسير البيض وهي لعبة العيد، ففازت ببيض كثير إلا إنها طعمت نفسها ببيضة بعد أن أزالت قشورها الحمراء، حينئذ جاء القوالون وهم يعزفون بآلاتهم، ويترنمون بالكلمات التي تتذكر الأرواح الطاهرة من الموتى، فدعاهم الأب لتناول شيئا من الأكل، فاكتفوا بالبيض الملون، وواصلوا عزفهم متنقلين من عائلة وتجمع آخر وهم ينشرون البهجة في قلوب أهل بحزاني.

وهكذا تتواصل الزيارات، وأهل بحزاني رجالا ونساءً يعدون أنفسهم للرقص الجميل.

الفصل السابع

حلم العذراء

لقرية بحزاني حكاية موغلة في القدم قد خلعت قناعها وخلعت رداءها في هذه الليلة بالتحديد التي لم تكن مثل تلك الليالي الماضية، ليلة غير عادية تعلن الحكاية عن ظهورها بعد غياب طويل بالرغم من أن الصدأ لم يأكلها، ولم تأكلها الليالي الموحشة القاسية أو الليالي الهانئة التي تلتقي فيها نظرات العيون لتتشابك أكف وأصابع في مفارق أصابع، إذ ظلت الحكاية تشتعل حتى في أعوام الحزن والحروب أو فترات قطف الزيتون، تشتعل في لحظات الليل العميق على تراتيل هادئة في ظل ضوء سراج باهت، ترددها أصوات خفيضة وقورة ترتقي بكلمات البطولة. ها هو الليل يمر، وهو الآخر يعلن بعد الساعة الثانية عشرة عن بدء يوم جديد، يعلن عن بدء عالم يتوغل في حلم، خاصة وإن القمر البدر قد بلغ منتصف السماء، تحيطه نجوم لامعة متلألئة لتهبط الضياء فوق عراقة القرية ، ولتفرش عليها ظلال أشجار الزيتون، ضياء نازلة حرة مشعة بلا قيود ودون هدى في هذه اللحظة الأبدية لتشرق الحكاية في حلم بتجديد، وليشرق أيضا وجه هنار الرائعة الحسن ذات الأعوام السادسة عشرة، النائمة في الحلم، والتي تكاد عيناها تتفجران في نور، تتفجران في نعمة عذبة لترتيل:

أيتها العذراء الفاتنة !

المشتعلة في حلم أبدي

يا من أخفيتِ بكاءك

وأخفيتِ دموعك الغزيرة

في سر الليل الحزين

وفي ظلام السنين

ولم تخبري أحدا

عن بكائك

عن دموعك

في الليل العميق

أتريدين مركبة مشعة

أتريدين جناحي طير

لتحلقين في حلم

حلم السنين

كانت هنار تنام باستمتاع مع ضوء البدر دون أن يوقظها الصوت العذب الذي قد يكون هو الآخر هابطا من السماء، ولم يوقظها العرق المتصبب من عنقها وظهرها في صيف دافئ بينما النسيم القادم من جبل بحزاني ووديانه راح يهدهد حلمها، ويجفف جسدها هامسا في أذنها بلطف:

- تعرقي كي أجفف جسدك.

هذه هنار التي لأنفاسها صوت خافت، ولثغرها شفتان رقيقتان ينمنمان قبلة، ما تزال غافية تتقلب في فراشها ثم فجأة تكورت على ذاتها كما لو أن لمس النسيم لها أشبه بلمس شخص غريب، لذلك خبأت وجهها في الوسادة، حينئذ شبكت أصابعها في الفراش، وارتعشت أناملها، وأدارت ظهرها، وانزلقت في حلمها الذي رسي عليها:

رأته يخرج من قلب الظلام المكفهر على إيقاع عواء هستيري مرعب برؤوسه السبعة، وهو يزحف بثقل جسده، ويهز رؤوسه في الفضاء، وينفث نارا ملتهبا. إنه هو الثعبان الوحش ذو الأنياب الحادة الطويلة، واللسان الأحمر المدبب، والعينين الصفراوين الكبيرتين، اللتين تغطيان جسمه حراشف حادة خضراء، وقد استقر على ينبوع ماء القرية ليسكت خريرها، ويوقف جريان المياه العذبة التي ترتوي منها بحزاني، تروي بساتينها ومزارعها. كان ينبغي أن يهلك كل شيء حي في القرية، مهددا إياها بالموت والهلاك بقطع شريان الحياة ليس ليعاقبها على إثم أو خطيئة ارتكبتها، فبحزاني لم ترتكب سوءا على الإطلاق، فهي مسالمة تتوق إلى الخير والمحبة، وأهلها لطفاء يحبون الآخرين، ويحسنون استقبال الضيف أو عابر سبيل، وإنما ما أراده الوحش هو إيذاء بحزاني، ذلك لم يكن إلا نزوة شرير أناني طماع بخيرات القرية، ولم تكن أيضا منه إلا رغبة في العدوان ليلحق الأذى بالقرية بالرغم من أن أهل بحزاني قد قدموا له المواشي في كل أسبوع كي يتركهم بسلام حتى نفدت أغنامهم وأبقارهم من شراهته في افتراس الضحية. ارتجفت هنار في مكانها رعبا، وفاضت عيناها بالدموع، خاصة وجرت القرعة في القرية واختيرت أن تكون الضحية بغية أن

تنقذ القرية، بغية أن لا يهلك الأهل عطاشى، وبغية أن تدوم القرية التي شيدها الأجداد من صخر وحجر وجذوع أشجار، ولهاث وتنهدات وعرق الجبين منذ أقدم الأزمان . ثبتت في مكانها متسمرة في الأرض التي أحبتها، وأحبت وجوه أبناء قريتها أثناء طلوع الفجر، وأثناء حمرة الغروب، وجوها بريئة تطفح نبلا وصدقا للحب. أجل، تسمرت هنار في مكانها لتكون قربانا بروحها وجسدها، أليست هي العذراء في وجه السماء كأن السماء تكرر الترتيل منبعثا هذه المرة من الأرض التي ينورها القمران بلون آخر، بطعم آخر:

وداعا يا سماء الدنيا

هنار فيها القمر

هنار فيها البصر

وداعا يا هنار :

ابنة بحزاني

ابنة الدماء في العروق

والروائح في الزهور

وداعا يا هنار :

أنت رحيق العهود

وأزمان الدهور

أنت رحيق عطر

قارورة عطر

وبرعم في الشجر

ونجمة زهر

جن ثغر هنار من الارتعاش، وجنت عيناها في الدموع، ورفت خصلات شعرها كلما أطلق الوحش فحيحه، وهو في انتظار، وهنار في انتظار الموت، لكن في لحظة مدماة بالقهر تقدمت بخطوات واثقة بطيئة إلى الأمام، والوحش المستبد في انتظار الذي يختبئ في أحشائه الموت، تعثرت وكادت تسقط على وجهها إلا إنها تشبثت بقدميها على الأرض، ولم تسقط مكابدة الموت والفراق، صارت رابطة الجأش وواصلت تقدمها كفريسة للشر، لم تفكر أن تهرب، ولم تفكر أن تتراجع حين وقع عليها الاختيار أن تكون الضحية لأنها أعطت كلمة عهد أن تنقذ القرية، أن تموت مخضبة بدمائها بين أنياب الوحش، فارتسمت على شفتيها ابتسامة خالدة، وتفجر في عينيها نور الحب لبحزاني. فجأة صهل حصان، وهنار في لحظة خارقة، و فجأة قرعت الأرض بحوافره، توقفت مبهوتة مندهشة في مكانها، فلاح في نور عينيها فارس مقدام يمتطي صهوة حصانه الجموح، ثم راح يرمي سهامه اتجاه الوحش، ها قد أصاب الرأس الأول، فاستعر الوحش هائجا، ها قد أصاب الرأس الثاني، ها قد أصاب الرأس الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، فتعالت الأهازيج والهلاهيل، وأذرع تحتضن أذرعا، وقبل ترتسم على الخدود، وكذلك تعالت أصوات فرح إلى وجه السماء:

هنار لم تمت في الظلام

هنار أنقذها الفارس المقدام

ثم أطلق الفارس رمحه لينبعث أزيزا عاليا في الهواء، ويصيب عنق الوحش، الفارس يتقدم مستلا سيفه من غمده، ويضرب الثعبان العملاق الذي صار يتلوى ويصرخ، والفارس يضرب وجه الشر، ويقطع الرؤوس السبعة حتى خمد الثعبان خارج ينبوع الماء، وكف صراخه المرعب، وعلى حين غرة تفجرت شمس النهار: نور جديد في عالم جديد، ويذهب الظلام، وتمتلأ الدنيا بالضياء. تفجرت عين الماء أيضا من جديد، وجرت المياه صافية براقة مخرخرة في سواقي إلى بساتين الزيتون وتفتحت أبواب الخير، فامتدت أذرع أهل بحزاني غلى المياه وغرفت بأكفها لتطفيء ظمأها، بينما هنار تقدمت إلى جثمان الثعبان الوحش، ووقفت تتطلع إليه، وتلقي عليه نظرات متفحصة وهي تقول بخفوت:

- مات الشرير الوحش.

انحنت، وطبعت كفها بدمه، ورفعته إلى قرص الشمس الذي راح يرسل أشعته بحنان، ثم مشت صوب الفارس المنتصر الذي كان يلقي النظرات الأخيرة على الجثة الخامدة وهو يمسك سيفه الذي يقطر دما، ورسمت كفها على ظهره لتعلن حبها إلى الفارس الذي توج بالمجد والفخر والبطولة عند البحزانيين، فدقت الطبول واهتزت الدفوف وعزف الزنار ورقص الشعب فرحا مبتهجا بهذا الانتصار، وكانت الأصوات تزغرد:

ميرزا أنقذ العذراء

ميرزا الفارس المقدام

هكذا صار اسم ميرزا يتردد على ألسنة أهل بحزاني عندما تطحن حبوب القمح بالراح الصخري، وعندما تتقاطر خمرة الأعياد، وعندما ينسج خمار الأعراس سواء أمطرت السماء أم هبت رياح صفراء، فشاع وانتشر اسم المنقذ المختار في كافة الأرجاء، في كافة أنحاء تواجد الأيزيديين، وتناقلته الألسن من بيت إلى بيت ، ومن حقل إلى حقل، بل من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد: صار ميرزا الزوج الحبيب لهنار، وفاز بالرمز العجيب.

ما زالت هنار نائمة فوق سطح البيت، وما زالت الحكاية الحلم تدور فوق القرية، وفوق العذراوات الجميلات لتتناغم الكلمات على الشفاه في أحابيل مزهرة:

- ألم تكن هنار هي زهرة جلنار حمراء ؟!

فكانت قبلة خفيفة هادئة تستريح على ثغرها من الفارس الشجاع ميرزا أشبه بلمس رضاب عسل، لذلك تنهدت في حلمها، وهي تبحث بعينيها عنه، وقد ذابت صورة ملامحه في الحلم، عندئذ فتحت عينيها في ألوان الفجر المهيب كأنها تبحث عن ميرزا، أيقنت إنها كانت في حلم، فراح الفجر يمتع بصرها، ثم يمتعها نجم الصباح، عطارد نجم الصباح في يوم الأربعاء المعلق في السماء، وبياضه المرتعش أيضا راح يتعلق في أهداب عينيها كأنه يكلمها:

- هنار زهرة جلنار، زهرة الصباح.

حينئذ عرفت نفسها لأول مرة إنها وقعت في الحب، حب كان قابعا في عين فلك الدنيا أو في الدرة البيضاء التي تفجرت في الحلم، وكشف عن لوح القدر المحفوظ تكتما في الصدور على مر تناسل البشر لأنها رأت بريق النور في عيني ميرزا، وإن قلبها قد شغف به ، وإن روحها صارت كأسا لهذا البريق، فنهضت من سموها، ولملمت نفسها وفراشها، وقد يممت وجهها نحو بحزاني من سطح بيتها الذي يشرف عليها، و الذي يقع أسفل جبلها المنفرد في أساطيره، وجدت قريتها حسناء في منظرها، عامرة في بيوتها المتلاصقة ذات الفتحات الكثيرة التي تسمى (الخشيم)، بيوت ترتبط بأزقة معبدة بالحجر، أبوابها خشبية مقوسة، نقشت في واجهاتها صور الشمس، هذه الواجهات التي تعلق عليها ورود شقائق النعمان الحمراء في شهر نيسان من كل عام. تشق القرية ساقية تتلوى نابعة من عين فنجان لتسقي مزارع وبساتين الزيتون، خاصة بستان الشيخ آدي الذي حمل فسائل الزيتون منذ عصر قديم في سفره من بيت فار (بيت النار) في بعلبك داعيا للمعرفة والمثل العليا في أشعاره وأقواله ونصوصه الدينية والذي اشتهر بقوله:

- اطلبوا الخير والسلام للجميع كي يتحقق الخير والسلام لكم.

استغرقت لحظات بنظرها إلى المزارات المنتصبة في أرجاء من القرية برموزها التعبدية، بقببها المخروطية، لتعانق أشعة الشمس، ولتكون واجهة ارتباطها بين السماء والأرض من نهاياتها المدببة ، ثم توقف نظرها عند كنيسة مار جرجيس

الوحيدة الذي يعتلي برجها الصليب في الفضاء. لكن نظرها كان يمتد إلى سهل وراء القرية، سهل يبتعد إلى ما وراء الأفق زاحفا إلى مدينة الموصل. ذلك وفر متعة في نفسها لا حدود لها فنزلت إلى الحوش كإطلالة نجمة لامعة هبطت في حلم، متقدة بلحن خافت ، ومتأججة في نشوة روح لتندفع من البيت بخطى هادئة بطيئة لتكون في مسار آخر كما لو إنها خرجت ملتهبة من صباح هذا اليوم بأروع طهارة نفس، وأروع حماس ذاتي لاسيما وقد تعاظم عندها الحلم في أبهى حلي وأبهى زينة، وهي تنطق من صدرها النابض الذي تفتح برعمه توا، فرفلت شفتاها:

- أحبك يا ميرزا.

توقفت مندهشة عند شجرة زيتون قرب مدخل وادي سنجق والتي تواجه مزار شيخ مند، فداعبت خصلة شعرها السوداء المتدلية على جبينها برفق. حفزها هذا الانتعاش أن تلح عليها بنظرتها، فتجلت لها رؤية طائرها الجميل واقفا بهيا مزهوا على الشجرة، يطوق عنقه لون الإخصاب الأخضر، دافعا صدره إلى أمام متبهرجا بريشه الملون بألوان قوس قزح ، المصفف باتساق وانتظام، ناشره إلى الخلف أشبه بمروحة عظيمة ومخطط ببقع سوداء تشبه عيون البشر كأنه يريد أن يستعرض نفسه أمامها، كأنه يواجه صمتها وجرأتها. مرت لحظات خالدة وهو ما زال ينظر إليها متدفقا إلى أذنيها همس هواء منعش:

- محبوبة أنت أيتها العذراء !

كانت الرؤيا ذات قرار إذ تشكلت عندها في ذروة معنى وإثارة وغموض لذلك تراجعت إلى الوراء وقلبها يخفق بأجنحة الحب ، وتنبعث ترانيمه في المدى:

ـ الحب ذو قدسية ، مبارك في هذا الصباح .

تقدمت بسفرها المفاجئ تخطر بمشيتها متباهية تتخضب في روعة أنشودة صفاء الروح، وموغلة في صميم الهوى الذي قادها إلى شجرة الحياة وماء الحياة ونور الحياة في بداية هذا الصباح الذي لا يشبه أي صباح آخر، صباح أشبه بميلاد جديد فيه نشوة، فيه هوى القلب، فيه توهج القلب في الضوء العظيم، أليس بمقدورها أن تلتقي من تحبه نفسها ؟! أليس من حقها أن تجد عريسها لتحضنه إلى صدرها، وتضمه بين ذراعيها في دفء وأمان ؟! كانت تمشي بتوق، وهي تلملم نفسها ، وتلملم صور الدفء وصور الملاذ، ثم أصبحت خائفة من نفسها، وعلى حين غرة توردت وجنتاها، ورمشت جفونها بارتباك، وهي تقترب من عين الصفراء ، انحنت وغرفت بكفيها المياه ، وصبته على وجها ، ثم غسلت يديها، ونهضت، كانت قطرات الماء تندس في صدرها، وتنسل إلى مرفق نهديها الصغيرين المدفوعين إلى أمام مثل خوختين تكادان تنفجران. فجأة زحفت حية على صخرة، وواجهتها رافعة رأسها باتجاهها، جفلت هنار في مكانها وهي تحدق إليها، والمياه تجري راقصة فوق الأحجار، إذ كان يفصلهما هذا الجريان، وقد ساد صمت ثقيل بينهما، أهذه الحية أكالة الأفاعي، كانت تلتقي نظراتهما دون أن تتحرك هنار من مكانها فتسمرت فيه لئلا تزعج الحية، هل كان ذلك اتحاد وتحالف بالنظرات ؟! لم تفهم هنار ماذا سيكون ؟! وكل ما كانت تعرفه أن مريدي شيخ مند كانوا يتجولون بين القرى، والأفاعي تلتف على أعناقهم دون أن يتعرضوا للدغاتها، وهم يرددون أن الأفاعي من أتباع الشيخ مند. هذه الحية ليست مثل الأفعوان الوحش ليلتف على قرص الشمس ويلتهمها،

ليسود العالم في ظلام، وليقضى على نور الحياة، هذا ما أقنعت هنار نفسها به ... لا ... لا ... هذه الحية السوداء حارسة نبع الماء، وحارسة معابد الأولين، وريثة الحية الأم منذ زمن الطوفان، تلك سفينة النجاة تطفو فوق المياه، تلاطمها أمواج مجنونة بعد أن تفجرت السماء بالأمطار، وتفجرت باطن الأرض في مياه، وأغرقت الصفراء والخضراء، ها هي سفينة الطوفان تصطدم في جبل، وحدث ثقب الغرق، إنه انقراض نسل البشر لا محال، فتعالت الأصوات من الأحياء في السفينة، أصوات رعب وفزع ، إنه الموت لا محال، أين المنقذ المختار، فجأة تعالى فحيح هائل، فانزلقت الحية من جحرها السفينة، والتفت على نفسها، تكورت وحشرت جسمها في الثقب، كان ذلك صراع ما بين الموت والحياة، صراع ما بين انتصار أو هزيمة، صراع ما بين بقاء أو انقراض. كانت الأمواج تضربها بعنف لتزيحها عن الثقب كي تتدفق المياه إلى السفينة وتغرقها، بينما كانت الحية تقاوم بضراوة حتى هدأ الطوفان بعد سبعة أيام، وظهرت اليابسة.

وفي كل لحظة تلو لحظة أخرى كانت هنار أيضا تقاوم ليس في ضجيج بل في سكون، وتلك حمامة برية بيضاء تمسك غصن زيتون بمنقارها ، وتقاوم وحدها في الفضاء كي لا يسقط الغصن منها، تلك كانت إشارة الوجود: حمامة بيضاء ومياه وغصن زيتون. كانت الحمامة ترفرف فوق سفينة النجاة، وتحوم، فجأة أشرقت الشمس من جديد. ها هي شجرة الحياة، ماء الحياة، نور الحياة، ويتجدد نسل البشر بعد الطوفان، وبعد سبعين ألف عاما من الطوفان.

كان وجه هنار منكفئ إلى وجه الحية التي رفعت جسدها لترتقي إلى الشمس بازغة توا من كبد السماء كأنها تكلمها:

ـ انظري إلى أعلى، ها هي الشمس أليفة دافئة.

فاستدارت هنار لتواجه الشمس، ثم حركت يدها على صدرها، صلت لها بإشارة، ثم تلت دعاء الشروق، ثم تلت دعاءها الخاص:

ـ احفظي لي هذا الحب.

ثم التفتت، فلم تجد الحية، فقد اختفت بين الصخور، حينئذ مشت حرة مستقلة في ممر ضيق لتطل على فسحة وادي السنجق الواسع، وليفاجئها طائر الكاو وهو يمشي متبخترا هادئا وبطء، كان واثقا في مشيته، وواثقا من هديله الذي كان يرتفع وينخفض، ويردد لحنا متسقا، أيقنت إنها أنثى الكاو متلهفة إلى ذكرها، ثم لم تمض لحظات فازداد هديله، وانبثق من عمق الوادي هديل وتغريد وسجع طيور أخرى كأنها استيقظت توا من نومها، فضج الوادي بالأصوات الرقيقة الناعمة، لتتردد أنغام متنوعة مختلطة منعشة لروحها، ذلك كان خلق الصباح المميز بالبهجة، وتلك كانت لحظة التوحد مع موسيقى كونية فريدة وديعة، وانبهار بأزهى ألوان حيث ضوء الشمس وخضرة الأشجار ورمادية الصخور ورفرفة فراشات، هذا المشهد العجيب كان يمتع عيني هنار بمواجهة فيض كوني غامر وبديع لتروي عطش روحها إلى همس حلم يغور في داخلها عميقا. فجأة لاحت لعينيها رفرفة هدهد فوق زهرة الدفلى البنفسجية الكبيرة، وراح ينقرها برقة، تعجبت هنار لأنها تعرف أن طعم

زهرة الدفلى مر، أكان يقبلها ؟! هذا ما سألت نفسها، ربما كان يقبلها قبلة خفيفة لرائحتها العطرة، ثم رأته يداعب أوراقها الحسنة المنظر المستطيلة الرمحية الجلدية الخضراء المتفرعة من أغصان متشابكة، تلك كانت مواجهة حقيقية توجت في سمو كوني وادع عجيب لا نهاية في حنانه ، ثم التصق رأس الهدهد في كأس الزهرة كأنه يدفن وجهه في رحيقها، وقد رفع رأسه أخيرا ليواجه هنار بعد أن استقر على غصن، أأراد أن يريها جذوة التعلق الشغوف أم أن يكشف لها سر الوجود ؟! فلم يعد يهم هنار أن ترى اللغز العجيب في هذا المشهد الحنون، بل كانت شغوفة أن تحس بطعم القبلة، وذوقها النقي، قبلة قصيرة خفيفة تفرش أجنحتها على فمها، قبلة مخضبة بطعم رضاب، ورائحة أنفاس عطرة، فأطرقت رأسها إلى أسفل باستحياء، والهدهد يشدو بلحن جميل، ويصفق بجناحيه، ويهز رأسه بمرح، ويرقص بانتشاء مرح، وينتقل إلى غصن آخر، ويرفرف بجناحيه إلى أعلى، ويمرق فوق رأسها، فأحست بوخز في جسدها، ورغبة في داخلها أن تغني مثل الهدهد أو أنثى الكاو، ذلك كان نبضا جديدا لتفتح زهرة في الشمس لتنساب بهار وحيدة في دفء عالم أليف، وهي تقترب من شجيرة السماق مستعدة منتظرة لاستقبال قبلة ، الآن بمقدور ميرزا أن يقبلها، أجل، إنها مستعدة أن تندفع بشفتيها ، وبلهب مستعجل نحو شفتيه، فلاحت على وجهها ابتسامة ساكنة ناعمة، وقد بدأت عيناها تطرفان سرورا، وهي تشد بصرها إلى شجيرة السماق، وتستمتع بمنظرها في صمت، وخفة روح، إذ ثمة إصرار غريب كان يدفعها إلى أغصانها المتدلية المتشعبة الممتدة، وذات الأوراق المركبة في أزواج، ثمارها عناقيد عنبية الشكل، حمضية الذوق، بلون أحمر شديد، الحبة الواحدة منها سماقة

تتلألأ في عينيها تلألؤ سراج زاهر مستنير بأحسن لون، ثم في هذه اللحظة بالذات تراءى لها أن السنجق قد أخرج من غرفته الخاصة، من خزانته المغلقة كشمعدان نحاسي مركب من أجزاء تتدرج من أعلى إلى أسفل، مبتدئة من علو طائر طاووس يربض برمزه على صولجان الدنيا، والذي يشرف على كأس الحياة، كأس الحياة الذي يفيض فيه شراب الخلود المنعش وقد جلب من شجرة مقدسة. كانت أيادي تروم إلى كل أجزاء السنجق بدقة وعناية، وتغسل بنقع ثمار السماق الحامضة ليذهب عنه صدأ الأيام، ويطهر من غبار أربعة شهور، إذ دورة احتفاله بعد كل أربعة شهور، ويبدأ احتفال رأس السنة (سر سالي) في أول يوم الأربعاء من شهر نيسان في وادي السنجق بقصة الخليقة التي يرويها كبير القوالين بلغة حسنة متدفقة، وبلاغة منطق، ورقة كلمات، بصوت وقور رخيم كأنشودة تاريخ طويل ابتدأ من معبد ايزيدا في مدينة بورسيبا على ضفة الفرات التي كانت تواجه أسوار بابل العظيمة وبرجها الشامخ الذي يعانق السماء، ومن الإله نابو صاحب الحكمة والمعرفة والوعي الذي يعتلي ظهر طاووس، وبيمناه حية، وبيسراه لوح القدر، ابتدأت قصة الخليقة، بعد أن وضعوا السنجق على صخرة تحت السدريات وهم في تراتيل ذات ترانيم لترويح قلب الأيزيدي، إذ قبل سبعة آلاف عاما من اليوم الأول الذي خلقت فيه الشمس ، واليوم الثاني الذي خلق فيه القمر، واليوم الثالث الذي خلق فيه المريخ، واليوم الرابع الذي خلق فيه عطارد، واليوم الخامس الذي خلق فيه المشتري، واليوم السادس الذي خلقت فيه الزهرة، واليوم السابع الذي خلق فيه زحل، تلك كانت كواكب سيارة خلقت بتناوب في قصة الخليقة لدى كهنة نابو، ثم اختلفت في معابد الزرادشتية، وتغيرت في معابد المانوية،

وصارت شيئا آخرا في الأديان السماوية، أجل، قصة الخليقة الأولى التي طالما حيرت البشر، غير أن بهار لم تتعلق في ذهنها سوى بضع من كلمات واردة في مصحف رش عن الخليقة: (في البداية خلق الله درة بيضاء) ... لأن كان هناك شيء آخر يهمها ليس قصة الخليقة وإنما قصة تعلق عينيها بعيني ميرزا، فقد انسل ميرزا بين الراقصين مرحا نشطا التي كانت تدق أقدامهم الأرض، وتدبك بتناسق، إذ دقات متتالية مع دقات الصنوج وضرب الدفوف ونفخ الشبابات بإيقاع فريد، الكل يرقصون رجالا ونساءً وهم بأزهى ملابسهم، يد تمسك يدا، كتف يلامس كتفا، وترسم أقدامهم قوسا على الأرض وهم بمرحهم وحريتهم الكاملة، كانت أجسادهم تهتز باتساق مضبوط ومنتظم، ثم تتقدم إلى أمام، وتتراجع خطوة واحدة إلى الخلف، وعيونهم تنظر إلى الأرض لتحافظ على نسق الرقص، إلا عيني بهار كانت لا تنزع نظرها عن ميرزا بينما كانت أكتاف الراقصين تهتز برشاقة لتتلاصق أذرع الرجال تلك نهود النساء المندفعة إلى أمام، ترتج مع أية حركة تمايل، وتتواصل الخطوات إلى اليمين، ثم تدور الأجساد الملتحمة الراقصة المتماشية مع الأنغام تارة بطيئة وتارة سريعة. إنه الفرح ليزف السنجق على الأكتاف بموكب مهيب إلى بحزاني وسط هلاهيل وزغاريد، ليستضاف في بيت جدها المفروشة فسحته بالسجاد والأفرشة، وقد نحر جدها بقرة صفراء عند عتبة الباب، وأوقد الشموع، وأشعلت البخور ليفرش الطيب على الوجوه. ها قد ارتفعت الأيادي في يوم الأربعاء لتأخذ السنجق وتضعه في وسط فسحة بيت هنار، وكانت الباب مشرعة للزائرين الذين أتوا حشودا وزرافات إلى البيت وهم يرسمون قبلاتهم على السنجق، وقد تربع القوالون صدر الضيافة ليواصلوا نقر

الدفوف، وقول القصائد المأثورة، والأقوال الحكيمة، وهم ينشدون بقدرة عجيبة، ثم تبدأ المائدة المفتوحة بأكل السماط، ويواصل أهل بحزاني رقصهم وغناءهم في وسط القرية.

كانت هنار قد استسلمت إلى الذكريات، وهي ترفع عينيها إلى الكهوف المنقورة في الجبل والتي تسمى سيدريات ذات الفتحات الثلاث المدورة، وهي مرتفعة عن أسفل الوادي عدة أمتار ، والتي اتخذها الكهنة في الأزمنة السحيقة مقاما لهم ، يتزهدون ويتعبدون فيها منعزلين عن البشر كي يتوحدوا مع الخالق، وقد كانت حكمتهم أجنحة نور، يسدون رمقهم برغيف شعير، ويتعايشون مع الأفاعي دون أن تلدغهم، ومع الوحوش الكاسرة دون أن تفترسهم، وهم يحاولون أن يدركوا الكمال لتستقر في قلوبهم السكينة، وكانوا يرددون دائما :

- قلبنا يغني بالنور، فغنينا كما يغني.

وذات يوم حدثها جدها عن هذه الكهوف: يا ابنتي أن المتعبد حفر في كهفه الوحيد سريره، وموقد نار. وقد شيد بجوار كهفه على نفس الاستقامة مصطبة موت من حجر، وكان عندما يموت يسجيه أخوته على المصطبة لتأكل لحمه النسور، حينئذ لم يبق منه سوى هيكله العظمي، عندئذ يدفنونه في الأرض، لأنهم كانوا يعتقدون أن الأرض طاهرة، والجثة غير نقية، فلم يرضوا بتدنيس الأرض بها أما روحه فقد تعلو إلى السماء حالما يدنو منه الموت.

كاد قلب هنار يقفز في صدرها عندما انشغل ذهنها بمصاطب الموت، فتركت نفسها تتحرر من الموت، وخفضت

رأسها لتواجه طريق صعود، فمشت وتركت الكهوف خلفها لأن فيها رغبة متأججة أن تقود خطواتها إلى ميرزا، وتعلن حبها ، وتقص عليه حلم الليل، إذ ثمة كلمات طفرت من أعماقها:

- قلبي يغني.

الفصل الثامن

طائر كردستان الجميل

فجأة توقفت هنار مندهشة بجوار نبتة الكبر التي كانت تفترش الصخور بفروعها ذات اللون الأخضر المزرق، زاحفة، ممتدة بأوراقها الخضراء الدائرية النهايات، الشاحبة اللحمية، تتدلى من فروعها أزهار بيضاء ذات كأس بنفسجي، وقد كان بعض فروعها ذات القضبان الدقاق والغلاظ تتسلق إلى أعلى الصخور، ولم تمض لحظات حى فوجئت هنار، وأية مفاجأة هذه؟! حينئذ لم تسل نفسها، وقد اعترتها نشوة سرور لا توصف، فهذا طائر كردستان الجميل يقف برجليه الحمراوين المنتصبتين المستقرتين على صخرة رافعا رأسه إلى أعلى كأنه يناجي شروق الشمس، وقد تبين منقاره الأحمر، والخط الأسود الذي يمتد على رأسه فوق العينين اللتين يحيط بهما جلد أحمر، الخط الأسود ينزل من رأسه المفروش بزغب أبيض منتهيا في وسط الرقبة، تليه زرقة خفيفة، ثم تحيطها مسحة مذهبة يزهو بها جسده العريض الذي يشبه دجاج. كانت هنار تتأمل جماله المسبوك في شفافية، وقد حدقت النظر في تلك الخطوط السوداء التي تمتد نازلة إلى أسفل من عرض جناحيه، ثمة أيضا مسحة خفيفة مزرقة تتوقف عند الذيل القصير الذهبي الذي يقترب إلى لون الحجر، لذلك أطلق عليه الطائر الحجري. كانت هنار مأخوذة بسحر جماله، وقد رأت نفسها تغوص في ملاحه وتقاسيم جسده، فانسابت منها الكلمات على عجل، ولم تدر كيف خرجت من أعماقها:

- إنه الذكر !

كانت عيناها مصوبتان إليه، ومركزة على هذا الجمال الأخاذ، وكأنها اكتشفت الغيب أو أسرار طلعته المهيبة ذات المعنى التي استحال عليها ترجمته مع غايتها التي جاءت من أجلها، وكأن هناك ارتباط خفي في مفهوم الفرد لهذا الكون العجيب، إذ من عينيها انبثقت نظرة رفق أرغمتها أن تغوص في ملامحه الجمالية الشفافة، وقرأت في عينيه طبع حزن عميق مما جعلها تتنهد برأفة، وأطالت النظر إليه، ما لبث بجسده الممتلئ المتوسط الطول أن قفز إلى الأرض، وراح يعدو بسرعة، ويعود راجعا إلى الوراء، ثم حلق بخفة، وأطلق رفرفة بجناحيه لينبثق منهما صفير خفيف، وقطع شوطا في الفضاء، وهبط على نفس الصخرة وهو ينظر إلى هنار ببصر حاد فيه تآلف معها دون خوف أو احتراس، حينئذ أدركت هنار إنه يبحث عن أنثاه التي اختفت عنه بين الشجيرات والأعشاب لتضع في حفرة خمسة عشرة بيضة أو عشرين بيضة، ثم تحتظنها وتفرش عليها جناحيها، تدفئها، وترعاها بالحنان الأمومي وحدها مدة أربعة وعشرين يوما بعيدا عن ذكرها لئلا من شدة غيرته عليها أن ينقر البيض، فلا تكون هناك فراخ تخرج من بيضها، وتطير بعد اسبوعين من التفقيس، فالكاو الذكر الجميل يرغب دائما أن تكون الأنثى له، وتوليه عنايتها، وتداري رغباته، فإذا عرف مكان البيض سوف ينقره، ويدمر ديمومة التكاثر، فهو غالبا ما يمتاز بالغيرة، وغالبا ما يتباهى بنفسه. لم تمر لحظات فإذا به يطلق صوتا ضعيفا فيه نغمة جرس أشبه بنغمة ربابة، ثم اشتدت مبهمة في تغمغم وتجمجم، ثم صارت زجلا، تارة في هديل، تارة في عندلة ترافقها بين

الحين والحين نقنقة ووقوقاء، وهذا ما جعل قلبها يتغذى بالغناء ليكون روضة رياحين، وتزخر روحها برقة وعذوبة بالربيع الأخضر الذي يحكي عن حبها لميرزا، إذ في هذا الربيعي طلع النبات، وأزهرت الأشجار، وأورقت البراعم، ونبعت العيون، وسالت الأودية بالمياه، ففيه الإخصاب، خاصة وقد جاء هذا الربيع مستنيرا، جاء بالنور في زمان متعطر متهلل نشوان، فالأرض خضراء والنسيم شذا والماء عذب، وطائر الكاو لم يكن أتى زائرا، بل هذا موطنه قد واجه فيه هنار وجها لوجه لتلتحف بحلي الأرض وأفق السماء، وتتشبع عيناها بوضوحه ونسيم الهواء والغناء. أجل، كانت روحها تتغذى بالغناء ليكون قلبها روضة متعطرة متهللة نشوانة حافلة بالزهور والغناء، ألم تزخر روحها بترنم ليس ليطربها الكاو، بل لتبتهج هي هنار زهرة الجلنار بتلك الغصون التي تناوحت في هزار. أجل، فحاجبا هنار الدقيقان المقوسان التي تفصل بينهما فرجة رائعة يتحركان الآن ، وثغرها النقي الصامت بدأ يتكلم:

- ما رأيت ألطف من جمالك يا كاو !

فيا عجبا أن غنى قلبها في هذه اللحظة الرائعة، وقد انساب غناء آخر من باب آخر، وقد أضرم نار الحب بفطرته لتأنس به هنار، وتستلذ، فيا عجبا لهذه النشوة التي ترجمت بالغناء ليكون لهنار صعودها الخاص. نعم، ليكون برزخا لصعود إلى عالم مليء بالشفافية، يسد خواء الروح، ويبعث الأمل منذ بكورها الصباحي الربيعي الأخضر، فقلبها نقي صافٍ يسكنه الغناء، إذ في عينيها تلوح ملامح ميرزا، لذلك تعذر عليها أن تسكت صياح قلبها، فراحت تصعد إلى أعلى في شوق شديد، وشغف شديد، أهذى شرك الربيع ؟! القلب مفتون

بالأسطورة أن تضرب قدماها الأرض، أليس هذا الغناء يبارك حبها ؟! كانت هنار تصعد في حلة ذهبية ساحرة على إيقاع أنغام الكاو إلى معالم علوية لتبلغ الأوج المفقود. أجل، كانت تصعد إلى ميرزا الذي صار قصر كونها، وكأس شرابها العذب اللذيذ. الآن، تواصل صعودها والكاو يطلق أصواتا متنوعة ليخلق أصداء خاصة به، ويلاحقها في صعودها التي يه تخلق عالمها الجذاب، ولم تكن رؤية الكاو في حلته المنيرة إلا طلعت سعد، فتبسمت لهنار ثنايا الكون، كل ثنايا الكون تبسمت لها في غرة الضوء الذي كان يفيض بشروقه على عري كل ما هو أخضر خضيب. فراحت تتناوشها حكايات الصيادين عن الكاو فأيما حكايات ؟ تلك التي تعتبره خائن موطنه كردستان، فالصيادون يضعونه في قفصه السجن، وهو يطلق أصوات النجدة والعذاب، فيهب أقرانه إليه كي ينقذوه من مشكلته غير عارفين إنه في سجن الموت، فإذا بهم يقعون في شرك شباك الصيادين، حينئذ يقهقه الصيادون، ويرددون: خان أقرانه ... إنه خائن ...

كانت هنار تصعد، وما زالت ترن في رأسها حكاية الصيادين، وقد اعتراها ألم لنزوة الصياد في السيطرة والتسلط على طائر كردستان الجميل، وهو يلاحقها بصوته. كان يبدو لها الصياد كائنا خرافيا طالما يصيد الكاو، ويذبحه ويسيل دمه والكاو يتصارع صراعا عنيفا من أجل البقاء ليس إلا أن يمارس حريته في شعاب الجبال الأخاذة المبهور بها لأنها موطنه الأصلي، ولاح في عيني بهار صراع غير متكافئ، صراع دفاع عن كل ما هو جميل وفاتن لينقذ الكاو من براثن الصياد الخرافي، ها هو الصراع يتواصل. نعم، ليس من حق الصياد

الخرافي أن يعلن بين فترة وأخرى إنه قد انتصر على الطبع الحنون، إنه لم يعد إلى دياره دون فريسة، إنه يرفض الهزيمة، إنه دائما ينتصر، ودائما يعلن الانتصار، ولذلك راحت تقول مع نفسها:

- لا ... لا ... إنه ليس خائن ... إنه يطلق أصوات النجاة... وهل هو كان يعرف إن أقرانه وقعوا أسيرى خدعة الصياد ...لا إنه ليس عدو جنسه ...

كان صوت الكاو يتبعها حثيثا، وظل يدركها حتى انصرف محلقا ليلتحق بسرب الكاو ليعيش حريته، وانصرفت هنار إلى تكوين عالمها الخاص، لتصنع معجزتها في قبلة من شفتي ميرزا، الآن أدركت حبها الصادق الذي يحي قيمتها الأنثوية بجرأة، ويرتقي بها إلى معالم النقاء، يكاد يكون من المستحيل أن ترتجي القبلة برهافة نفسها في لحظة بكورها الصباحي، تلك كانت تلج عليها مثل بوابات الربيع فتوقد قلبها به. أجل، تلج عليها مثل شجرة الرمان تضرب امتدادها في الأرض، فيتناهى إليها دوي جرس الرمان حين يقطفه الفلاح، ويتناهى إليها صوت انزلاق قطرات الندى من أوراقها، وضرب مجداف في بحر، كل الأصوات تخرجها من شرنقتها الأرجوانية الحمراء، وتهتف لها بغناء الروح:

- هذا صوت الحب.

كانت ثمة أشياء رائعة تستكشفها هنار في الجبل، ثمة أشياء أصبحت قريبة إلى روحها في هذا اليوم، يوم حميم مزهر خفق فيه قلبها إلى قبلة، تمنتها بشغف لا مثيل له، سوف تلتقطها

من شفتي ميرزا لتبقى متلألئة على وجهها دون أن تختفي، قبلة شهية ملحة على شفتيها العاريتين الطاهرتين، وقد فكرت بها كثيرا أن لا يضاهيها شيء آخر، أن نحتفظ بملامح وجه ميرزا فوق ثغرها الصغير الجميل، فأشرق وجهها بالغبطة الأبدية، حينئذ تخيلت كم ستكون القبلة الأولى في عذريتها جميلة، وكيف ستفتح فمها وتستقبلها بدفء لاسيما وإنها أدركت إنها عشقت هذه القبلة، فأسرعت نبضات قلبها، وحلق ذهنها إنها تدخل إلى جنان الرجل الذكوري كي تديم الحياة بسعادة، إذ الآن قبلة واحدة فقط سوف ترافقها نظرة مشعة من عيني ميرزا، سوف تلتقطها بنظرة صمت محتشمة تفوق أي وصف لأنها ستكون الأجمل في هذا الربيع الخصب، ستكون ذات ود وحنان. هكذا كان الإيحاء الأنثوي البريء يأخذ هنار إلى عالم مفرط يشتغل به قلبها، وتشتاق إليه، ألم يكن هذا ترويحها للقلب تنبعث دواعيه، وتستلذ نفسها بلحنه ونغمته، ويخلد طيبا جاريا في انبعاث الهيجان مثل هيجان اشتعال نيران ؟! أجل، تخيلت هنار هذا الحضور المفاجئ، وتعلقت في ذهنها صورة القبلة سوف تكون بأناقة وهدوء ودفء أنفاس، عندئذ ستقفل على ذاتها الحب الذي يتغذى جوعها منه، إنه يضفي الوجود الحقيقي لها، لم تستطع الخروج منه، لذلك استمرت في الصعود، وبينما هي تصعد أجفلتها حركة غريبة بين شجيرات كثيفة الأغصان لتفصلها عن عالمها الخاص، وهي تنظر مدهوشة إلى الشجيرات، ثم جفلت في مكانها، وركزت عينيها على مصدر الحركة كي تستفهم أشياء جديدة في الجبل بالرغم من أن ثمة شيء مجهول يحدث دون أن تدركه، اضطرم شيء في داخلها، فوقفت ساكنة تترقب ماذا سيحدث، وإذا هي في صمتها الذي حسبته زمنا طويلا ترى أرنبا بفرائه البني اللون الناعم السميك

يمشي أنيقا، ثم يجري بوثبات على رجليه الخلفيتين الطويلتين محافظا على توازنه بيديه القصيرتين، ثم يقفز إلى صخرة مستندا على مخالبه القوية التي طالما حفر بها الأرض، ثم ينزل من الصخرة بوثبة عجيبة وهو يحرك ذيله القصير، ويجلس على خلفيته قرب شجرة التين البرية ليواجه هنار وهو يحرك أذنيه الطويلتين معا، ثم يكتفي بتحريك أذنه اليسرى، رأت هنار هذا التحدي بعينيه العسليتين في جانبي رأسه العريض، فحدقت إليه بعينين مستغربتين، ثم خيم صمت ثقيل بينهما، ثم بعد لحظة مرتبكة اكتشفت هنار إنه يمنحها تلك النظرة العجيبة. كانت مندهشة متعجبة وهي تراقبه بتحديقها، وتدرس جسده الرشيق الجميل، ثم قالت مع نفسها :

ـ أهذا الأرنب صاحب العينين المفتوحتين الذي ينام بعيني ساهر ؟!

عندئذ تكسر الصمت وهي تتقدم إليه ثم توقفت كي لا ينذر أقرانه بدنو خطر، لكنه لم يتحرك من مكانه، واستقر ثابتا، واكتفى طوال اللحظات ينظر إليها، كانا متقابلين، وقد استقرت عيونهما على بعض، إذ اكتشفت هنار أن ثمة شيء في عينيه العسليتين اللتين تشعان بريقا من الدفء والحنان، عينان واثقتان أيما وثوق حيث كانت هنار بالنسبة له ليس عدوا أو صيادا خرافيا بل إنسانة وديعة تحمل في روحها الطيب والمودة، والغريب في الأمر إنه كان يحس بالطمأنينة في وجودها، فكان الأرنب يحرك أنفه، ويشم عن بعد، ويحرك أذنه ويسمع عن بعد، لذلك كشف عن أسنانه في مقدمة فكه كما لو أراد أن يظهر الترحاب بصعودها إلى أعلى، لكن في تلك اللحظة رفرف سرب من طيور القمري فوقهما، فرفعت هنار رأسها، تلك تحل

في مستوى منخفض تطلق أصواتا حسنة تتمثل بجمالها من جزئها العلوي إلى جزئها السفلى، سرب رائع مبهج وديع يتموج في الفضاء وتلوح ألوانه المختلفة الزاهية المندمجة بالبني الجوزي والقرنفلي الخفيف التي تطوق أعناقها أطواق سوداء، وتلك ذات اللون البني الباهت مع خطوط سوداء في أجنحتها، وذيلها الأسود، وتلك ذات الريش الذهبي الذي يضفي جماله في السرب، كان السرب يندفع بعيدا في حريته وهنار تتابع ظهوره واختفائه، ثم ما لبثت أن تقدمت إلى شجرة التين التي اختفى عنها الأرنب، وهي تتذكر حديث جدها عن الأرنب الجميل: في ذات حين قديم انهزمت مواكب نجوم، وقد غارت صغارها من أكبرها وأضوؤها ودنا صبح الصبوح في نهر النهار، أيما بكور في يوم الأربعاء، صبح تكامل في يوم مسرة صالح معبر حيث لم يبق طائر إلا وغرد، ولم تبق نبتة إلا وفاحت روائحها في هذا الصبح الذي دنا، هذا الذي أيقظ الشيخ زندين يضرب وجهه نسيم الرياحين، وبرد يتلبس بالحنين، وأوتار سجع أيضا تدق بالحنين، جاءه النور المستنير، والأرض معطرة متهللة كذلك بالحنين، فنهض زندين، ومشى إلى البرية التي كانت تعج بالأرانب والغزلان، وليس عجيبا أن تترافق معا، في ذلك الزمان طالبت عينا زندين الصيد، فتقدم إلى ركام احجار، والتقط ثلاثة أحجار مدورة ناعمة الملمس كأنها أحجار قادمة من أعلى، إذ لكثرة الأرانب كانت تصاد رميا بالحجر، فاختار زندين ثلاثة أحجار فقط لدقة رميه، واختبأ بين أعشاب طويلة ، ومرت الأرانب ، وركز على أكبرها، فأخطأ رميته الأولى، ولم يصبه في رميته الثانية، ووقعت الثالثة بين رجليه، فطارد الأرنب، ولحق به، فتشاء الصدفة أن دخل الأرنب مقام الشيخ آدي، فلحق به زندين، وقتله في المقام، وسالت دماء الأرنب،

مما دفع الشيخ آدي لفرض عقوبة على زندين بنفيه إلى مصر، ومن ذلك الوقت حرمت قبيلة الشيوخ صيد وأكل لحم الأرنب على نفسها.

وقفت هنار تواجه شجرة التين البرية التي تخنق الشجيرات القريبة منها لأجل بقاءها، فلم تجد هنار التين لأن وقته لم يحل بعد، إلا أن جذور الشجرة تمتد عميقا في الأرض بتفرعات كثيرة كثيفة مما يسمح لها بالعيش الطويل وهي تقاوم الجفاف والعطش إن حدث، ولذلك يقول أهل بحزاني إن عمر هذه الشجرة مئة عام أي إنها الشجرة المعمرة ذات الساق القائم ذو اللحاء السميك الذي يقترب إلى اللون الفضي بتدرنات قليلة، ثمارها التين دائما طازج مليء بحلاوة ضعيفة، وأغصانها لها أوراق سميكة جلدية ذات شكل قلب دائري زغبية الملمس ذات لون غامض أخضر، حينئذ اندهشت، وأخذتها رجفة خاطفة حينما عادت طيور القمري وحطت على الأغصان، لتمارس طقوسها العجيبة في الرقص والغناء كما لو إنها تزف هنار إلى عرسها، وهي تتواثب على الأغصان، وتتأرجح، وتتنادى فيما بينها، فصارت روح هنار على أحر من الجمر لقبلة ميرزا، وصارت أيضا تتابع هذه المراسيم، فقمري يحلق إلى أعلى، ثم يحوم فوق رأس هنار، ويحط على الغصن، وهو يردد بصوت حزين ودود: كو ... كو ... كو ... فرددت هنار مع نفسها:

- سنلتقي نحن الاثنين

نبني عشنا من قبلات

ونستنزل مطر السماء

دموع السماء تنبت حبنا

نحن الاثنين نذكي حبنا

مثل التين يذكيه النسيم

الفصل التاسع

القبلة الأولى

هذه شجرة البلوط أقدم الأشجار في جبل بحزاني، تقع قرب عين فنجان التي كافحت من أجل البقاء على مر العصور سواء أثناء هبوب العواصف الثلجية أم الرياح أم في عصر الجفاف حينما لم يسقط المطر من غمامة في السماء، هذه الشجرة المتميزة بتفردها في تجديد ذاتها، واستنساخ نفسها، فدائما تتجرد من أحد أضلاعها ليسقط بجانبها غصن غض ، فينمو ببطء إلى شجرة كبيرة، وهذه الشجرة الكبيرة عندما تشيخ أيضا كانت تجدد نفسها فتقذف غصنا إلى الأرض لينمو متحديا الجفاف ومعانقا الأرض لتمتد جذوره فيها. شجرة البلوط تعشق الصيف، لذلك امتلأ جبل بحزاني بأشجار البلوط، ولذلك كانت تسمى ـ إل ـ عند الساميين، و ـ آنو ـ عند الأكديين، و ـ اللان ـ عند السومريين، و ـ ايلون ـ عند العبريين، و ـ ايلة ـ عند العرب، وهي شجرة مقدسة عند اليونانيين القدامى، فالملك دوراس الذي يعني اسمه بلوط كان يحرم تشذيبها، ويكون حكمه الموت لمن يعتدي عليها، وكذلك صار قانون الموت نفسه عند الملك إكسيون لمن يعتدي عليها، إذ صارت إله الرعد لديه، وهي أيضا شجرة الآلهة زيفس، وجيوبتر، وهرقل، وشجرة بلوطة مارا هي تلك الشجرة التي زارها ابراهيم الخليل أثناء هجرته من أور مرورا بحران، وكذلك لقب عيسى ابن البلوط ، أما في بحزاني فكانت تلقب بالمعمرة ، ولقبت أيضا بالمضيئة لأن عندما تشرق الشمس عليها تتلألأ بالضياء، فهي الشجرة الأم ذات الجذور الوتدية العمودية التي تتفرع منها جذورا واقفة يتصاعد منها جذع قصير قائم، ومتفرع بأغصان ذات أوراق

تكاد تكون متقابلة مسننة ملساء، وخشب هذه الشجرة الأم صلب قوي ثقيل متماسك ولامع، فمنه صنع البحزاني الأول محراثه أثناء الطفرة الزراعية حينئذ فقدت الأم سلطتها، وصار المجتمع أبوي بسيادة الأب الذي صنع باب بيته من خشب البلوط، وسخر حطبها للطهي والتدفئة خاصة وإن جمرها أحمر يدوم ساعات، ومن شجرة البلوط تغذى بثمارها البحزاني الأول التي هي عبارة عن بلوطات عالقة بسويقات صغيرة، ومحاطة بكؤوس ذات حراشف وزغب، وكان البحزاني يدرك أن البراعم الأنثوية ذات القدود الصغيرة الخضراء يأتيها اللقاح عبر الرياح التي تحمل في هبوبها لقاح الأزهار الذكرية، فتتفتح البراعم، وتكون جوزة البلوط الخضراء بمجرد أن يتم تلقيحها. أما اليوم فتشهد شجرة البلوط طقوسا قدسية أخرى تجري بهدوء تحت أغصانها المفروشة في الفضاء ذات الظل الخفيف، خاصة في هذا اليوم يتقارب فيه زمان الليل وزمان النهار أي وقت استوائهما الربيعي، ثم أن شيئا وقر في قلب ميرزا الراعي، شيء ألقي في قلبه ، لم يفهمه أول الأمر، فاتكأ على جذعها ، وجلس عن يمينها تاركا الماشية تقتات في هذا الكلأ العجيب، ثم أفشى قلبه ما يضمره، فأدرك نفسه أن قلبه يكلمه وهو يسمعه، أكان ضلك في نغمة صوت أم في حفيف أجنحة أم في أول قرع قد بدأت حقيقته، كل ما كان فهو يسمعه في نفسه، تلك كانت بدء إشارة ظلال الحب، وأيضا كانت منتوج القلب لجمال المحبوبة، ليبحر ميرزا في سفينة الحب التي لا مرسى لها أو هو يوغر في بحر الحب الذي لا ساحل له.

بينما كان ميرزا في تنقلاته الذهنية التي تكررت عليه ليس ليجد نفسه فقط يتجرع الصمت محموما في الحب بل يتذكر

أيضا ذلك مساء اليوم الرائع في طفولته حين حفر في ذهنه ذكرى متميزة فريدة عندما جاءه صوت الناي من سطح بيت في السوق القديم، إذ في مساء ذلك اليوم أحب هذا الصوت كما لو أنه لم يرد يسمع صوتا آخر، فظلت روحه تستجيب إلى لحنه الذي يترنم مقطوعة محمد رشاني الدينية ، فهرع إلى هنار فرحا، وهو يردد:

- بري شباكي ...

حينئذ مسكت هنار يده، وركضا سوية إلى بيت الشيخ وزير من عائلة الشمسانية ومن سلالة الشيخ شمس نفسه، ليريا العازف القوال الواقف فوق السطح يترنح مثل غصن غض إلى جهات العالم الأربعة، ويدور حول نفسه، ويعلن ظهور بري شباكي الراقد في إحدى زوايا غرفة البيت التابع إلى الشيخ بريم بن شيخ رمضان من عشيرة البركعية التي تقوم بطقوس تفكيك بري شباكي، وتغسيله بماء السماق، وهو سجادة تشبه الشباك حيكت بشكل شبكة مؤلفة من عودين طويلين مستقيمين مربوطين بسلسلة حلقات دائرية من النحاس مركبة بصفوف منتظمة تربطها خيوط قديمة ذات ألوان زاهية، ومرصفة بدقة متناهية ، ومتعلقة بعضها ببعض، وكذلك يسمى العامة بري شباكي نعشا أو تابوت الموت أو تخت أيزيد أو تخت الشيخ آدي أو سجادة الشيخ آدي التي كان يجلس عليها، غير أن بري شباكي كان موجودا في مزار لالش عندما أحرق الطغاة المزار فهرب الأيزيديون بري شباكي إلى بحزاني وحفظوه بعيدا عن أيدي القتلة ليستقر في هذا البيت تضيئه شموع في كل ليلة ، ويخرجوه مرة واحدة في السنة، يفككوه، ويتم تغسيله، ثم نصبه من جديد، لكن في مساء ذلك اليوم قبل تغسيله تقدم ميرزا وهنار

إلى بري شباكي وقبلاه سوية، ثم فجأة تقابلت عيونهما ثابتة هادئة فيهما نظرات دهشة تمتد إلى أفق بهجة، وقد جلبت تعبيرا قويا غريبا غامضا مثل شعاع صافٍ منعش من نور ينبعث منها، أكان هذا تعهدا بالنظرات أن يكونا معا إلى الأبد؟! لذلك استغرب أحد القوالين وهو يسغرق في رؤية هذه النظرات التي جعلته يردد مع نفسه:

ـ طفولة بريئة ...

عندئذ شهدا سوية تفكيك وتغسيل بري شباكي، وتنصيبه من جديد على إيقاع ضرب الدفوف والعزف بالناي، فتوالت أفواج من الأيزيديين تلمس أياديها بري شباكي، وترسم شفاها قبلاتها عليه تبركا، وتقدم نذورها وقرابينها، حينها وقفا ميرزا وهنار يتابعان بذهول المراسيم التي شغف قلبهما بها، وسرت فيهما رعشة لذيذة غرة راقية نقية أشبه بزغردة بين الضلوع.

وفي فجر اليوم التالي نهض أهل بحزاني مبكرين على أنغام الموسيقى والغناء وترانيم القوالين ليرافقوا بري شباكي في موكب مهيب إلى لالش بعد أن تم تفكيكه، ووضع أجزائه في خراج صوف أحمر ليستقبله البابا شيخ وسط ضرب الدفوف وعزف الناي والأهازيج ، ولتجري طقوس تعميده بفرح وبهجة.

في أحيان كثيرة كان ميرزا ينسى نفسه، وينسى ماشيته عندما يحلق بخياله إلى عوالم متعددة، ويتيه بذاكرته في صور ومشاهد من طفولته التي تأخذه في شوق إليها، الآن ينقاد إلى عالمه الفتي الغر، فذات يوم تجول مع الصبيان والصبايا في

أزقة بحزاني، وهم يحفزون السماء، ويستدرون عطفها أن تستنزل المطر ، صارخين بأعلى أصواتهم:

ـ مطر ... مطر ... انزل يا مطر ...

تلك صرخاتهم لم تكن إلا إثارة لعب، إذ فيها يتوحد مرحهم مع الأمهات، فالسماء أمطرت بغزارة في ذلك العام، وكان محصول الانتاج وفيرا، والمواشي ارتوت من المياه العذبة الصافية، أجل، لم تكن صرخاتهم إلا خلق جوٍ من الفرح في بحزاني، عندئذ فتحت أبواب البيوت، وامتدت أيادي النساء تقذف المياه من جرار عليهم، وهم يضحكون ويقهقهون، ويهربون، حينئذ كان ميرزا ينظر إلى هنار التي تبللت ثيابها، وصار الماء يفرش جداولا من شعرها ليتسلل إلى وجهها، وعلى حين غرة لاذت بين ذراعيه لتقي نفسها من المياه التي راحت تهطل عليها مثل المطر، وهو يشعر آنذاك بأرقى وأنقى لحظات سعادة، فأخذها بين ذراعيه بعفوية بريئة ليقيها من المياه، وهربا سوية إلى بستان زيتون وهما يضحكان، وقد تسربت إلى ميرزا أنفاس هنار أشبه بدفق عطر دافئ منعش يضرب وجهه وينساب إلى روحه، وهو يستنشقه بنقاء، ويستمع إلى كلمات هنار:

ـ أنا تبللت أكثر منك.

وهو يقول بصوت واطئ:

ـ أنا أيضا تبللت.

ثم وقفا مندهشين يتبادلان النظرات صامتين دون أن يتمكن أحد أن يرفع بصره عن الآخر. وعلى حين غرة مر عصفور أيزيد - جيجلة أيزيد - فوق رأسهما بلونه الخلاب وبريشه البراق الذي يطرز صدره اللون الأسود. كان العصفور يمارس حريته الكاملة بين أشجار الزيتون، كم كانت تلك متعة كبرى عندما رفعا بصرهما سوية، وراحا يراقبانه، وعيونهما تلمع من الاعجاب ... ثم راحا يتابعان طيرانه ، ويتأملانه ، وهما مشغوفان بتألقه تماما، والعصفور يطير بسعادة، ويرتفع في طيرانه بقوة جناحيه ليحلق بحريته في السماء.

بعد أن مرت عدة أيام على هذا الاحتفال البهيج، وهو عادة قديمة في بحزاني توارثته الأجيال، فتجمعت عوائل كثيرة، وسارت تصعد الجبل، وتمشي ساعات مع حيواناتها المحملة بالنذور والقرابين إلى مزار محمد رشان الواقع في الجهة الثانية من الجبل، إذ الولي محمد رشان صاحب البركات الذي غالبا ما يستجيب إلى دعاء أهل بحزاني في استنزال المطر، وكان غالبا ينزل المطر، ولم يتأخر نزول المطر، ولم يحل الجفاف في أرض بحزاني، ولم تهلك المواشي عطشا، إذ غالبا ما ينزل المطر. فجأة انتبه ميرزا إلى نفسه، وهو يبحر إلى ذكريات طفولته التي أحبها، فنهض يتابع ماشيته، وجدها ما تزال تقضم الحشائش والأوراق، وإنها لم تفر أو تغادر إلى أخاديد الجبل ومنحدراته وقطوعه الصخرية أو تختفي في شقوق فارغة، ذلك أفرحه أن تكون مطيعة إلى الكبش الذي يقودها برنين جرسه، وفي تلك الأثناء وقف مشدوها حائرا قبالة هنار التي تغتسل بأشعة الشمس مثل زهرة الصباح بلونها النضر، وقد انتابته رعشة رهبة غامضة مصحوبة بلذة مشهد حقيقي، فهو ليس أمام

لحظة حلم خاطفة عابرة. عجز أن يقول شيئا، وعجز أن يتحرك من مكانه، فوقف متسمرا فيه، وبدا عليه الانبهار الذي ران في الصمت، صمت سرت فيه رجفة ابتهاج، وقد علت وجهه حمرة خجل ، وشعر أيضا بالارتباك، وهي تنظر إليه نظرة فيها من القوة ما تفوق العادة، نظرة نفذ منها نور بهاء إلى روحه، نظرة أفرحته وأدهشته في نفس الوقت محاطة بهالة لغز، وهو يفتح عينيه على وسعهما، وينظر إليها بدهشة كاملة، وقد افتتن بجمالها العذري المبهر، فالصمت ما يزال سائدا بينهما، ويلف الكون بسكون عجيب، فلم يكن بمقدوره أن يتقدم إليها. المفاجأة كانت مباغتة في خلال فترة رقيه إلى الحب، إذ إنه غير مصدق أن يرى هنار في هذا الصمت الساكن بينهما، وهي محمرة الوجه، هادئة، يتفصد العرق من جبينها، ولربما جرى خطوطا على ظهرها، وها هو يرتج قلبه دون أن يكون مستعدا إلى هذا اللقاء الذي يشبه الحلم، ولم تكن عنده الارادة أن يخطو في دلف إليها، فظل يخيم صمت رهيب بينهما لتلتقي النظرات ولتعبر العيون عن الحب في هذه اللحظة الأزلية، ثم بعد أن جاءته الكلمات خافتة مثل همس في انسياب مباغت من فمها لتخطفه إلى كون جديد:

- أنا أحبك يا ميرزا !

تلك كانت مفتاح الحياة بالنسبة له، لينفصل عن خجله ويتقدم إليها بخطوات بطيئة، وروحه مترعة في الحب لأنه أحبها قبل أن تعلن هي حبها، ثم صار مثل وهج في مشيته، وقد أثارت كلماتها نوعا من الجنون في داخله لا يمكن إخماده، فاندفع طائشا بريئا مثل سيلٍ لا يقاوم، وهو يتحدى العالم ، كما لو أنه يردد في داخله:

ـ الآن اعطتني الحب، وليأتِ العالم كله.

كانت الدموع ترتجف في عينيه وهو يتقدم إليها، إنه إحساس بالرغبة أن يتملك تألقها النابض الغض، إحساس أن يمتلك عطر تفتحها، فاحتضنها بقوة وحيوية ساحبا إياها إلى صدره، وقد أحست هنار الساكنة في مكانها، الهادئة في اندفاعه أن حبه لا يقاوم إطلاقا، ولا يمكن أن يتخلص منه لأن حبه صار الأقصى، وصار اللانهائي، وقد أدركت أن حبهما انتصر في دقيقة فارقة، فراح يطبع قبلاته على خدها لتكون متلألئة بقبس من أشعة الشمس وفوق عشب الجبل وزهور برية وبين مشهد أشجار البلوط ذات الأثر السحيق، أشجار البلوط المتشبثة بالأرض ذات الجذوع التي تلوت في نموها، وبثت الوداعة في قلبيهما المترعين بالأمل في نقاء وصدق، فهذه القبلات صارت لها علاقة وطيدة بالجبل لأنها ولدت في موقعه الصامت حيث أضحى كل شيء متضامن مع هذه القبلات حتى أزهار النرجس البيضاء والصفراء اللون صارت متضامنة مع هذا الحب العفيف الطاهر المقيد بعفة هائلة الذي فيه هياج روحي، فيه جمال مغرٍ هادئ بعيدا عن أي إغواء، فيه تمتع متأمل ، ولمس وعذوبة، وجاذبية مقدسة بريئة وديعة. لم تفتح هنار فمها، فقد أغلقته تماما، وقد أحست بيديه على خاصرتها، وهو يواصل قبلاته على عنقها ورأسها وكتفها وصوته يهمس:

ـ أنا أحبك يا هنار.

كان المشهد رائعا تحت شجرة البلوط، وقرب عين فنجان التي تغرغر في سقوطها المتواصل المياه، وفي دفء الشمس، وجرس الكبش خلفهما يطلق رنينه، عندئذ فتحت فمها، وشدته

إلى صدرها، شاعرة بنبضات قلبه، شاعرة بدفئه ورائحته وأنفاسه، فأدركت قد حانت لحظة القبلة الأولى الحقيقية التي كانت تنتظرها منذ زمن طويل بعد أن كانت تهجع في أعماقها، وهو يكاد يرفعها عن الأرض، ويهمس بارتباك:

ـ أحبك ...

أطبق فمها بشفتيه، فتركت شفتيها فوق شفتيه، مائلة برأسها إلى الخلف تارة، وإلى اليسار تارة أخرى، وقد شعرت بلسانه يلمس أسنانها ولسانها، وكان ذلك لذيذا ممتعا، وهو يأخذها بين ذراعيه من جديد، وتلك كانت القبلة الأولى الحقيقية التي أيقظت أنوثتها، وانصهرت في ذكوريته، انصهار الجسد والروح معا حد الكمال في الحب الحقيقي، وظلا متشابكي الأيدي، إذ عبق القبلة فريد لا ينسى فيها عبير الحب ذاته، عبير الرضاب، والدموع التي توالت على العنق والوجه.

كان كل شيء عذب في بدايته، يتقد في ضوء النهار، ويتوهج في عبور جديد، كل شيء رائع ، حينئذ جلسا تحت الشجرة، وقد جاءهما صوت غريب من طائر مرق فوق الشجرة، صوت واطئ عذب كما لو إنه يبارك هذا الحب، وواصلا تبادل قبلات طويلة مرة أخرى، قبل مدهشة فيها عذوبة لا توصف، فيها مغامرة لا توصف، تارة بطيئة وتارة أخرى سريعة، وصار ميرزا يقترب بقبلاته من صدرها حتى تكشف نهدها، فأحست هنار أن نهديها كانا يلهثان، ويتنهدان، فدفعته عنها، وتوقف نبض إيقاع القبلات، ولم تمض برهة من الزمن، فامتدت يدها إلى البراة التي تطوق عنقها بخيط محاك حولها مثل قلادة، ثم رفعتها إلى شفتيها وقبلتها. حينئذ مد ميرزا

يده إلى جيبه، وأخرج البراة منها، وقبلها ثم أرجعها بسرعة إلى جيبه. لم تمض لحظة، فبوغت ميرزا بنهوضها على عجل، وتركته واقفا وهو يشيعها بنظراته، وابتعدت عنه نازلة إلى الوادي، وقد انسحبت عنه مثل شعاع يضيء الكون، وصارت روحه منقبضة لمغادرتها السريعة لكنها مليئة بالسعادة حين ابتدأ الحب الحقيقي، وقد أحس بطعم القبلة الأولى مثلما أحست بها هنار:

ـ قبلة مزهوة بالشروق، حقيقية مشبعة بالدفء، تلقائية ذات متعة غريبة، مثيرة ضخمة ذات إيقاع بعيدا عن التكلف، مدهشة ذات بهجة، فيها شوق وهياج، ناعمة مريحة ذات طبع رقيق ، مطواعة لطيفة، جميلة ذات ترف فتي ، نقية شفافة فيها إثارة انتشاء، ذات بهجة طاغية، ذات ترنيمة صامتة تتغنى بها الروح، ذات همس لا متناه... القبلة الأولى ذات سر عظيم.

كاد ميرزا يقفز على قدميه من شدة فرحه، ويرقص مع القطيع، وهو يصرخ : دع ... دع ... دع ... ويرفع ذراعيه إلى أعلى مبتهجا، وقد أصبح أكثر حيوية من أي يوم آخر، وهو يهش عصاه فوق رؤوس القطيع، وقد أقسم مع نفسه إنه سيظل يحبها، ويخلص لها حتى الموت، ولن يتزوج غيرها.

الفصل العاشر

لا أحد يهلك الشمس

يوم مصحح ... استهل نهاره دون أوار حر الشمس، وقد أرسلت الشمس ضياءا، إذ اليوم قد حان وقت الجني والقطاف إلا أن أهل بحزاني أبوا أن ينز عرق الجبين في هذا اليوم، لأن هذا اليوم ذو شأن في نفس البحزاني، يوم مبارك... كما أراد البحزاني أن تكون أيامه مباركة وذات خير وسلام، وكل شيء قد حان في الأوان ... طقس مقدس في هذا اليوم، حشود أهل بحزاني من شيوخ وعجائز، رجال ونساء، صبيان وصبايا، تتوزع داخل القرية بصفين متوازيين على الطريق المؤدي إلى قرية بعشيقة ليمر الموكب العظيم، فقد حدثت جلبة ابتهاج وفرح، ووجوه أهل بحزاني توردها أشعة الشمس التي بدأت إشراقها على جبل مقلوب في هذا اليوم، نعم، أهل بحزاني في أزهى ملابسهم وزينتهم وقد تعطروا بأزكى عطور من زهور برية في وقت جديد بعد أن ولت أزمنة الظلام التي أطفأت وهج الأفراح. الكل في انتظار لحظة البزوغ وعيونهم مصوبة إلى إشارة الرمز، لم تظهر بعد، فراحوا يتهامسون، ويتبادلون النكات، ويضحكون وهم يرددون المقولة الشهيرة: بيت العشق يرتكب ... وبيت الحزن يدفع الدية ... إذ في ذات يوم حاول بدوي أن ينهب ماشية الراعي من أهل بعشيقة في البرية، فقتله الراعي، ذلك كان غالبا ما يحدث. حينئذ خشي أهل بعشيقة من هجوم مباغت من قبائل القتيل للانتقام، وأخذ الثأر، عندئذ ستحدث الكارثة، وستحدث الحرب، وستصطبغ القرية بالدماء، لذلك تفكر وجهاء القرية وشيوخها، ووجدوا الحل ليجنبهم الحرب، وأيضا يجنبهم دفع الدية، فرموا جثة القتيل في أراضي

بحزاني وهم متفائلون بالخير ، تلك الخدعة انطلت على عشيرة البدوي، حينئذ طلب أهل القتيل الدية مترددين أن يخوضوا حربا ضد أهل بحزاني لأنهم معروفون بشجاعتهم في القتال، هكذا جمع أهل بحزاني أموالا من كل دار، وسلموا الدية، وهم يرددون ممتعضين غاضبين: فعلوها أهل بيت العشق. فتعالت الآن القهقهات وهم يتذكرون أشياء كثيرة حزينة ومفرحة. ثم مسد شيخ لحيته البيضاء، وهو يتوكأ على عصاه، وقد حشر نفسه في حوار: نعم فعلوها أهل بيث عشيقا . فجاءه صوت عجوز كانت تقف بقربه: تقصد بيت الظالم. فهز الشيخ رأسه، وقال متلاعبا بالحروف: نعم، فعلوها بيث شحيقي، فناغته العجوز بصوتها مرة أخرى: تقصد بيت المنكوب. تململ الشيخ، وهو يقول: بيت العشق، بيت الظالم، بيت المنكوب، بيت الزيتون، بيت الصابون، المهم إنهم فعلوها بأهل بحزاني. فضحكت العجوز، وقالت:

- تأخر عنزال.

فاستغل الشيخ هفوة العجوز فرحا، وقال بتأنيب:

- تقصدين السنجق عنزال.

فانتبهت العجوز إلى هفوتها، ورددت:

- نعم، نعم، هذا ما أقصده.

فراح الشيخ يقص عليها بصوت حزين عودة عنزال مع بقية السناجق والنياشين بعد نهبها:

ـ أجل، أعاد الباشا سليمان نظيف في ٢١ شباط من عام ١٨٩٥ السناجق والنياشين المنهوبة إلى مستقرها بالرغم من أنها كانت ناقصة، ووضع السنجق عنزال في مقامه الخاصة ... خزانة الرحمن ... المفتوحة دائما ... أجل، زار الباشا معبد لالش وأكل وشرب مع إخواننا، يا له من يوم مفرح بهيج، هذا الباشا كان طيب القلب.

التفتت إليه العجوز، وقالت بغضب:

ـ لأن أمه أيزيدية.

بينما كان أهل بحزاني ينتظرون ظهور السنجق عنزال من بيت هنار في أعلى محلة البرافية، وهم يتبادلون الأحاديث والنكات، وأطفالهم يتقافزون ويركضون فرحين بهذا اليوم، وقد ملأت قلوبهم غبطة لا مثيل لها، كانت تجري مراسيم خاصة، فهذه هنار تطوف سبعة مرات حول السنجق، تركع، وتقبله قبلة خفيفة، تلمسه بيدها ثم ترسمها على صدرها، وتمسد وجهها ، وتهرع إلى غرفتها، ولتقابل أمها ويحل صمت ثقيل مضنٍ بينهما، وتلتقي العيون بنظرات متأملة كما لو أنها تمتد إلى قرون ماضية مضطرمة قاسية، تمتد إلى يوم ذلك المشهد المروع عام ١٨٩٢ إذ جندي الباشا عمر وهبي يبقر بطن الجدة الكبيرة لتتخضب الأرض بالدم ، تلك كانت حملة إبادة في قتل أنفس بريئة، وتدمير قرى، وحرق بيوت، ومطاردة شريرة إلى جبل مقلوب ، وصراخ يتعالى:

كفى شرور يا جندي الباشا

ارتكبتم بما فيه الكفاية من مجازر

ربكم لا يغفر لكم هذه الذنوب

فباسم الرب تعلقون آثام وغرور

كفي شرور يا جندي الباشا

إلا أن جند الباشا كانوا يكررون الذبح مرارا وتكرارا، ويدوسون بسنابك الخيل صدور النساء، وأجساد الأطفال، وأصواتهم الشرسة تأمر: استبيحوا الحرمات ، انهبوا الديار. ويتوالى التعاقب المهول في سفك الدماء، إذ شيء غير عادي أن تتواصل المجازر، وتحبس الأنفاس، لتأن الأصوات في وجه الشمس، وعند بزوغ القمر، وتسيل الدماء مثل نهر، حتى جاء أمر الباشا: انهبوا الطواويس السبعة، والنياشين الثمينة. حدث ذلك، وعاد جند الباشا يحملون علائم العدوان إلى بغداد ليضعوا الطواويس والنياشين في متحف الجيش العثماني السادس.

في هذه اللحظة بالذات التي انزلقت فيها رؤيا الأم والبنت إلى تلك الفاجعة المؤلمة من تاريخ طويل ومرير فيه شراسة، فيه ضراوة، ليس بمقدورهما الآن إلا أن تتخاطبان بصمت مهيب عبر التقاء العيون التي كادت تطفر منها الدموع:

- أنت أيتها الأم الأيزيدية الحنون، يا أم البركات وتاج العارفين، يا حافظة أسرار التاريخ، وحافظة لوح القدر، أنت يا سيدة الكون الأيزيدي منذ خلقه الأول، منذ أن نثرت يدك النبيلة بذورا صفراء، فصارت سنابل ذهبية، ثم حبة قمح، فكانت جسدا وروحا، ثم سدرت براح الصخر، ثم صارت خبزا، ثم أكلا، تلك كانت القفزة الكبرى، وبرزخ العبور إلى الزرع، وأنت ترددين المقولة الشهيرة: نحن راضون بكسرة من خبز الشعير.

أنت يا رائدة الإخصاب الأول، فمن رحمك انطلقت صرخة الولادة الأولى، وتجددت الحياة من نبع حليب نهدك، وبدأ نسلنا البشري. أواه، كم كدحتِ في البراري وحملتِ على ظهرك حطبا لمواقد النار، أو سرت ترفعين سراجا لينير الظلام . لكن طغاة الدهور وجبابرة العصور انتهكوا حرمتك وعفتك، وطهارة جسدك، فهذا عثماني صاحب الاثنين وسبعين حملة إبادة (فرمان) يدوس بسنابك جواده صدرك، وهذا جليلي يضرم النيران بالدار، وهذا أمير راوندوزي متعطش لسفك الدماء، وهذا دكتاتور يدفعك إلى حفرة الموت، وأنت تحتضنين طفلك الرضيع إلى صدرك، لتموتين مجهولة بعيدة عن الديار، والدموع تصرخ في عينيك: ولدي ... أنت تتذكرين دائما عندما ركضتِ إلى والدك الغارق جسده بالدماء، واحتضنتيه بألم، وأنت تسمعين كلماته الأخيرة: لا تنوحي، ولا تبكي يا ابنتي، لقد فعلوا ذلك ألف مرة من قبل، فعلوها مرارا وتكرارا، فكيف لا يقتلوني ... كل ذلك يا أيتها الأم ليس لشيء يذكر في التاريخ المرير من جرائم هؤلاء سوى لأنك تمشين بقلب صافٍ إلى شجرة الحياة، ألم يقل أجدادك الأوائل: فروحها خيرة غير ملوثة تمشي في الطريق الصحيح ... كل جرائمهم ليس لشيء سوى لأنهم يريدون أن يقتلوا الحب والخير والسلام ويعم الدنيا الظلام.

في هذه اللحظة التي كادت تتحول إلى حزن، ودموع، وسكوت، تقدمت الأم إلى ابنتها وأخذتها بين ذراعيها، وضمتها إلى صدرها، وهي تقول بخفوت:

- لا أحد يهلك الشمس يا ابنتي.

حينئذ كتمت هنار صرختها في صدرها كي لا تنطلق مثل قرع طبول لتدوي في بحزاني، ويمتد صداها من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة:

- يا باشا، لا أحد يهلك الشمس.

لأن هنار صبورة وعنيدة في نفس الوقت ، لذلك سحبت نفسها من أنفاس أمها التي فرشت على وجهها دافئة، ثم خطت إلى خزانة ثيابها ، وأخرجت منها ثوبا أبيضا لتكون في سفر كينونة أخرى ، سفر نابع من ماء القلب والحياة، وهي تقول:

- ماما ... اخرجي لي حلي جدتي .

- نعم ، يا ابنتي ....

فتقدمت الأم إلى صندوق صغير في زاوية الغرفة، وأخرجت منه كيس قماش أسود صغير، وقدمته إليها التي ما لبثت أن فتحته بسرعة، وراحت تزين أذنيها بقرطين، وعنقها بقلادة، ورجليها بخلخالين، وإصبعها بخاتم نقش على فصه الأخضر صورة شمس حمراء، إذ ما لبثت أن قبلت الخاتم، وقالت بصوت رخيم:

- هذا خاتم المحبة يا أمي.

كانت الأم تحوم حول ابنتها مرتبكة دون أن تعرف ماذا يحدث لها، وقد تعلقت دمعة بين رموشها السوداء، دمعة صافية خالصة مرتجفة لا تفارق كأسها كأنها غافية فيه، تلك كانت دمعة حية متقدة دون أن تفارق محجرها الدافئ، فعضت الأم شفتها السفلى، وهي تقول:

ـ ماذا يا ابنتي، أوقعتِ في الحب؟!

ـ نعم، يا أمي ...

ثم اعتمرت بغطاء الرأس الأسود المرصع بقطع فضية، ولفته بقطعة قماش منيرة ليس لتكون عمامة مهراة بل لتكونون تاج عذراء، ينسدل من حافاته شعرها على كتفيها، وقد زينت فوق أذنها اليمنى وردة حمراء، ثم لبست درعا منسوجا من رق النسيج، ووضعت على صدرها وشاحا منقوشا بالورود، ومخططا بصور الشمس، ومصبوغا أيضا بلون الشمس، إلا أن ما زاد رونقها هو الإزار الأحمر الخفيف الذي لفته على جسمها، وتدلى على جانبها الأيسر كما لو أنها تتأبط به، ليجلل رشاقتها، وقوامها الذي أصبح مشرقا، ثم ما لبثت أن أردفت قائلة بعد أن اكتمل رونقها:

ـ آتيني بالمبخرة يا أمي.

خرجت الأم إلى الموقد، وهي تلقم المبخرة بخشب من جذع شجرة الزيتون ذات الرائحة النكهة، وشعلتها لتكون جمرا أخاذا بلونه وديمومته، وهي تلقي نظراتها على القوال الكبير الذي بدأ يفكك أجزاء سنجق عنزال بترو، ويغسله بنقع السماق كي لا يخالطه شيء من صفرة أو حمرة، ولا تكون قد علته غبرة أو عفرة تراب، ثم اخذ يبلل قطعة قماش بزيت الزيتون في إجانة، ويمسح القطع لتكون لامعة خالصة، تامة في نقاء، وقد أخذت اللمعة كاملها، ثم وضعها في كيس أحمر منسوج من صوف خالص، وحمل الكيس على كتفه ليتدلى على جنبه منحرفا على صدره، ويلامس حزامه الأحمر الذي يطوق

خصره، ثم وضع القوال عباءته البيضاء على كتفيه لتغطي ظهره، ويدثر بها جزءا من الكيس، وليكون القوال في هذا اليوم حامل الرمز، وحامل لواء الخير. عندئذ رجعت الأم إلى الغرفة وهي تهز المبخرة ذات السلاسل الثلاثة الرفيعة التي ارتأت أن تكون هكذا ليس مثل منقلة لئلا تحرق يد بهار الناعمة الصغيرة، ولتتمكن بهار أن تحملها في كل الطريق إلى بعشيقة، وقد أطعمتها بالبخور لتنتشر رائحة الطيب في البيت.

اصطف القوالون حفاة قرب عتبة البيت وهم بزيهم الأبيض، أحدهم حاسر الرأس تتدلى لحيته البيضاء على صدره، وأخر يعتمر كوفية حمراء، وآخر يعتمر عقالا أسود فوق كوفية بيضاء، فهذا تقدم إلى الكيس وقبله إلا أن قبلته وقعت على صدر حامل السنجق، وذاك كان يرتب عباءة حامل السنجق التي تمايلت على جانبه الأيمن دون اتساق، وكلهم يحملون دفوفا، غير أن صاحب الكوفية الحمراء كان يقبل الناي، وهو ينتظر إشارة البدء، لكن كبير القوالين كان ينتظر ظهور هنار، فأراد أن يكون لهذا الجيل شأن في الاحتفال، وقد وقف إلى جانبه جد هنار التي فرشت معالم الفرح على وجهه. لم تمض لحظات حتى بانت هنار مثل يمامة بيضاء يطوقها لون أحمر، تمسك بيدها المبخرة التي يتصاعد منها دخان أبيض ذات السلاسل الثلاثة. أجل، بانت هنار صباحة في وجه، وضاءة في بشرة، رشيقة القد، كاملة الحسن والجمال، مليحة في فمها وأنفها وحلاوة عينيها، أنيقة القوام، فانبهر القوالون وكادت عيونهم تسوغ من محاجرها لبزوغ يمامة بحزاني التي كانت بياضا في بياض، فتقدم إليها حامل السنجق، ووضع في يدها البراة البيضاء، وهو يردد بخفوت:

أصغي يا هنار، اسمعي يا هنار،

جلال صوت الرب،

جلال نصائح الرب،

في الصباح المغرور،

في المساء المنشور،

احملي البراة، احفظي البراة!

هذه البراة هي تراب حمل كهف البرات (اشكفتا براتا) قرب مزار شيشمس في معبد لالش، ونقع بماء العين البيضاء يوما كاملا داخل المعبد، ثم عجن بيدي عذراء طاهرة خادمة المعبد، متصوفة في الدنيا، زاهدة إلى ربها، ثم جبلت العجينة، وجففت لتكون بحجم البندق لتوزع هدايا من قبل القوالين. هذه البراة مباركة مقدسة تحمي حاملها في الشدائد، وتلبي الدعاء، وتقوي أواصر المحبة. تطلعت إليها هنار، وقد استقرت في كفها المفتوح. كانت بيضاء حميمة، فلم تمر لحظة حتى رفعتها بود إلى شفتيها وقبلتها، ورددت مع نفسها:

- احمي حبي البريء.

ثم دستها في جيبها، وقررت عندما تعود إلى بيتها بعد هذا اليوم المصرح ستلفها بقطعة جلد، وتخيط لها قلادة وتعلقها في عنقها كي تكون تعويذة حب أزلية خالدة. لم تمض برهة زمن ثم برهة لتكون بهار في عالم طقوسي، وهي تردد دعاء

القوال كلما انتهى من جملة، ليتجلل على المكان صوت شبه حزين وقور:

يا رب، أنت خلقت نفسك بنفسك

يا رب، أنت معطي القوت

يا رب، أنت الحكيم والملكوت

يا رب، أنت عالم العلماء

يا رب، أنت خلقت نفسك بنفسك

يا رب، أنت الملك العظيم

يا رب، أنت ملك العرش العظيم

يا رب، أنت أزلي عظيم

يا رب، أنت المقدس العالي الشأن

يا رب، أنت الغوث وأنت المدد

يا رب، أنت خلقت نفسك بنفسك

ثم أعطى إشارة البدء، فنقرت الدفوف ، وعزف الناي، وتعالت الزغاريد، والهلاهيل في بحزاني، وتوالت ترانيم أطلقتها أفواه القوالين، وتحرك الموكب المهيب، وقد سبقه قوال، وهو يصيح بأعلى صوته:

- السنجق العنزال قادم .. قادم ...

والقوال يشق طريقه بين الحشود إلى بعشيقة ليبلغهم بالنبأ السعيد:

ـ الزائر الكريم قادم ... قادم ...

فهب أهل بعشيقة من بيوتهم لينظموا الصفوف لاستقبال السنجق العنزال، وهم يرددون بفرح عظيم:

ـ أهلا وسهلا بالزائر الكريم.

كان الموكب يشق طريقه بين صفين من المحتشدين داخل بحزاني، ويمر قرب أطراف بساتين الزيتون، ويخرج من القرية بقافلة حشود بشرية ضخمة، ويصل التلال التي تتوزع عليها المزارات فعلى يساره بموازاة جبل مقلوب مزارات شيخ شمس وسجادين وآمادين، وعلى يمينه شيخ حسن، حيث استطاعت هنار أن ترى مزار شيخ أبو ريشة من بين التلال الذي كانت تزوره غالبا ، وتضع نذورها فيه ، وهو الشهير ، داعية الخير، التي علقت أسطورته في ذهنها، إذ عندما دفن الشيخ في ذلك الوقت القديم جاء طائر سماوي أبيض تام الخلق، ثم سجع سجعا حزينا، ذلك كان نواحا، وهو يهدر ندبا: كو ... كو ... كو ... ثم أخذ ينفض ريشه عنه ليسقط فوق القبر، وكلما نفض الطائر ريشه نبت ريش جديد حتى تغطت قمة القبر، وسجع الحزن صار صدى يتردد في وديان جبل مقلوب، وهناك من يقول أن ريش الطائر صار أسودا حزنا على الشيخ، ولذلك شاع أسم الشيخ الميت أبو ريش في المنطقة.

توقف الموكب قليلا بمواجهة قبة الثلاث الصغيرة والمتوسطة والكبيرة التي تعطي أيضا صفة أخرى لرمزها

الديني: الهلال والقمر والبدر. كانت هنار تميز الأصوات المركبة التي تصرخ في أذنيها من قبل الجماهير الفرحة، فراحت تميز ترددها، لم تسمع صوتا أحبت أن تسمعه الآن، تلك كانت رغبة جامحة متأججة، ثم أرادت أن يراها ميرزا: كم هي جميلة! بينما كانت عينا هنار شاردتين بعيدا، تبحثان عن وجه ميرزا، وقد تملكها أسى أن لا تراه، و أن لا يراها، لكن فجأة رأته فوق التل، ووجهه يختلج فرحا، وهو يقفز مرحا على قدميه، وقد رفع ذراعه إلى أعلى، وأشر بيده، وردد اسمها، سمعت صوته يناديها، فراحت تحدث نفسها:

- تعال حبيبي نصعد جبل مقلوب، ونتشرب بالرحيق، ونعيش المدى فوق قمته، ونصنع جنة الخيال، ونبني عش الأحلام، ونسمع أجراس التيس، ثم نحلق معا إلى السماء، قلبان يخفقان بقلب واحد، والأرض تمتد تحتنا، ونشير إلى بحزاني دون انتهاء، نطوي العصور، وندرك المستحيل.

تجاوز الموكب الوادي الذي يؤدي إلى بعشيقة، وتوقف في مدخلها، إذ كان وجهاء وشيوخ بعشيقة في استقباله، فتقدم كبيرهم، وركع، ثم قبل الكيس الذي كان يحمل السنجق العنزال، وهو يقول:

- أهلا وسهلا بالزائر الكريم .

وكان هذا يوم فرح، وذبائح، وأكل، وشرب، وموسيقى، ورقص، وغناء في بعشيقة، وليتواصل السنجق يطوف من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة في أرض الأيزيديين، والكلمات تتردد على الشفاه:

- لا أحد يهلك الشمس.

الفصل الحادي عشر

الولي الصالح في بعشيقة

حكي أن كان في سالف الأزمان قيصر أحد ملوك روما الأول مولعا في اقتناء الطيور الجوارح، وهذه عادة من عادات الملوك الأوائل، إذ هم يتباهون بقدراتها على ملاحقة الطريدة واقتناصها، وما تتمتع به من حسن هيئة وبهاء ألوان، وفطنة وذكاء، وإنها مطيعة وفية لمليكها، وكانوا أحيانا يتبارون بها وهي تتلقف القنيص في الهواء بين مخالبها الحادة ونقرات منقارها المدبب، وتعود مزهوة مرفرفة لتحط على أيديهم بعد أن بذلت جهدا متفانيا في الانقضاض على الفريسة، وقد نالت كل ما يبتغيه مرسلها.

فذات يوم قد بان ضوء الصبح في طلوع بعد أن تعرى الليل من ظلمته، فغدا القيصر يبغي الصيد في ضوء الصبح، فرأى باشقا أقمر اللون، بل أقمر من القمر، سريع الطيران، خفيف الجناحين، يزج نفسه صاعدا نحو السماء، وهو يرد جناحيه ردا، ويسمو إلى ذروة الصعود، وفجأة إذا به يضم جناحيه إلى الوراء، ويلف طيرانه هابطا منقلبا على ظهره، ويأوى شجرة ملتفة لها شوك ودغل كثير، فأعجبه ذلك ، فقال:

- هذا طائر نادر عجيب !

أمر بجمع أنواع طيور الباشق الجيد والمحمود بمختلف أخلاقها وأمزجتها وألوانها، ويأتوا بها إلى مجلسه، وهذا ما كان

في قديم الزمان، وراح القيصر يمتحنها ويجربها، وجاء دور الباشق الأبيض، فعرض إليه حية، فوثب عليها مثل برق شهاب، فاندهش القيصر، وصار مأخوذا بفطنته، تائها في حسن هيئته، عندئذ أمر أن يحملوه إلى العراء، ويضعوه على مجثم من خشب، وإذا به ينطلق في الهواء وهو يحرك رأسه يمينا وشمالا، باحثا بحدة نظره عن طريدة، وكان هناك أرنب قد مر تحته، فهبط عليه بلحظة خاطفة، ولم يتركه إلا وهو مخضب بالدماء، معفرا بالتراب، وعاد إلى مجثمه متباهيا مزهوا جبارا مطيعا ظافرا، ثم أطلق مرة ثانية، فإذا به يرمي بنفسه في غوطة ماء، ثم يحلق ثقيلا في الهواء، ويرمي نفسه على أرض ترابية، ويتمرغ في التراب، ويحلق من جديد حتى وقع على هامة غزالة ثم راح يصفق بجناحيه على عينيها فملأهما ترابا، فلم تر الغزالة أين تذهب، ولم تقدر على الفرار، فسكنت في مكانها مرتعبة بينما الباشق الأبيض عاد كما هو مزهوا جبارا، فقال القيصر:

- هذا طائر ملوك !

فردد مرافقوه بصوت واحد:

- أنه طغرل يقتنص في الهواء وعلى الأرض.

هز القيصر رأسه، وقد بدت على وجهه علائم الرضا، وهو يقول:

- طائر كريم النسب، نبيل المعشر.

هكذا تآلف معه القيصر وهو يتفحص ريشه القليل وعينيه الحمراوين وعنقه الطويل وساقيه الطويلين وفخذيه المسرولين

بالريش وأصابعه المتفرقة العارية ومخالبه الحادة السوداء، وصار وفيا مطيعا لا نظير في ذلك، متميزا عن بقية الطيور الجوارح التي بحوزة القيصر، هذا القيصر الذي أراد له أن ينشأ في الطبيعة ، فأبقاه مع أنثاه في شجرته لتكون له مأوى ومسكنا ووكرا التي سقفها طغرل تسقيفا جيدا يقي أفراخه من البرد والمطر في الشتاء وحر الشمس في الصيف، وذات صيف فرش بيته بالريحان وهو ينظر إلى أفراخه التي ظهرت عليها قوادمها، فصوب نظر أفراخه إلى شعاع الشمس فثبتت عليه، حينئذ تحقق أنها أفراخه، لأنها لو حاد نظرها عن أشعة الشمس لاكتشف أن أنثاه لم تكن محافظة له، وأنها كانت مؤاتية غيره، حينئذ سيكون مصير أفراخه الموت، وسوف يضرب أنثاه الزانية، ويقتلها ، خاصة وإن أنثاه تبيض من كل طائر يغشاها، فتكون الأفراخ ذات أخلاق وأمزجة الذكر الذي غشاها.

امتلأ طغرل فرحا، وهو يأتي بالغذاء إلى أفراخه، ويطعمها من منقاره، وعلمها أن تتجاوز الخوف والقلق والذعر، وأن تكون قوية مستأنسة لا مستوحشة، وعاش طغرل وفيا للقيصر، وكان القيصر عادلا مع جنوده، ويوزع الثروة بالعدل، وأحب العمران وتشييد القصور وفتح قنوات الري، وأسس اشبه ببرلمان لإصدار قوانين البلاد إلا إنه لم يكن عادلا مع العبيد الذين كانوا أسرى الحروب، فتعرض الكثير منهم إلى الموت بالأعمال الشاقة أو المصارعة الوحشية التي لم تكن إلا ترفيها عن النفس الرومانية ، وقد خاض حروبا عديدة تارة مع بلاد فارس، وتارة ضد الإغريق، وتارة ضد هانيبال الذي وصل إلى مشارف روما مستخدما الفيلة عابرا جبال الألب بها في الشتاء المثلج، وقد كبد الرومان خسائر فادحة غير أن ذلك لم يدم

طويلا في المعركة الحاسمة قرب قرطاج التي سحق الرومان جيش هانيبال، ففر الأخير إلى مصر، وقد اختفت آثاره، ثم تواردت أخباره أن الرومان قتلوه، ولم يكتف الرومان بهزيمة جيش هانيبال بل نهبوا قرطاج، وفتكوا بالناس واغتصبوا النساء ومارسوا أبشع أنواع القتل، تلك كانت جريمة لا تغتفر وهم يحرقون قرطاج ويدمرون مينائها الشهير. حينئذ صار الرومان سادة البحار وفرضوا سيطرتهم الكاملة عليها.

وفي هذا الوقت هرم طغرل، وثقل جناحاه، وضعف بصره، وشاعت أخباره بين الملوك أنه إذا انقض على طريدته ولم يأخذ بها فإنه سوف يتركها لتنجو بنفسها، ولم يحاول الكرة مرة ثانية، وإنه لا يقترب من فريسة صيد طائر جارح آخر، ولا يقترب أيضا من فريسة مقتولة أو طائر ضعيف ولا يأكل الميتة، ويأكل الحية إلا رؤوسها، ويأكل الطيور إلا قلوبها، وإنه اذا اشتكى من كبده ينقض على طائر ويأكل فقط كبده ، وبذلك يتعافى، وهو يصطاد فريسته وهي طائرة وهي على الأرض، فلقب بالباشق النبيل أو طغرل الحر. وكان يجدد قوته أن يلتمس غديرا، فينتف ريشه القديم ليعود له ريش ناشئ جديد إلا أن ذلك لم يدم طويلا، فقد عجز عن النهوض، فصارت أفراخه تحمله على ظهرها بعد أن أظلمت عيناه، وصارت تعيله إلى أن مات.

وذات يوم كان القيصر يفكر ويتفكر في غزو بلاد فارس لكن الحروب أنهكت جيوشه، فعدل عن ذلك، فتذكر ذكاء ابن طغرل، فأرسله هدية إلى كسرى، وقد كتب إليه خطابا، وهو يكتم في داخله سرا، وجاء في خطابه:

ـ هذا طغرل ذو مخالب ومنقار، شريف النسب، عظيم السلاح، لمليكه خاضع غير مرتاب، يأنس الملك بمخلبه المعوج، نظره دائما يتأجج.

اعجب به كسرى لحسن هيئته، وشدة ذكائه، فجوعه ليصيد به، وهذا كان الخطأ الفادح الذي ارتكبه كسرى، فطغرل لم يجع يوما عند قيصر، وقد اعتبر هذا التجويع إهانة ليس له فقط بل لقيصره، ولذلك بغفلة من كسرى وثب على صبي من حاشيته، وقتله، فقال كسرى كلمته المشهورة:

ـ غزانا قيصر دون جيش.

وشاع هذا الخبر أن قيصر صاد كسرى في قصره دون جيش غير أن الباشق الأبيض أو الطغرل الابن لم يرجع إلى القيصر ولم يحلق في أراضي الإمبراطورية الرومانية خوفا أن يكون قد أغضب القيصر بتصرفه، وقد يكون سببا في نشوء حرب طاحنة سيكون ضحيتها الأبرياء، لذلك هام في أجواء الدنيا، وصار سيد الفضاء، صبورا مغرورا بنفسه، لا يخاف الرياح التي تحرك الغمائم، ولا يخاف البرق والرعد التي منها تأتي الصاعقة، فتصعق وتحرق وتهلك حتى صار يركب البرق والعاصفة الهادرة بصوتها المرعب، ويركب السحب الداكنة التي تنحني لها هامات الأشجار تحت سوط الرياح، وهو يطير في الريح والبرق والرعد حتى صار منزله حافات الجبال العالية، وذات يوم لم يستطع أن يحلق تحت المطر، فاختار له بيتا في جبل ، وكان ذلك جبل بعشيقة أو وادِ من وديانها، فمن هذا الباشق جاءت تسمية بعشيقة لكن الكثير من الباحثين والمؤرخين لم يتفقوا مع هذه القصة، واعتبروها أسطورة من

صنع الخيال خاصة وإن بعشيقة أقدم من تاريخ القيصر وأقدم من الإمبراطورية الرومانية، لذلك اعترضوا بشدة أن تكون بعشيقة جاءت من بشق أو بشك، وقدموا دلائل مهمة وكثيرة سواء تتعلق في علم الآثار أم المصادر التاريخية الأساسية، فبعضهم يقول أن بعشيقة كلمة أرامية من كلمتين بيث عشيقا أي بمعنى بيت الظالم أو من بيث شحيقي أي من بيت المنكوبين، وآخرون يؤكدون برأيهم أنها كلمة سريانية تعني الظالم أو المتسامح، والكثير يقول لو توقفنا على كلمة البعشقة فسوف نرى أن عيون المياه كثيرة في بعشيقة، وهذا دليل إنها جاءت من البعشقة التي تعني خروج الماء من انحساره لكن هناك من يميل إلى الرأي انها تعني نهاية الجبل أو الفتحة بين شقين او فتحة الوادي بين جبلين.

لكن البعشيقي يمتلك ذاكرة عجيبة تتوارثها الأحفاد عن التاريخ تتماثل مع المفهوم الحديث أي إنه لا يعني التاريخ سرد أحداث وأسماء مدن وملوك ووقائع حروب فحسب بل هو صراع بين شعب وحاكم منذ زمن سحيق، إذ هذا الحاكم الأخميني الفارسي الذي يخكم منطقة الأيزيديين من قصره في قلعة حصينة ما زالت آثارها باقية وتسمى - هوري - أو قلعة بني الأصفر كان يطلق عليه في البدء - دهقان - أي رئيس الأقليم بالفارسية غير أن مجموعة من - الهرابذة - وهم خدام النار كانت تحيط به، وتعظمه، فأصبح يدعى - مرزبان - أي ملك على ربع أرباع المملكة الأخمينية. كان ذلك في عهد ملك الملوك (داريوس) دارا الذي أسقط امبراطوريته الاسكندر المقدوني عام ٣٣١ ق. م، وراح يطارده في الجبال ثلاث

سنوات، فوجده قتيلا غدر به أعوانه، فتملك الاسكندر غضبا، وقتلهم جميعا، وهو يردد: من يخون ملكه يخون الآخرين.

في هذه المرحلة العصيبة الجديدة من التاريخ ازداد الملك الأصفر غضب، وصار غشوما، عظيم البطش، سفاكا للدماء، وفرض جزية عالية على الناس، إلا أن في قصره كانت ابنته التي تختلف عن طبائع وسلوك أبيها، وكانت تشمئز من تلك السلطة القمعية التي يفرضها على عامة الناس فكان اسمها شيرين حسناء في غاية الجمال، رقيقة القلب، صافية الروح، غالبا ما كانت تتأمل صفاء السماء من نافذة غرفتها، وتستغرق طويلا في ضوء القمر، وتغوص في حلم جميل فريد، وتصمت ساكنة في حلمها شغوفة به، مبهورة بضيائه، فهو في نظرها يبدد الظلام، وكم كان يعجبها أن ترى القمر يخرج بنوره من غمام أو سحاب عابر، فيلوح لها شعاعه باهر خلاق يهتز في عينيها، وينزل إلى حجرها، دائما كان القمر يأخذها إلى حلمها، خاصة وقد أصبحت ثمرة ناعمة، هادئة بارعة الجمال، بل ساحرة بجمالها الطاغي تهيم مثل طائر متوخية أن ترى وجه الشاب الوسيم الجذاب الذي ظهر لها في القمر.

وغالبا ما كانت تتابع القمر وهو يغير شكله، ويمر بمراحله، ونموه من هلال مثل زورق عنبر إلى امتلائه بدرا، ثم تنتظر حين يغيب في ليلة السرار، وتظل تنتظر حين يظهر من جديد، عندئذ تتنفس عميقا، وترى صورة الوجه الذي صار لها حبيبا دون أن تدري، وتظل تحلم به. أحيانا كانت تسقط السحب من نظرها، ويسقط الليل هشا، وتسقط أيضا الأنغام العذبة الرقيقة الوديعة التي تخفق في قلبها ، لذلك كانت تذرف الدموع، وتمسحها بمنديلها الأبيض الذي طرزته بزهور حمراء، لأنها

أحست بنفسها أنها ثمرة دانية للحبيب أن يأتي ويقطفها من غريزتها الأنثوية المندفعة المحاصرة في سجنها القصر.

في صباح ذات يوم دبار من أيام الربيع كانت الأرض خضراء حيث نفثت البراعم في تفتقها المبكر أنسام الصباح لتزهو النفس ببشائر الشروق عابرة الشفق الأحمر بنور يهبط ببطء على بعشيقة التي ربما يعكر صفو سكونها صياح الديكة، ثم تسقط أشعة الشمس الباهتة على السطوح، وتتسلل أيضا ببطء من أعلا إلى عتبات البيوت، ومن قمم الأشجار إلى جذوعها، وتتلاشى قطرات الندى من تعلقها بأوراقها وتتساقط بترو، إذ في هذا الصباح المشبع بروائح الزهور التي تفوح من نفسها، وهي تروح وتجيء لتقطف الزهور من سيقانها، فها هي تزكي نفسها، وتقويها بعيدا عن أجواء سلطة الأب مندمجة بعالم آخر فيه الرقة والحلم، بل لتدخل عالما خاصا بسحر جمالها، ليس فقط في خضرة مشبعة بالمياه، ولا عبير الأرض، ولا الألوان اللطيفة، ولا حتى معالم النهار الباهي المنير المتناغم مع سجع الطيور، وزقزقة العصافير، وخرير سواقي مياه منحدرة من ينابيعها لتروي الحقول والبساتين ... لا ... ليس كل هذا، ولا تنفس نسمة عذبة ناعمة من هواء أو الندى ينفض نفسه من أغصانه، ولا حتى النباتات الوسنى في حفيفها الخافت أو الدروب المشبعة بالرطوبة، فوقفت منذهلة مندهشة ليس بعيدا عن قصرها، وهي تمسك باقة زهور، وتنظر إلى طائر فضي لم تر مثله على الاطلاق وهو يصفق بجناحيه ويسجع سجع الحمام المطوق باللون الأحمر: شي ... شي ... شي ... ثم لم تمض لحظات وإذا أصوات عذبة من أعشاش الطيور تتعالى كما لو أن العالم بأسره يزغرد ويهلهل ويغرد في نغمة تناجي

نغمة، وعلى حين غرة انبثق صوت من من تحت شجرة صنوبر ضخمة، حينئذ رفرف الطائر الفضي، واختفى بين ذرى الأشجار، وساد صمت عميق، فاستدارت شيرين وإذا بها ترى معجزة الزمان حيث نفس الوجه الذي رأته في القمر والحلم، فاطرق رأسه استحياء لها، ولم ينبس ببنت شفة بينما راحت شيرين تتفحص مسحة من جماله فيه البهاء والضياء وعبق الرائحة إلا أن وقفته تجمع بين العزم والمحاسن، وظلت لحظات تبصره، وتنظر إليه، وكانت نفسها تميل إليه وتلائمه، تلك لم تكن فطنة منها، وقد استغرقت في النظر لتلتقط حقيقته، عندئذ سألته بكلام عذب رقيق:

- أنت تحاكي الطيور ؟!

فأجاب دون أن يرفع رأسه إلى السماء التي صار قرص الشمس في أعلى ارتفاع، وترسل أشعتها فوقهما كي تبارك هذا اللقاء البهيج بجلالة النور وعظمته:

- نعم ...

عندئذ صارت شيرين تنقل نظرها إلى أعشاش الطيور التي راحت أشعة الشمس تدفئها وتضمها بحنان، وهي تسأله بخفوت:

- ما أسمك ... ؟!

فرفع عينيه إليها، والتقت عيونهما ببريق سرور ونهم إذ كل شيء كان يتألق ويتلألأ في هذه اللحظة بالذات حتى صارت ظلال الأشجار تغطيهما فأخرجت منديلا مطرزا من جيب

فستانها الأنيق الأصفر، ومسحت العرق الذي راح يتصبب من جبينها، ويضم عبق أنفاسها كأنها أرادت أن ترسم صورتها فيه، ثم مدت يدها وقدمت المنديل إليه، فتناوله من يدها، وهو يتفوه بأحلى كلمة :

- محمد ...

بينما كان قلب شيرين المرهف، المرتعش فرحا يدعوها أن تقول:

- أنا أسمي شيرين ...

ثم استدارت ومشت ببطء تاركة محمد يشيعها بنظراته وقد ثبت قدميه في الأرض كالوتد، وهي قد أعلنت عن حلمها الذي ضمرته وكتمته في قلبها، وتحوكه الآن بنفسها، وفي تلك الأثناء كانت ترمي بصرها في جميع الاتجاهات دون أن تبالي من قد يكون أمامها بعد هذا اللقاء الذي أوغل في النظر.

فكانت شيرين تلتقي خلسة مع محمد حتى صارت تستأنس بقربه، وتستوحش لبعده، وذات يوم أدخلته من باب الحريم ليقابل أمها المتضامنة مع حبها في غليان البهجة العارمة، وإذا بالملك الأصفر يفاجئهم غاضبا متوعدا مهددا، ثم وجه كلامه إلى محمد:

- إني أدعوك إلى النزال.

فضحك محمد مما أثار إستغراب الأصفر، وهو يسأله:

- مم تضحك ؟!

فأجاب محمد بصوت خافت:

ـ لا أحب أن أقتلك.

فرد عليه الأصفر:

ـ أنا أحب أن أقتلك.

في صباح مشرق نادى منادٍ بأعلى صوته وهو يدق على الطبل:

ـ مبارزة، مبارزة، مبارزة.

حينئذ هرع أهل بعشيقة إلى الميدان تاركين أعمالهم، ولم تمض فترة قصيرة حتى لاح لهم الأصفر بين صفوف حراسه بكل سلاحه وعليه الحلل متنكبا فرسه الأبيض الذي عليه قطيفة من ديباج، ودعا مرددا:

ـ هل من مبارز ؟

فخرج له محمد من بين الجماهير المدهوشة يختال في مشيته متبخترا نحو الأصفر، متقلدا سيفه، يحمل درعه، وقد عصب رأسه بعصابة حمراء، وشد منديل شيرين في معصم يده، عندئذ اقتحم الأصفر على فرسه ثم أقبل على محمد، وهو يقول:

ـ ما لك، ادن مني !

فاستل محمد سيفه من غمده، ودنا منه، وكذلك اخترط الأصفر سيفه، وهزه، ثم حمل على محمد، وضربه، فاتقاها

بدرعه، فتنازلا وتجاولا فترة طويلة، واختلفا في ضربات، فلابد أن يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يقتل أحدهما، إذ كان هذا تقليد المبارزة آنذاك، عندئذ ضرب الأصفر محمد فجرحه بيده، وقد انتهز محمد لحظة فرحه فضربه في عنقه فوقع الأصفر مخضبا بدمه دون أن يستوي قائما، فتركه ينوء، عندئذ هجم حراس الأصفر على محمد وهو يدافع عن نفسه بشدة وضراوة، وقد اتكأ على الصخرة المقدسة في الميدان التي كانت (نيشان) رمز مقدس عند الأيزيدين، فثار أهل بعشيقة وقد أجلبوا وصاحوا واختلطت أصواتهم، فحملوا حملة رجل واحد بالعصي والمناجل والمساحي والفُئوس والحجارة على الحراس، يضربونهم حتى اضطربت صفوفهم، وانكشف بعضهم منهزمين لا يلوون على شيء، وقد وضع أهل بعشيقة حدا لغطرستهم وظلمهم، فأجهزوا عليهم وانطلقوا يتبعونهم، وهم يرددون:

- الآن حمى الوطيس.

ثم هجموا على كتائب الأصفر التي ولت منهزمة شدة هزيمة لا تنتهي هزيمتها دون الجبال، ولا يلوى أحد منهم على أحد، فأدركوا بعض من انهزم، فاشتدوا عليهم من كل جانب حتى ولى بعضهم هاربين مثل النعام، وقد تفرقت أوصال بعضهم من الرعب فارين من غير قتال، أجل فروا من الموت والقتل. لقد ثار الشعب، وكانت هذه بذرة نموذج أول ثورة ضد الظلم في كردستان.

كانت شيرين في قصرها يومئذ تمسك قارورة السم تارة تقربها إلى شفتيها وتارة أخرى يتملكها الصبر كي تتفادى الموت الذي تدعوها نفسها إليه، إذ كانت تلك لحظات قاسية

عليها، أتحزن لمقتل الأب الفاتك الذي ركب طرق الظلم وابتلت به بعشيقة أم على مقتل الحبيب ؟! كانت وحدها تفيض عيناها من الدمع حزنا، ثم سمعت صراخ فرح، وأهازيج نصر وهلاهل نسوة عندئذ أدركت أن المساحي التي نطفت دما، والمناجل التي تقطرت دما رفعت إلى أعلى، رفعت طينة الكرم، وسلالة المجد، فبها نال أهل بعشيقة حريتهم، وبها ستشيد حياة جديدة جميلة لا ظلم فيها. هكذا في ذلك اليوم المشهود برق وجهها من السرور، وزينت شيرين بأحلى زينة، وزفت إلى محمد الذي نشر العدل والمساواة، وعم الخير والرفاه في بعشيقة، وكان مولى الزهد والصدق والخير لذلك سمي الولي الصالح. يومئذ رقص أهل بعشيقة رقصة ـ كوفند ـ الخالدة فرحين وقد تحرروا من شر الحاكم الظالم، وقد ترقرقت دموع كبار السن من السرور حتى أخضلت لحاهم، فلم يبق من محمد إلا أن يقول لشيرين:

ـ ناوليني يدك.

فناولته يدها وهي في فستان الزفاف الأبيض، وراحا يرقصان مع الشعب ـ كوفند ـ الخالدة.

هذه بعشيقة الآن التوأم الحقيقي لبحزاني سواء كانت في التاريخ أم في العادات والتقاليد أم في كثرة بساتين الزيتون أم في تعدد ينابيع المياه العذبة أم في كثرة المزارات بينما الجبل نفسه يحتضن ألفتهما ، فهو جبل بعشيقة وبحزاني. هذه بعشيقة دار السلام التي تهللت فيها أسارير وجوه الأيزيدي والمسيحي والمسلم بفضائل التآخي والتفاهم والتكاتف والتضامن والتعاون من أجل عالم جميل.

وها هي صغار النجوم تنهزم مغادرة، ولم يبق منها إلا أحسنها وأضوؤها وأكبرها، وكانت حشود هائلة تطوف حول مزار الشيخ محمد حنيفة فرحة مبتهجة مع أنغام القوالين على الدفوف والمزامير، وهي بهذا الطواف تقدم تقديرها إلى الولي الصالح، ثم بانت تباشير الصباح في ضياء في هذا الربيع الذي يتفتح فيه النبات وتزهر الأشجار وتورق النباتات ويهيج الحيوان للسفاد وتسيل الأودية بالمياه، إنه ربيع الطوافات المستنير الذي يردد فيه الجميع: (أتاك النور ينير بالنور، فالزمان متعطر والطائر نشوان، والنفس الانسانية متهللة بالأفراح)، فهذه بعشيقة التي أرضها وشي خصب ونسيمها معطر وماءها راح وطيورها قان لها طوافتها الخاصة المميزة. هذا اليوم الذي يحتضن بعشيقة بسرور، ويفيض براءة وخضرة، ويضم روض زهور تغرد فيها طيور، وأرواح طيبة تستنشق نسيما باردا يحمل روائح بهيجة، إذ لم تبق نبتة في أرجاء بعشيقة إلا وفاحت في شروق، فكانت بعشيقة في هذا اليوم الصالح يوم الجمعة الذي أعقب رأس السنة نسخة من رياحين وسرور فيه سجع بلابل وأنغام أوتار.

فها هي هنار المتألقة الأنيقة بثوبها الأبيض وبحليها وزينتها، الرائعة الجمال مثل لؤلؤة بيضاء تقف وسط حشد هائل من النساء المتزينات في أروع الحلل والقلائد والأسوار، والملابس الرائعة، كانت هنار تمسك يد صديقتها أخت الآخرة التي كانت في ضيافتها، وأكلت معها عشية الطوافة السماط الطعام اللذيذ الشهي الذي طبخ داخل المزار من قبل (مجيور) المزار وخدمة (كاريه)، وكذلك أكلت من السفرة (السفخة) التي قدمتها العوائل بعد أن تم إزالة الأغلفة عنها التي هي من

القماش المخملي الملون يطلق عليه (الجنانكي) ، ثم ساهمت في الطقوس الدينية داخل مزار محمد التي امتدت إلى مطلع الفجر، وقد وجدت فرصة أن تكشف لأخت الآخرة سر الحب الأعظم، هذه أخت الآخرة السخية الكريمة مثل أهلها البعشيقيين الذين يمتازون بالكرم والسخاء وحسن الضيافة، لكن هنار كانت متحفزة متوفزة، إذ لا تقدر أن تهدأ شعلة الحب المتأججة في داخلها، وهي تراقب ميرزا بين الصبايا والنساء والرجال والصبيان يرقصون بغبطة غامرة على أنغام عزف القوالين بنفخ الناي والنقر على الدفوف، ثم فجأة توقف العزف، وتوقف الرقص حينئذ أعلن بصوت جهوري عن رقصة ـ كوفند ـ التي فيها يحق للرجل أن يطلب أي فتاة لهذه الرقصة دون أن تعترض، فاندفع ميرزا سريعا إلى هنار ليتفادى أن يطلبها شخص آخر، فضحكت هنار، وهي تقول:

ـ تخاف ... يطلبني غيرك !

فأجاب دون تردد:

ـ لا ... أريد أن أرقص رقصة خالدة معك.

ولم تمض لحظات فتشكلت حلقة رقص طويلة مقوسة، ثم بدأ العزف، وتعالى صراخ الراقصين فرحا، وهم يدقون الأرض بأقدامهم، على أنغام الموسيقى التي صارت تدوي وتلهب الراقصين حماسا لا مثيل له، وأقدامهم تنتقل برشاقة فريدة واتساق متناسق مع صوت الناي ودوي الطبل المرتفعين اللذين يسيران حركة إيقاع الأقدام التي تنتقل مثل موج هادر من حركة إلى حركة ، وتدفع الراقصين ليسيروا على شكل قوس،

كانت الأقدام تدق بعنف الأرض، ويد تمسك يدا، وكتف يلامس كتفا، فشعر ميرزا وهو في ذروة حماسه أن هنار تنظر وقد تملكها فرح لا مثيل له، وهو ينظر إلى وقع قدميها، وهي تنظر أيضا إلى وقع قدميه وقد أحمر وجهها وتصبب عرقا، كانت حركة حلقة الرقص مدهشة بانتظامها واتساقها، وكانت تشجع الراقصين تلك الأهازيج والهلاهيل الآتية من حشود النسوة، فصار الحماس يأخذ بالراقصين لتندفع من أفواههم كلمة: (يعيش) إذ صار أحدهم يشجع الآخر كما لو أنهم أرادوا أن يشقوا الأرض أو أن يقفزوا إلى السماء، وصارت الأجساد ترتفع وتنحني وتميل كأنها أمواج طوفان، وكان يقود الرقصة رجل مسن وهو يمسك بيده منديلا أحمر يهزه في الهواء، وذراعه تارة تنخفض وتارة ترتفع كما لو أنه قائد اوركسترا. آنئذ وقف العزف، وأعلن عن نهاية الرقصة، فشرع هنار وميرزا يندمجان سوية مع مهرجانات عيد الطوافة، وهما يشعران بأنهما في أزهى سعادة بينما كانت أخت الآخرة تنظر إليهما بفرح غامر، وهي تردد مع نفسها:

- عسى أن يتوج هذا الحب بالزواج !

الفصل الثاني عشر

النحلة الذهبية

هذه الحكاية رحلة إلى كل زمان، ليست بعيدة عن ذاكرة أهل بحزاني التي أوشكت أن تكون أسطورة هذا الزمان. الحكاية مضنية اهتم بها الناس كثيرا ليست لأنها تنتهي بالموت فقط، بل لأنها أيضا تخص مشيئة القدر، لذلك اهتم الناس بها كثيرا بقدر ما هي تخص اليوم تندمج أيضا مع زمان الماضي، وقد تتجاوز عصرنا أو تنصهر عفويا برمزها في موطن الحكايات ـ بحزاني ـ إذ ظهرت الحكاية نادرة فريدة، عجيبة وغريبة، تارة تختفي في عهد التدهور وتارة أخرى تظهر في عهد الازدهار الذي نادرا ما ينبعث، إذن منذ عصور سحيقة ظهرت الحكاية، وقد اندثرت أكثر تفاصيلها أو ربما نسيت في أحداث التاريخ المؤلمة. هذه الحكاية تظهر وتختفي، وتبدأ بالحشرة الوحشية التي مرة نسبت إلى جرادة صفراء، ومرة إلى حشرة غيبية لا وجه لها، لا يسمع طنينها ولا يرى شكلها غير أن الحكاية ظلت تتداولها الالسن عبر القرون بيد أن الحشرة الوحشية تشبه النحلة أو أنها هي نفسها النحلة الذهبية، وهذا الرأي أقرب إلى الصواب بحقائق الدلائل التي تؤكد أن ليست هناك حشرة وحشية غيبية، وأن بحزاني لم تشهد غزو الجراد ليلتهم محصولها كي تؤرخ ضمن أحداث القرية، وحتى لو ظهرت هذه الآفة الصفراء فإن طيور بحزاني سوف تلتهمها، فهذه النحلة الذهبية لها حاسة شم قوية، وتفوق بصر حجمها وفاعليتها ولونها وسرعة طيرانها عن أقرانها النحل أما ما يخص تكوين جسمها فهو لا يختلف عن بقية النحل سواء في الرأس والصدر والبطن، فلها أيضا زوجان من الأجنحة التي قد

تكون لامعة ذهبية أو ذهبية فقط، وهي بخمسة أعين، وتتغذى على رحيق الزهور وحبوب الطلع أي الطل الحلو والرطوبات التي تجمعها من الأزهار في سلال خاصة في أرجلها الخلفية، وأكثر ما تتميز به وهذه صفة خاصة بها أنها أبدا لا تقصد أزهار متنوعة في نفس الوقت بل تقصد زهرة واحدة وترتوي منها أي لا تقعد على زهر واحد في نفس الوقت، إنها تأبى ذلك، فإنها تعاود بعد أن تغادر الزهرة الأولى، وتفرغ رحيقها في خليتها الشمعية إلى زهرة أخرى، هكذا تصنع الخلية وتبني أعجب مبنى في الشكل والرونق والدقة الذي يصعب هدمه واختراقه، وإذا دنا منه جسم غريب، فتخرجه ببراعة، إذ لم تقبل بتطفل الأجسام الغريبة في بيتها، هذا وهي تشرب الماء النقي الصافي الرقراق، وتبحث عنه حتى لو تطلب ذلك رحلة طويلة إليه، ولا تقترب الدنس وتتنزه عن القاذورات، وإنها لا تأكل من كسب غيرها ثم أن لها طبيعة في التجديد أي أنها تجدد كما تسلخ الحيات جلدها، وتطرب لحسن وطيب الصوت، والضرب الأنيق على آلات الغناء، ولها شغف عجيب بالألحان، وحينما تتآلف مع النغم ينتابها فرح لا مثيل له، فتصفق وترقص كأنها مطبوعة على النغم، وغالبا ما كانت تعتزل وحدها لتتمتع بالأصوات العذبة، وتطلق همهمة وهي لم تتمالك نفسها كما لو قد أغمي عليها، ثم تثوب إلى رشدها بعد ما أصابها، حينئذ تطير جذلة مسرورة، وهذا ما يحدث لها في فصل الربيع الذي هو أجود لها من الخريف، وهي ذات صبر طويل في بناء خليتها التي تنام فيها، ترتعش فوقها، وتتألم ألمها لتقدم منتجها ـ العسل ـ كفضيلة، إكرام وثناء التي توحي به إلى البشر كم هو مذهل إن أراده المرء أن يكون شرابا أو طعاما، ويحفظه شهدة أو رضاب.

لكن هي غيورة خاصة إذا ظهرت أنثى بشرية تفوق جميع زهورها برحيق جسدها، وإذا كانت فائقة الجمال، وإذا وقعت في حب راعي، هذا الحب الذي يطلق عليه الحب العظيم الذي لا يعرف المهادنة أو الخمود ويكون رمز للبشر مثل شعلة لا تنطفئ أو أجنحة تخفق في القلب، وهذا هو الحب الخالد البريء الطاهر النقي الصافي وغير المعتاد. إذن هو حب سحري مرهف ناعم وجميل إلا خطر أحيانا، وأحيانا يتوج بمأساة، خاصة ما دامت الحشرة الوحشية تترصده، وتحاول أن تنال منه، ويكون في أشده إذا نما هذا الحب منذ وقت الطفولة، آنذاك لم يكونا يعلمان ماذا يعني الحب الحقيقي الذي هو سمو وعظمة وقدسية لا يقبل التغير ولا التبديل ولا التعويض ولا يمحى من القلب، أنه الحب الواحد إذا ضاع تحطم كل شيء، وتحطمت حياة المحبوبة أو الحبيب.

فهذه النحلة الذهبية ذات فضيلة العسل تكون عدوانية شرسة حينما تتناول بلسانها المعقد الطويل حبوب الطلع في داخل الزهرة أو الثمرة الناضجة التي تنتج الخمر، وقد يكون نبت البهار الطيب الريح حيث له جعد فقاحة صفراء ينبت وقت الربيع المتميز بنوارة عبقه. لا أحد يدري بالضبط أي تلك الثمار الناضجة أو الزهر الذي ترتشف النحلة من نوارة العبق خمرها، عندئذ تصبح النحلة متوحشة مؤذية وقاتلة، وغالبا ما تفسد العسل بإفراغ سمها فيه، حينئذ يطردها النحل وهو يحس من خلال رائحتها بأنها سكرى، ويبعدها عن الخلية وتسيء سمعتها بين أقرانها النحل، وإذا عادت فإن النحل يحاربها، وقد يضطر إلى كسر رجليها كي لا تعاود إلى إفساد الخلية وتخريبها، وتدمر جهد آلاف النحل. ولا يسح لها بالعودة إلا عندما تنظف

نفسها من رائحة الخمر والذي قد يطول إلى ثمانية وأربعين ساعة، ويضع النحل خلال هذه الفترة حراسا يراقبون عودتها وهم على استعداد لمقاتلتها مدافعين عن الخلية. نعم، إذ من مصادفات القدر المشؤوم الذي برزت في هذه الساعات ملكة الحب العذراء - هنار - أن النحلة طردت من الخلية، وإنها راحت تشم عطر هنار الذي يميزها عن رائحة الزهور أو لربما أن ميرزا قد أهدى جزءا من مسك الغزالة الفواح وصار ينتشر في الأرجاء فضرب وجه النحل عطرا ذكيا فأثار غيرتها، المهم راحت تجوب أرضا فأرضا وراء البيداء ومساقط الأنواء، وتفتش عن هنار مثلما تفتش عن رحيق الزهور، وقد انتابتها العدوانية المتوحشة. الآن، تطلب هنار حيث هي واقفة منتظرة عند شيخ وبكر في أطراف بحزاني وهي مزهوة بعطرها وجمالها وسط النسوة، وسط نشوة وفرح حيث النسوة يتبادلن النكات، غارقات في الضحك ، لاهيات بالأحاديث ، وهن يمسكن الأواني بغية حلب الحليب، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، وكانت حمرتها الغاربة غير مألوفة في مثل هذا اليوم، حمرة قلقة شاحبة كأنها قلق الكون كله بينما كان الراعي ميرزا يسوق قطيعه نازلا من الجبل مسرورا، يزين رأسه بتاج من الزهور البرية ذات الألوان الزاهية مندمجا مع روائحها الزكية، ومندمجا مع حمرة الغروب التي بدت له غريبة تلون السماء، وكذلك كان مندمجا مع أصوات الطيور العائدة إلى أعشاشها فوق هامات الأشجار وبين الغصون التي تتلوى رقيقة مطلقة أوراقها حفيفا ينسجم مع همس المياه في الجداول وبرك الوادي، وأنسام هذا الوقت بالذات، هذا الوقت ترقص فراشات ناعمة بمخمل أجنحتها ذات بقع الألوان المثيرة فوق عبائر الزهور البرية، وميرزا ما زال أسير سحر القبلة الأولى فهو لم يفق بعد

من طعمها الحلو. القبلة التي فيها إغراء للسعادة، وفيها شغف لامع يؤجج الروح في متعة أخاذة رائعة. كان يشعر بأنه خفيف منفصل عن دنياه، وهو يصرخ في قطيعه، ويصفر، إذ هناك عند شيخ وبكر تنتظره المحبوبة هنار، فصار مستعجلا ليراها كي تزهو نفسه زهوا شديدا.

وإذ هو يقترب من شيخ وبكر لاحت له هنار واقفة عليها ثياب ملونة مذهبة، وهي في زينتها الرائعة ذات جمال عظيم، تفترش على شفتيها ابتسامة ساحرة، وتنبعث من عينيها نظرة مثيرة فيها جاذبية مشعة، وقد التقت عيونهما بفرح كبير، وإن نظرة ميرزا قد ثبتت على وجهها المتورد بوجنتيها، فكم تملكتها رغبة أن يطبع قبلة على خدها وهو مأخوذا بزهوها الفريد الذي أرهبته صرخة انطلقت من فيها في لحظة غريبة جدا ، وهو لم يدرك ماذا جرى لها، فوقف في مكانه جامدا كالحجر، ورأى الإناء يسقط على الأرض من يدها الناعمة الصغيرة، التي ما لبثت أن وضعتها على عنقها، وجلست على الأرض، فهرع إليها النسوة مضطربات فزعات، فرمى ميرزا تاج الزهور عن رأسه، ويندفع إليها بين النسوة اللواتي راحن يذرفن الدموع، ويهززن رؤوسهن ببؤس شديد ، إذ أدركن المأساة، وأدركن أن النحلة الذهبية طلبت هنار، ووجدتها، فأنقضت عليها بلسعة خاطفة، وغرزت ابرتها بلدغة حاقدة، وصار سمها ينفذ إلى هنار، ثم فرت النحلة القاتلة بعد لسعتها، لتموت ليس بعيدا عن شيخ وبكر، فسميت أيضا القاتلة المقتولة. كانت هنار تفرك موضع اللدغة، فأزاح ميرزا يدها، وراح يتفحص عنقها الذي بدأ بالتورم، وتلون أحمرا ثم ارجوانيا ثم أزرق، عندئذ أدرك الجميع أن الأوان قد فات، ولاح ذلك لهم من تورم الشفتين،

وصار وجهها شاحبا متورما، وهي تحاول جهدا أن تأخذ نفسا عميقا، وصدرها يعلو وينخفض في لهاث كي تستنشق الهواء من منخريها، حاولت أن تنطق الكلمات، وأخيرا كشفت سر الحب العظيم أمام نسوة بحزاني اللواتي وقفن حائرات مذهولات فاغرات الأفواه، وهن يسمعن الاعتراف النبيل الطاهر:

- أنا أحبك يا ميرزا.

جلس ميرزا على ركبتيه باكيا بكاء طفل، وهو يضع يده على كتفها، وينظر إلى عينيها، والدموع تسيل على أنفه وخده، ثم طبع قبلة على خدها أشبه بقبلة أخيرة، وهو يقول بأسى، وصوت مخنوق:

- سأظل أحبك إلى الأبد يا هنار.

كان هذا أشبه بتعهد فرضه على نفسه أمام الملأ، وهو يضمها بين ذراعيه ناحبا، ثم حملها إلى البيت، وقد طوقت عنقه بذراعيها، ولم تفارق ميرزا نظرتها التي حملت آنذاك معانٍ كثيرة، وكانت النسوة يسرن خلف ميرزا باكيات وهن يرددن بصوت واحد:

- اللعنة على النحلة الذهبية.

تجمع أهل بحزاني قرب بيت هنار تاركين أعمالهم، ينتابهم أسى شديد، وهم يسمعون عويل الأم المنكوبة وصراخها الرهيب القاسي، وبكاء الأب الشديد على أبنته الوحيدة، وقد انتبهوا إلى خروج ميرزا من البيت وهو يتمايل في مشيته مرتعبا، ويشق طريقه بين المحتشدين بعيدا دون أن يعرف أحد

إلى أين يسير، وقد وقف جده والدهشة تملأ عينيه، وهو ينظر إليه بتعاطف شديد، ويهز رأسه ويشفق على ميرزا اليتيم، ويقول مع نفسه:

- سابقا فقدت ولدي، وها ئنذا أفقد حفيدي.

لقد أدرك الجد مقدار المحنة التي أصابته، وإنه سوف لن يتجاوزها بسهولة لأن روحه صافية مثل ماء ينبوع، خالصة مثل زيت زيتون، فهذا الموت الذي اختطف حبيبته لا تتحمله روحه النقية، لذلك لم يعترض انسحابه، إذ كل شيء تحطم في روحه، وأنهار من أساسه فلا جدوى أن يكلمه.

في الصباح عندما أشرقت الشمس كان جسد هنار مسجى على التبن في الغرفة، وقد انهمكت الشيخة بغسله برفق وهي تردد الدعاء، فيدها تصب الماء الفاتر عليه، ترافقها يد أخت الآخرة التي تمسك الصابون، وتروم به في كامل الجسد، والدموع تترقرق في عينيها، وصوت بكاء النساء في فسحة البيت يدق في رأسها عنيفا، فأرادت أن تكون هناك عودة مستحيلة إلى هنار في هذه اللحظات المريرة، وتنهض من موتها، فراحت أجفانها تتحرك بسرعة، وتتعلق الدموع بين رموشها ، فإذا بترنيمة حزينة انطلقت في داخلها - ترنيمة الصوت الخفي - لتلغي عظمة الصمت في الغرفة، آنئذ تشكلت لغة عجيبة بينها وبين هنار، لغة في صوت هنار الخفي قد أدركته أخت الآخرة، فارتبكت عيناها المقهورتان حيث لم تصدق أن هنار ميتة، وتغسل جسدها ، فالأمر لم يهن عليها، فهذا شيء غريب، غريب جدا، فما عليها إلا أن تصدق الموت، كل شيء أصبح غريبا، أنها ترى ابتسامة عذبة تخلب الألباب

ارتسمت على شفتيها، فلهنار القوة دائما أن تبتسم ابتسامة ناعمة تغمر وجهها كله الذي يملأه العنفوان، ثم رن صوتها الفريد المداعب المألوف:

- أنا أحبك يا أخت الآخرة.

فراحت أخت الآخرة تدفع الكلمات المختنقة في أعماقها بصوت منتحب:

- آه، يا أختي البريئة النبيلة ! جميلة أنت في الحياة ، وجميلة أنت في الموت !

زقت الشيخة الأذنين بمسك الغزالة البيضاء الذي جلبه جد ميرزا، وسلمه إلى والد هنار المضطرب الذي نزلت عليه مصيبة كبرى، والكلمات تنطلق متكسرة من فم الجد الكبير:

- عطرها يا ولدي بمسك الغزالة البيضاء !

ثم دست الشيخة في الأذنين قطعة قطن، وفعلت نفس الشيء في كافة فتحات الجسد، ثم فتت البرات، وفرشت ترابها على جبينها وعينيها ، ودست جزءا منه في فمها ، فأذت أخت الآخرة تلبسها القميص الأبيض الذي أهدته ذات يوم لهنار وقد أحبته هنار كثيرا، ثم البستها أفخر وأبهى ثياب وزينتها بالحلي، وغطت وجهها ببرقع أبيض، مالبثت الشيخة تعطرها بالمسك الذي راح يعبق في الغرفة رائحة زكية قوية، ونفدت إلى فسحة البيت التي في هذه اللحظة انتابت النسوة دهشة، وهن يتنشقن هذه الرائحة العجيبة التي تسللت إليهن، ثم فاضت في بحزاني يحملها الهواء بعيدا إلى بساتين الزيتون، وملاعب طفولة هنار

وميرزا، وقد ضربت وجوه المحتشدين قرب البيت التي صارت عيونهم مبهورة، وأفواههم فاغرة، عندئذ تكلم الجد الكبير:

ـ هذا المسك حصلنا عليه أنا وميرزا من الغزالة البيضاء.

لم ينبس أحد بكلمة، ولم يبد أحد حراكا من شدة الصدمة التي أوجعت قلوبهم بموت هنار المفاجئ، وقد تملكتهم رغبة عنيدة بإنهاضها من الموت، ليس لأنها بنت بحزاني، وليس لأنهم لم يشهدوا الموت، بل لأن هذا الموت لا يحدث إلا نادرا وبين عهود متفاوتة. فجأة تعالى النحيب والصراخ، وحدثت جلبة في البيت، وظهر الجثمان من الباب المفتوح على مصراعيه مسجى على خشب يشبه السرير (داربست)، يحمله أربعة رجال أقوياء، فتقدمه القوالون وهم ينشدون ترانيم حزينة، ويعزفون بآلاتهم الموسيقية، ويدقون عليها دقات خفيفة تتلاءم ووقع خطوات الرجال من كبار السن والشباب وهم يرتدون الثياب البيضاء، بعضهم يشد رأسه بكوفية حمراء، وآخر يعتمر عقالا أسودا رفيعا فوق كوفية بيضاء، فهذا بلحية بيضاء تنسدل على صدره، وذاك بلحية سوداء قصيرة، وآخر بشارب طويل مثل هلال يرتجف لشدة ألمه، لكن أغلب الشباب كانوا حاسري الرؤوس، وجوههم حزينة مطرقة رؤوسهم إلى الأرض، وهم يطلقون حسرات الفراق وما زال طيب رائحة المسك في انوفهم وافواههم، وقد صعدت إلى مقاليهم الدموع، وظلت معلقة بين الرموش، بعضهم كان يعد في نفسه حبات مسبحة سوداء طويلة، وقد وجد فيها ما يخفف وطأة محنة الموت، وهو يسمع طرطقة مسبحة ذات حبات كبيرة عن يمينه. سار الموكب الجنائزي الأثير المهيب إلى مقبرة العائلة خلف القرية التي تقع فوق تل صغير، وكان في طليعته الشيخ وعن يمينه الكوجك ـ

المستبصر - وعن يساره الجد الكبير الذي شعر أن شيئا في داخله قد أثاره، ثم انتفض، وكاد يتعثر، ويترنح، إلا أنه استجمع كل قواه، وأجبر نفسه على الصبر، وتابع السير، وهو يردد في داخله:

- ماذا يحدث لك الآن يا ميرزا ؟!

بينما كان الشيخ وهو من العائلة الشمسانية، وحافظ أسرار العالم الأيزيدي، ويؤثر فيه ، ويزرع في قلب مريديه أن الجسد فانٍ، وأن الروح خالدة لا تموت، يتفطر قلبه أسى على هذه الميتة، وهو يدعو في دنياه مريديه إلى السير على الطريق المستقيم، والاقتداء بما كل هو حسن وطيب، فالروح الصافية الطاهرة تتناسخ في طائر وديع أو إنسان نبيل محب للآخرين، وهو يدعوهم أيضا إلى تجنب الشر، وعمل الخير أما الفاضل العظيم المتنزه في الحياة فروحه ترتفع، وتبقى محلقة في الفضاء ليتجسد فيها الخلود اما الشرير فلا تستقر روحه إلا في كلب قذر أو حمار رذيل أو حيوان متوحش، آنئذ راح يتحدث مع نفسه وهو يطلق حسرة عميقة:

- هنار سيعود جسدها إلى التراب، وستصعد روحها إلى الأعالي، ثم ستعود، وتحل في روح طائر وديع أو إنسان فاضل خير، من يدري ؟! وقد تبقى محلقة في الفضاء صالحة مثل الأفاضل العظام لأنها غرة زمانها، وأصدق في حبها، حبها في القلب، أحبت في قلبها، فهي من الخالدين.

أما الكوجك الغارق في بياض ناصع، وهو بلحيته البيضاء الطويلة التي تتدلى وقارا على صدره، ويلتف حول

خصره حزام من قماش أحمر ذات حلقة معدنية كان يهمس مع نفسه:

ـ هنار أطلقت كلمات الاحتضار العظيمة (أنا أحبك يا ميرزا) فما أقدس وأسمى كلمة الحب !

ارتقى الرجال التل، وأحاطوا الجثمان الذي أنزله الشيخ إلى اللحد بجدرانه الأربعة إلى كرسي أعد مسبقا لذلك، وليحتضن الجثمان في الوداع الأخير الذي اتجه فيه وجه هنار نحو الشرق، ثم واروا الجثمان التراب، فوقف الجميع متسمرين في مكانهم صامتين، وقد اختفت السبحات في الجيوب خاصة قد تغلب عليهم إحساس بالرهبة والوقار، وتئن في داخلهم صرخة الفراق المخنوقة التي لا يمكن أن تنطلق في مثل هذه اللحظة بالذات لاسيما وقد بدأ الملقن بوضع يد على يد، وانطلقت الكلمات الأولى أشبه بدعاء السلام:

ـ يا الله أنت وحدك، وأنت الباقي يا حق يا رب العالمين .... هذا هو الطريق الحق للمريد، أنت الباقي ...الباقي ...

وفي تلك اللحظة المهيبة الجليلة التي يودع فيها الميت، وينتهي التلقين، إذ ما بقيت عين إلا سالت في وجع، وتصدع قلب، ولب الروح الأسى والأسف حينما تهيأ الرجال تقديم التعازي لوالد هنار الذي وقف وقد تغرغرت عيناه بالدموع، وهو يسمع كلمات الرثاء: (تجلد بالصبر في النازلة يا أبا هنار... ما من مفقود إلا وله فاقد ...لا يسلبك الجزع في الصبر يا أبا هنار، كلنا أخوة لك ... كن المعزي لا المعزى في الفاجعة... كرم مثوى هنار، لا تجزع يا أبا هنار، كلنا أخوتك).

اجل في تلك اللحظة الفريدة سمع الموعدون طنينا أشبه بالدوى فوق رؤوسهم، فدبت الرعشة في أوصالهم وهم ينظرون إلى حشود هائلة من النحل تدور على مستوى منخفض فوق المقبرة، فتملكهم الرعب، وازداد فيهم الهلع لهذا المشهد الغريب، وكادوا يفرون إلى القرية متفرقين علهم - يستطيعون أن يحموا العذراوات الجميلات غير أن الكوجك أوقفهم بصرخة عالية، وهو يقول:

- لا تخافوا إنها جاءت تواسينا، وتعلن براءتها عن النحلة الذهبية.

دار النحل أربع مرات فوق المقبرة وراح يطلق أزيزا أشبه بترنيم جنائزي، وراح يدخل وادي السنجق على شكل رتل طويل مما أدهش الجميع، وسكن روعهم. حينئذ انصرف الرجال إلى القرية يعضهم الوجع، ولم تمض فترة طويلة حتى جاءت النسوة بثيابهن البيضاء مسرعات باكيات ناحبات تتقدمهن الأم باكية مرتعبة تلطم خدها وصدرها، وقد تورمت عيناها من كثرة البكاء، ثم راحت تضم القبر بصدرها وبين ذراعيها وتصرخ فزعا حتى صار يتبلل بدموعها، فراح النسوة يهدئنها بعد أن ارتجت المقبرة بالبكاء، وأخذن يقصصن جدائلهن، ويضعنها على القبر التي سوف تلتحم بمرور الزمن مع القبر.

دام الحزن ثلاثة أيام فيها تزور النسوة القبر، وخلال هذه الأيام أقامت عائلة هنار ولائم تأبينية ضخمة حضرها وجهاء الأيزيدية الدينية والدنيوية، وذبحت المواشي، وقدمت المأكولات الكثيرة خاصة تلك التي أحبتها هنار، وكانت تنشد الأناشيد

الحزينة إكراما وتمجيدا لذكراها، ووزع أيضا الطعام على الفقراء والمحتاجين، وكان الكل ينتظر تصريح الكوجك المأثور، أهل بحزاني كانوا ينتظرون ما سيقوله الكوجك.

جلس الكوجك في الليل جوار قبر هنار وحيدا منعزلا تحت تلألىء النجوم اللامعة في السماء متجردا عن عالمه اليومي، ليسلب نفسه منه، إذ أراد أن لا يكون واحدا منه، ها هو يبذل الجهد في داخله ليعيش الصمت، ويفرغ نفسه من هموم الدنيا وآلامها، هو بمفرده يكافح لينفد إلى عالم آخر، فتغيرت نظرته، وتغيرت قسمات وجهه، وتصادم مع أشياء كثيرة في ذهنه، لابد أن يهزمها حتى يصل باندفاعه الروحاني إلى صفاء الروح، الآن بدأ يحس أن رعدة خفيفة بدأت تنتابه، فكان تارة يغمض عينيه وتارة يفتحهما، ويبصر النجوم، ويومئ برأسه إلا أنه لم ينطق بكلمة، وحافظ على صمته المهيب، واستغرق في تأمل بعيد كأن المعرفة تنطلق من داخله، ثم شعر أن أعماقه تهتز مضطربة لتشحذ ذاته وتنظيم في رؤية خاصة به، ذلك جعله يبذل جهدا استثنائيا كي يستخرج شيئا من داخله، ويتحرر من قيود الدنيا، ها هو يبلغ اللحظة الحاسمة لتتأطر روحه مع المجهول، ويبلغ الدرجة الأولى من غياب ذاته، ما لبث أن قطع تنفسه، وبقي ساكنا في جلسته، وأغمض عينيه، إذ لم تمر برهة دقيقة ، ففتحهما، وعلق عينيه بالنجوم، إذ كانت النجوم ما زالت في بريقها السماوي، ثم مرت عليه لحظة أخرى، وإذا به أصبح شاحبا، فطأطأ رأسه إلى القبر، وظل ينصت إلى داخله صامتا مع أعماقه، عل ـ تحدث المفاجأة المهمة التي تقوده إلى الدرجة الثانية، ولم تمر لحظة عابرة وإذا به يحس أنه قد تخطى الدرجة الثانية التي هي الاتحاد مع الغيب، ثم يسير إلى الدرجة الثالثة

دون توقف أو تعثر في طريقه الصعب التي تأخذه إلى نشوة كبيرة بها يؤكد لنفسه أنه يسير في الطريق المستقيم، فراح يكافح، ويصارع بكل قواه بغية الانتقال من ضجيج مكتوم داخل النفس إلى السكينة والهدوء، وقد نالها بجدارة تامة، وها هو يمر في الحالة القلقة التي قد ينقطع عنده الغياب بارتعاد العينين للدلالة على العبور إلى الدرجة الرابعة، هكذا أصبح وجهه جامدا قاسيا، غارقا في نفسه، يهيم بذهنه في عالم صار يقترب إليه رويدا رويدا، وهذه تتم بقوة التركيز التي تكون فيها نظرته غريبة جدا، ويبتعد عن نفسه ابتعادا عجيبا غامضا، لذلك اضطر للوقوف دون أن يشعر بنفسه إنه قد بلغ الدرجة الخامسة، عندئذ شعر بنفسه كما لو أنه يحلق في الفضاء أو أن ذراعيه ليستا جزءا منه، وهنا صعد إلى الدرجة السادسة، وتخطاها، وهو بهذه اللحظة التي مرقت مثل السهم قد أخذته أن يرتقي إلى الدرجة السابعة، وهي ذروة الغياب التي فيها يسمع، ويرى ما لا يسمعه ويراه الإنسان العادي، فسقط على الأرض، واحتضن القبر بذراعيه، فتناهى إليه صوت هنار العذب الذي طالما سمعه، ثم نهض وراح ينظر إلى السماء، وقد أوشكت النجوم أن تغيب، وعلى حين غرة ظهرت سحابة حمراء فوق رأسه، ثم لمع في وسطها نور مذهب. كان الكوجك ينظر مندهشا، وقد تلبسه شيء غريب، مسح عينيه بترو، وتمعن في النظر، وهو يرى هنار بردائها الأبيض متزينة رائعة وهي أجمل من أي وقت مضى تحلق في الفضاء بجناحين رقيقين شفافين شبه هلاميين، فصار الكوجك متعجبا، وقد استعجل العودة إلى القرية ليبلغهم بالنبأ أن هنار خالدة مثل الأفاضل العظام إلا أن جسده رفض أن يستجيب له، فلم يستطع أن يزحزح قدميه، ويجر قدميه، فلزم مكانه صامتا متعجبا. فجأة

نزلت السحابة لتعانق القبر، واختفت تاركة وراءها ظلاما دامسا، ثم سمع الكوجك رفرفة جناحين خلفه، فاستدار كي يرى، لم ير سوى الظلام الكالح يسطع فيه نور بهيج، ثم اختفى مثل رمشة عين، كل هذا جرى بلحظات سريعة مفاجئة، لم يدر إلى أين ينظر، فصار هذا الكون متميزا له، وصار له هذا الظهور أيضا متميز له، وقد راودته حينها ربما ـ تكون بشائر ظهور المهدي شرف الدين لينادي بالناس لكن باغته دمدمة رعد، وقصف بوميض برق، واستنزلت السماء مطرها، فردد الكوجك بسعادة:

ـ إنه الخير ...

قادته قدماه إلى القرية دون إرادته، وقد تبلل بالمطر، وشفتاه ترتجفان كأنهما تهمسان معه:

ـ هنار فاضلة صالحة ، خالدة في الفضاء ...

نشدت الأناشيد ومدح حب هنار العظيم، وقيلت فيها كلمات مجد، وقصائد مدح، وصارت ترانيم وأغاني تطبق مجدها الآفاق، وتداولت الألسن حكايات أسى الموت، وعن بعد بكتها عذراوات الأيزيديين، وشاعت الأخبار أن في اليوم الأول بعد دفنها وجدوا أزهار البنفسج تسيج قبرها، وفي اليوم الثاني وجدوا ريشا ناصع البياض يرفرف فوق قبرها، وفي اليوم الثالث وجدوا فسيلة زيتون تنمو بقربه، وفي اليوم الرابع وجدوا غزالة بيضاء تزوره وقد ترقرقت الدموع في عينيها، وفي اليوم الخامس وجدوا في المساء شموعا تشتعل وتضيء القبر، وفي اليوم السادس وجدوا أسرابا من فراشات زاهية الألوان ترفرف فوقه، وفي اليوم السابع صارت تسمع أناشيد الحزن في الفجر.

إذ من ذاك الحين تغير كل شيء، وتغيرت النظرة للحب والجمال، حتى أن الحب صار من سلالة هنار، وحتى الجمال صار من سلالة هذا الحب العظيم، وصارت العذراء الجميلة تشبه بجمال هنار. هكذا صارت حكاية ملكة الحب العذراء ـ هنار ـ أسطورة تجوب الآفاق.

لكن في هذا الوقت بالذات كان الكل يسأل:

ـ ماذا جرى لميرزا الحبيب ؟!

خرج ميرزا من القرية ، وقد ضاع عنده كل شيء، وتهدم وسط حطام، ثم تملكته الحاجة إلى الفرار، آنئذ وقف في مدخل وادي سنجق، وانتابته رغبة ملحة قوية أن يصرخ، لم يقدر أن يتخلص منها، فانطلقت مدوية حادة مرعبة من أعماقه:

ـ لماذا هنار أيها الموت ؟!

صارت الصرخة مدوية مخيفة لها صدى في الوادي، ثم انفجر باكيا وانهمرت الدموع الغزار من عينيه، فأحس بالاختناق وهو يجهش كما لو أنه أراد أن يموت من ذاته، ومن دنياه ليصل عبر الموت إلى هنار المخلصة. راح يهيم على وجهه في الجبال والوديان، وقد غاب عن نفسه، وسقط إحساسه في قلبه فكأنه فني عن كل شيء لأن هنار كانت تستضيء في قلبه. هذا الوجد كان في أعلى درجاته، هذا كمال الجمال كان في أعلى درجاته. ظل يهيم ويجوب حتى تعب، وغلبه النعاس، وكان الليل قد حل واشتد الظلام، فتمدد تحت جذع شجرة، فتهدلت أغصانها، وغطته، واستيقظ على لغة الحيوانات والطيور والمياه حتى اعتقد إنها تتحدث معه ولكنه لم يعلم أين

يسير، وظل يسير متواريا عن الأنظار متحاشيا بني البشر، ثم صار أياما يتنقل من مزار إلى مزار آخر وهو يقتات على بقايا فتات خبز من نذور أو يقتات على ثمار الأشجار البرية. أحيانا يقبع في غصون أشجار يتخذ منها فراشا له، فكل شيء فقد قيمته وبريقه، وأصبحت حياته لا معنى لها وبلا قيمة ترتجى، وكم من مرة انهار متهالكا خائر القوى يلتمس لنفسه ظلالا، فذات مرة سمع صوت هنار العذب، صوتها يجتذبه إليها حتى ارتعد قلبه، إنه صوتها يناديه وهو يهيج الشوق إليه، ويهيج في نفسه السرور، ويستثير حلمه إنها ستعود، فصوتها الوحيد الذي فتح قلبه، فإذا بها تظهر بين الأشجار وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامتها الأليفة، عندئذ اندفع متلهفا إليها، لم تكن هناك، فظل واقفا كالمذهول وتحتدم بواعثها في داخله إنها ستظهر من جديد، ذلك كان طيفها الذي يظهر ويختفي ، وحده يشعل نارا في قلبه. كان يجري ويجول، إذ ألح عليه بؤسه أن يجري ويلاحق طيفها، وكانت نظرة الاحتضار الأخيرة الوحيدة المشهودة إلى نفسه فلا التفات له إلا تلك النظرة سواء كانت في يقظة أم رؤيا في منام، قد تمر تلك النظرة لحظة في عينيه لحظة سريعة كالبرق الخاطف، فهو يثبت فيها ويدوم فيها ويضطرب تحت أعبائها اضطرابا تكاد تهلك أمام رؤيته كل المشاهد والصور، فنظرة هنار الأخيرة كانت متعبة لكنها متفحصة وجهه بقلق، فيها الرقة والصفاء، إذ لم تقع على وجهه نظرة من عين بشر أو حيوان أو طير يتوحد فيها التفحص والتعب والبراءة الصافية والود في آن واحد، إنها جمعت في آن واحد خطوطا عميقة مليئة بالاندهاش من الحياة والموت، خاصة في أول وهلتها ثم إنها صافية فيها الروع الذي تغلب عليه، وفيها وضوح الاحتضار والإثارة إلى دموعه التي تتأسى

على فراقها، لذلك سلك الفرار في لجة الاضطراب الذي الآن يهلك نفسه فيه، تلك النظرة التي كان لها لون نور خافت في عينيه عبر دموعه وألمه القاسي، تلك النظرة وحدت الوداع والرحيل والفراق.

إنه الآن منهك جدا، يشعر بالتعب الشديد الذي لم يلهمه شيئا سوى الموت الساحر كما لو أنه على مد النظر حين تضج روحه إلى الموت، ويقترب منه الذي ترك فيه أثرا لا يمحى، فها هو تائه في دروب مختلفة تقوده إلى طرق مختلفة ونهاية هذا الدرب تلاشت، والطرق أيضا تلاشت، إذ قدماه يسيران دون إرادته، وهو يقف حائرا لاسيما قد عاد إلى نفس البداية حيث لم يعد الزمان بالنسبة إليه يعني شيئا، ولم يعد يعني البرد أو الحر عنده شيئا، فالزمن لا يموت على الإطلاق حتى لو وصل على الدروب والطرق إلى نهاية العالم، وهو التائه تماما في الزمن، التائه في الموت، وقد استحوذ عليه ليس مصادفة بالتأكيد، وهو يستحيل عليه مقاومة الموت، إذ لا أحد يستطيع في كل الأحوال أن يصارع الموت، فقادته قدماه الهائمتان إلى مزار محمد رشان، تمدد ونام، ومر عليه حلم الرؤيا، فهذا والده يخرج برداء أبيض من دخان أبيض، وهو يمد يده ، ويقول بصوت حنين دافئ:

- تعال يا ولدي.

بغتة اختفى الدخان، وصار يحلم بمشهد عنيف دموي، إذ هؤلاء جنود يأخذون والده عنوة من بين ذراعيه التي كان يلفهما حول عنقه المثبتتين حوله، تركوه واقفا مذهولا، وهو ينظر إلى والده الذي راح يمد يده إليه، ويسمع صوته الواطئ البطيء:

- وداعا يا ولدي.

قيدوا يديه إلى خلف ظهره، وعصبوا عينيه بقطعة من قماش سوداء، وأوقفوه قرب جذع شجرة بلوط، تسمر والده في مكانه رافعا هامته إلى أعلى كمن يتحدى الموت أو كمن يتحدى طغيانهم وجبروتهم أما جنود الموت فاصطفوا، ورفعوا بنادقهم، ولم يسمع إلا أمر الموت: سدد ...نار ...

ثم لعلع رصاص القتلة، وسقط والده على الأرض، فهرع إليه مذعورا، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- أبي ...

ورمى نفسه على جسده منتحبا لتلتقي دموعه البيضاء بالدماء الحمراء، فلم يشعر إلا بأيدي الجنود الشرسة تسحبه بعنف، وتبعده عن جسده الغارق في الدماء، وكان رأسه إلى الوراء وهو يمد يده الصغيرة إليه، ويصرخ:

- أريد أبي.

نهض ميرزا من نومه مرتعبا، وقد هاجت دموع حارقة في عينيه، حينئذ أيقن أن الدموع كشفت له حقيقة - أن والده مات بطلا - وكان يتابع المشهد من خلال دموعه، مشهد غريب مفجع، وقد قربه أكثر إلى الموت، ذلك كان موتا عظيما، ذلك كان مجد وخلود، ثم دام الصمت عليه قبل أن يغط من جديد في النوم وهو يطلق الكلمات مع نفسه:

- مات والدي بطلا قبل أن تلدني أمي.

الآن يشعر ميرزا إنه وحيد في غربته حتى العالم المحيط به والذي هو جزء منه صار بالنسبة له غريب ولا يحس به، فلم يكن يعرف في أي مزار أو كهف أو مغارة نام ليلة أمس أو من أي عين ماء أطفأ ظمأه، وكانت تتراءى له أن الأشجار تحس بألمه، وتتوجع له، وأن الطيور أيضا تحس بألمه، وتتوجع له ، ولذلك كانت تطلق صرخات توجع، إذ كل العالم المحيط به يتوجع لتعاسته، فلم يدرك نفسه سوى إنه محطم في فراغ، وأنه يسعى في غربته لتدمير نفسه، وأحيانا يطول بقاءه في مكان لتزداد روحه القلقة ألما، فيصبح بقاؤه مرعبا، وصمته مخيفا، وكلما تمعن في المكان يجد حيزه فراغ فقط. ذات مرة نسى حذاءه مطروحا قرب ينبوع ماء، وراح يمشي حافيا ، فلم يتملك الشجاعة أن يرجع إلى الينبوع في نفس الوقت، بل أجل عودته إلى اليوم الآخر. كان أحيانا ينقاد بذكرياته إلى القبلة الأولى التي تستثيره، ويهيج الشوق إليها، فتسكن روحه وتهدأ ، فلا تتراءى له البهجة إلا في ذكرى تلك القبلة الأولى، وتمر ذكراها عابرة، وعندما وصل إلى جدول في وادٍ، تمدد فوق العشب، وبقي متمددا وقتا طويلا معتقدا أنه يموت بهدوء وبطء، كانت تلك لحظة لا تنسى، فيها نسى نفسه، وتحرر منها، وتراءت له القبلة الأولى بينما خرير الماء الرتيب يجرفه بعيدا، ولا توجد أجمل من تلك اللحظة التي تمنى فيها أن تجرفه المياه، أراد أن يرحل مع المياه خاصة وقد انتهى عنده كل شيء على الأرض، فلم تكن هناك أماكن منعزلة خفية في المنطقة إلا ووطأتها قدماه، فلم ير أحدا، ولم يره أحد، شعر أن روحه ممتلئة بالتعب حتى سئم نفسه لأن كل شيء انطفأ في داخله دون ضجة ، وكان يتأمل أوراق شجرة البلوط، شجرة البلوط تلك التي شهدت القبلة الأولى، ثم بصمت قاد نفسه من ضفة جدول الحياة إلى

ضفة جدول الموت على جسر الهواء، هنا قد وصل الانطفاء به حده الأقصى وهو يقطع جسر الهواء، آنئذ وصل إلى نهاية الحياة وأكمل عبور الجسر، وتمكن هو بالذات أن يصل ضفة الموت، فارتسمت ابتسامة على وجهه البريء الفتي الطاهر، وقد قصد بها حريته الحقيقية المطلقة من ألمه، وكان الجدول يستمر في جريانه، ولم يتوقف، وقد يستمر في جريانه إلى ما لانهاية، ولن يتوقف. بغتة وإذا به يرى هنار في ردائها الأبيض شفافة براقة وهي تمد له يدها الناعمة الصغيرة مثلما فعل والده في الحلم، وكانت الكلمات الرقيقة تخرج من فيها معبرة عن اختفاء الوجود في الموت:

- ما لا يطاق يا حبيبي أن تتألم عبر هذا الوجود، فأنت نبع بحزاني تسقي الشجر، وأنت المطر تسقي حتى الحجر.

تلك الكلمات كانت نقية مثل نغمة عذبة ذات قيمة، لربما - حدت من هروبه وعذابه وغربته، فنهض يضرب في الأرض، ولم يجد نفسه إلا وهو واقف بصمت ينظر إلى قبر هنار تحت شحوب القمر، وكانت لا زالت زهور البنفسج تسيج القبر، وأغصان شجرة الزيتون بجواره تمد نفسها كأنها تريد أن تفلت من جذعها وتحرر نفسها لتعانق القبر، فجثى باكيا، وقبل القبر الذي أحس بشفتيه أن ترابه لا يزال نديا، فراح يرويه بدموعه البيضاء مثل الندى الذي يتساقط من أوراقه لتعانقه الأرض، فجأة سمع صوتا حميما دافئا إلى نفسه يأتيه من الخلف:

- يا ولدي زهور البنفسج تخص الأحياء.

فاستدار ووثب من مكانه مثل الطفل، وتلقاه بين ذراعيه ناحبا، وهو يطبع القبل على خده ووجهه، ويردد:

- جدي ... جدي ...

ثم احنى رأسه على كتفه طيعا لرقته النبيلة، ولدموعه الصافية التي لم تعرف أن تتجمد في عينيه، ولم يعرف هو أن يمسحها، إنها فقط تسيل، وتبلل كتف جده، وهو يستمع إلى صوته الحنون صاحب الحكايات المذهلة:

- يا ولدي لا تزال روحك فتية مثل غصن غض رطيب، أريد لها أن تستكن، ولا تستكن إلا في معبد لالش.

الفصل الثالث عشر

سفر التكوين

هذا ذيل جبل مقلوب الساحر المسحور يبلغ أسطورته في دروب الليل الطويل التي يسير فيها ميرزا، فهذا بطله أو بالأحرى محاربه البحزاني القديم ينهض من أبديته عملاقا جبارا، ماردا خارقا، بعد أن استنفد صبره، فلم يعد يحكمه السكون في سقطة الموت، يغلفه التراب والحجر، بل انعتق من الصخر وخرج إلى نواميس الحياة، وتماثل لميرزا متجهما صارما لا يقهر، فاستولت على ميرزا رهبة الترائي، عندئذ استجمع قواه وسار وهو يتلفت إلى الوراء، فهذا المحارب القديم تحدثت عنه الأساطير، فهو لا يحب أبدا أن يغادر دياره، وإذا ما غادر لابد أن يتم ذلك بتبجيل، وإلا سوف يغضب الجبل، ويطارد الهارب بظلاله القاسية، ويلحق الأذى به، فهذا المحارب القديم قد عانى كل شيء، ورأى كل شيء، وبقي عنيدا متشبثا بالجبل، فها هو يتماثل في مخيلة ميرزا غاضبا مسحورا ساحرا، نهض وصارت قدماه تدمدمان وتطقطقان فوق الصخور التي راحت تتفتت وتتهشم وتنفلق منها أصوات مدوية مرعبة، وأخذت تهرع خلفه، إذ كل شيء تفجر وتناثر مثيرا فزعا لا مثيل له، لم ير ميرزا وجه المحارب القديم الخشن القاسي الذي يتغضن بخطوط عميقة، ولم ير نظرته التي تزرع الخوف في قلوب المعتدين، فلهذه النظرة قصص كثيرة تحدث عنها الأجداد، عندئذ صار ميرزا يكافح بروحه الغرة النقية كفاحا أيضا عنيدا لهذه الرؤية التي استحوذت على كيانه،

ليتخلص من تلك الأزمان السحيقة التي تتعالى منها أصوات تناديه:

ـ أرحل أيها المعذب !

لكن هذا المحارب البحزاني لم يتغن بمآسي الحروب أو بخنجر مسموم أو مآثر بطل، بل إنه تغنى بالحبيبة التي تنتظره على عتبة الباب، وعيناها تحدقان إلى الطريق، فهو يعرف أن للحروب نهاية، وإن قلبه لابد أن يظل يخفق لرؤية الحبيبة، وكان أحيانا يشكو آلام أيام الفراق الطويلة عن المحبوبة، وهو كذلك تغنى بالزهرة الجميلة، وتغريد طائر الحنين، وبقطرة الندى البيضاء الكبيرة المتساقطة في الصباح.

وفي لحظة خارقة جلس ميرزا في ظل شجرة بلوط حيث نسجه القمر في علوه بملاءة السماء الزرقاء لينسل الضوء في أوكار الظلام، وينير العالم، فبدى جبل مقلوب وكأنه من فضة حيث كانت الصخور تلقي بظلال باهتة، وكذلك الأشجار تلقي بظلال باهتة على الطريق الذي يسلكه ميرزا، لقد فاض نور القمر ليس في عيني ميرزا فقط بل تدفق النور أيضا إلى قلبه، فومضت الروح وتلونت وكأنها في رؤيا حالمة، فنهض ميرزا وسار في دروب الليل الطويل، تاركا رؤية المحارب القديم، المغامر الخطر، ذو القامة المعتدلة، والقوة الجسدية الهائلة التي بها يهز الجبل، وهو يتبختر في مشيته شامخا برأسه في فوضى المعارك الحاسمة في الأزمنة السحيقة، لذلك نسى ميرزا تصميم وجدية وتعالي المحارب القديم الذي لا يتكلم كثيرا، وغالبا ما يهز رأسه في علامة الرضى أو يبحلق في عينيه لمواجهة عيني

الخصم تعبيرا عن الرفض التام، فلتكن مبارزة الموت في ساحة الوغى.

سار ميرزا في رهبة غامضة مع ضوء القمر، يفيض في قلبه الفرح، ويتغنى ببياض القمر الذي أينما سار سار فوقه القمر، وقد سيطر عليه السكون والهدوء، وهو ينزل من الجبل ليمتد أمامه أفق شاسع من مزارع الحنطة والشعير، وكان يتجاوز القرى مبتعدا عن نباح الكلاب لتكون مخيلته مسكونة بالقمر، وهو يسير ساعات الليل الطويل بلا توقف، ليكتشف لغز قلبه الجامح وصفاء روحه الجبارة في حوار مفتوح رؤيوي مع هنار، شاهده القمر:

ميرزا:

تفاجئني حبيبتي هنار بفلق الصبح المنور، بالشقائق الحمر، من وراء أكمام أزهار، زهرة بيضاء تفاجئني، وقد خلعت قناع الموت، وخلعت أيام الانتظار، وأيام الفراق كأنها صدفة بحر بيضاء خارجة من أعماق، وكأنها طالعة من بستان قلبي، لتوقد نارا، أو طالعة من وكر الأبدية لتفرش جناحيها في ميلاد، فأدركت يومي، وأدركت النهار، وسائر الآفاق كأن حبيبتي فتقت غيمة رمادية في عراء، واستنزلت مطر الغيث في القفار، ولولا طلوعها لغشت دنياي في ظلام، وما تبلجت بأنوار، أو أرهبت الظلام، فأقبلت ترنو بخفة من بعيد، تلبسها الشمس شعاع، فرعاء غراء، وضاحة الجبين، يقودها الحب

ويقودني إليها رجع الصدى :حب ... حب ... وقد سجع الصدى: هذا ناموس الحب...لابد أن يأتي الهوى فياض الندى... تارة مثل النذير زائرا أو مثل السيل العارما، لا يدع في طريقه حجرا ... الهوى قد دنا، الهوى بدر إذا دنا، ونجم إذا هدى، وشهاب إذا هوى، رجع الصدى:هوى ... هوى ... هوى ... تفاجئني حبيبتي هنار ترنو بخفة مثل قضيب رطيب يذكيه الشذا، وقد تمايلت أعطافها مثل غيث على الطريق كأنها تارة في ريح، تارة في رعد، تارة في برق مضيء، أو كأنها تميل في حفيف مثل ورق نبت الربيع على الطريق، وقد تفردت بالجمال الأنيق على الطريق ... على الطريق ... على الطريق ...مثل درة بيضاء ترهب الظلام في ليل الدجى الكئيب، سليل الشعر فوق كتفيها، حسن ناعم وارد في ذؤابته، ينسل كأنه يلثم العنق الرشيق، وينحدر من مفارقه في ضوء النهار، تمشي في خفة حبيبتي على الطريق، ما بال صبية تنافسها من قريب أو من بعيد، أو جارية في قصر سلطان تنوح على حبيب قتيل، تمشي الخطى حبيبتي في عجل على الطريق الغريب كأنها مرة في كثيب أصفر، مرة في مطر غزير، تتباهى في مشيتها كأنها ظهرت من غلالة زرقاء وكأن الندى ينزل من أوراقه تكريما لها، في تبجيل، ويغني العندليب لها على الورد والياسمين، ويرقص البان الغض الرطيب،

تفاجئني حبيبتي، وقد انقضى وجه النهار الباهر، الزاخر بالضياء، والبهاء ... وجهها لا يغيب، تتفتق براعمها ... متألقة في روض نظير مثل الفرح في غدير، يديم إليها النظر من بعيد، براقة الثغر، وقد أشرقت الخدود في عجب، لا تشتكي من أثر، أو من سهر، وكلما تبسمت اكتمل الروح والبدن، وليس عجبا أن تكون الحب الجليل ولا عجبا أن وجهها الحبيب سواء كان من قريب أو بعيد، لا يغيب عن وجهي الحزين، وجهها الساحر الجميل لا يغيب، وكلما زدت إليه النظر، تارة أراه نور شمس، تارة مثل كوكب يسير، وتارة مثل بدر منير كأنه في تفضيل وجهها المنير، وجهها المضيء لا يغيب، أين مثله أطيب الطيب، يحمر الزهر الأبيض خجلا، ويستسقي من طيبها الطيب، ويستنزل الندى من أوراقه في المغيب.

هنار:

أنت ما أنت ألا ترى تعريشة الغروب، الشمس تحجب الدنيا عن لونها المنير، حمراء مذهبة تجنح للمغيب، ألم تر: فرشت السماء بالأنوار، فيها ما يملأ القلب صفاء، فيها ما يملأ العيون انبهار، تلك نجوم زينة السماء، صغيرة، كبيرة متناثرة مثل زمرد متناثرة، تستضاء في قبة زرقاء، ألم تر: في أول

بشائره ظهر، ضعيف، عليل، ضئيل ظهر، بين النجوم اللوامع ظهر، هلال يسبح كزورق عنبر، غرر يرمقنا بطرفه السليل كأنه بين النجوم ظل ظليل، روض مخضل بأكاليل.

ميرزا:

أريها القمر، هنار ترى القمر، كفاغر فاه تنظر إلى القمر، ويمتد البصر، إلى العلا يمتد البصر مثل امتداد بحر، في رونق يمتد البصر، أي ليل هذا فيه القمر. أقمر ، أضوأ من القمر، وجه حبيبتي القمر كأنه تندى بضوء القمر مثل حاجبها المهلل أينما مال مال القمر، تعجبت من نموه، يزهو هالة أو ثريا معلقة في الأعالي، كأن كف حبيبتي يغتسل بضوء القمر، كأن من كفها ينفض المطر، وكأن أناملها تندت بالقطر، فأحيت لطائف قلبي مثل حلم نور امتلأ بالزهر، وكم من مرة يظهر القمر، وكم من مرة هلكت عروش، وعهود، ويحيا بشر، ويموت بشر، والقمرهو القمر، تحت ليالي القمر، ويرحل، ويغيب القمر، ثم يظهر القمر، أي ليل هذا فيه القمر. أقمر، أضوأ من القمر، وجه هنار هو القمر، أأنظر إلى القمر وقد صار بدرا أم وجه هنار القمر، حارت عيناي من النظر، وجه هنار القمر. أقمر، أضوأ من القمر.

حينئذ خبت أضواء ملايين النجوم في السماء خجلا من هذا الحوار الروحاني الصامت في تجليات الليل، فصار كما هو القمر ملك الليل في بريقه المتوهج في عيني ميرزا كما لو أنه يسأله:

ـ إلى أين أنت ذاهب، يا ميرزا البريء العنيد ؟!

ـ إلى لالش النوراني.

ـ ماذا تجد هناك ؟!

ـ السكينة ...

ـ وهل تريد شيئا آخر ؟!

ـ لا ...

ـ ستجد في سفرك هذا المحدود الهدف أشياء كثيرة ...

ـ مثلا ...

ـ الطريق الكوني ...

وصل ميرزا إلى جبل مشت دون أن يمر بعين سفني في الهزيع الأخير من الليل بعد مسيرة في دروب الليل الطويل

المستقيمة أو الملتوية أو تلك التي جعلته يلتف ويدور وينعطف كي لا يراه البشر، وأخذ يرتقي صاعدا إلى أعلى، ويقف مذهولا عند قمة ــ سلافكة ــ تغمره رهبة جليلة لمنظر رائع يملأ قلبه الإعجاب في لحظة راهنة خاطفة، إذ من هذه النقطة التي تشرف على لالش رأى مشهدا حقيقيا ساحرا، فتسمر في مكانه خاشعا بصمته كما لو أن لالش كان مضموما بالأضواء، حيث كان ميرزا يرى آلاف الأنوار المتوهجة التي أضفت على وقفته المتأملة الساكنة مهابة عظيمة للاش، فالأنوار تبعث بريقها المتلألئ من أماكن كثيرة سواء من فوق تلك الصخور القريبة من المعبد أم فوق القناطر وقواعد الأبراج البيضاء المخروطية والطرق والممرات والسلالم والساحات المرصعة بالحجر أم من تحت المداخل المقوسة، أجل، الأنوار كانت تنبعث من فتائل قطن غاطسة أسافلها في أوعية صغيرة تمتلئ بزيت الزيتون، تسقي نفسها به، لتشتعل أعاليها، هكذا كانت تحرق نفسها كأنها غصن في تثنيها وكأن النيران تحييها، فتضفي محاسنها في الأنوار تهزم الظلمة، وتهزم حجاب الليل، وتضيء الوادي نورا، إذ لا تنفك أن تفني وقتها سهرا، وتقتل الظلماء القاسية، وتصير للزائر ميرزا ضوءا تهدي بصره إلى منظر الوادي الرائع، أجل، كانت الأنوار غرة زاهية، وادعة مرهفة، خاصة وقد بدأت الأنسام تحاكيها وتناجيها، فبدت تارة

صفراء مثل تاج مذهب لامع، وتارة تدور على قطب لهبها دون أن تطفئ نفسها، وطورا تصير مثل عيون حمراء تتلظى في لهيبها أو وردة حمراء مرهفة الأعطاف فوق غصنها المياد العاري من أوراقه، وآونة تتلاعب مع الأنسام فتتشكل أشكالا ما بين هلال وقمر ونجوم. هذا المنظر الساحر أدهش ميرزا ليدخل إلى عالم الأنوار ببطء ورهبة ولتتجلي روحه في شيء جديد لربما تاقت نفسه إليه في الغفوة الأبدية التي أخذت منه حبيبته هنار، فها هو يتمعن النظر بالأنوار في الوادي النائم في صمت بين جبل حزرت ومشت وعرفات، الوادي الهادئ في عزلته العجيبة عن عالم البشر، وقد تجلى لميرزا في هذه اللحظة الحاسمة التي فجرت معانٍ شاملة في نفسه ليس لكون الوادي في أبهى وأنقى أنوار فحسب، بل لأن الوادي في جدوى الرمز التعبدي والتأمل والأمان الروحي وطمأنينة النفس، لذلك نطق الكلمات:

ــ هذا لالش النوراني المقدس !

نعم، هذا لالش أصل الزاوية أو مكان الجسد أو الصمت أو السكوت أو خميرة الأرض والحياة أو سر الحياة كما فسر المؤرخون كلمة لالش. هذا لم يعرفه ميرزا، وكذلك لم يكن يعرف أن المؤرخين قالوا: أن لالش كانت قلعة آشورية، وكان

معبد ميترائي، وكان معبد زرادشتي، وكان دار القس مار حنا أحد أتباع حنا الأول. هذه الأشياء لم يكن يعرفها ميرزا، وإن ما يعرفه فقط أن لالش هو مكان حج الأيزيديين وهو موطن الشيخ آدي الأول، والشيخ آدي الثاني، وإنه موطن التصوف والزهد والتأمل والعزلة، وموطن اللاجيء من بطش دولة الاستبداد كما هو موطن ميرزا الفار من محنته، وإن بابه يستقبل نور الشمس.

انحنى ورفع حجرا ووضعه على النيشان الذي هو عبارة عن دائرة حجر لاسيما نقطة ـــ سلافكة ـــ دخلت التاريخ منذ أن وطأت قدم الأيزيدي لالش حيث هي رمز الوصول بسلام وإشارة الهدوء ولحظة الصمت الجليل وقد تكون نقطة الصلاة الأولى، فاعتادت قوافل الحجاج التي تحمل مؤونتها على ظهر الحيوانات أن تعلن وصولها سواء بزغردة قوية من فم عذراء أو هلاهيل نساء أو ترتفع بنادق إلى أعلى وتطلق عيارات نارية في الفضاء، فتأتيه لعلعة رصاص من الوادي ترحب بالحاج الكريم أو الزائر الجليل.

استجمع ميرزا قواه في لحظة خارقة، ونزل بترو، وقد أخذته الدهشة من نفسه أن يصل إلى العين البيضاء التي لم يصلها الطوفان، فبقيت صافية عذبة نقية بيضاء كما حدثه جده

عنها، وذات يوم سمع من هنار أن المياه جفت على الأرض، فأصاب الجفاف بحزاني وماتت مزروعاتها وهلكت مواشيها وأصاب أهلها العطش حتى الآبار نضبت من المياه، فتأثر إله الشمس ورق قلبه لما يعانيه شعبه، فرمى بسهم، فسقط على صخرة، وانغرس فيها، ما لبثت أن انفجرت الصخرة بمياه فوارة ملأت الدنيا خيرا وبركات، فعادت الخضرة إلى الأراضي، هكذا أنقذ إله الشمس شعبه من الجفاف، نعم بمياه العين البيضاء الصافية التي هي خميرة الحياة تعمد ميرزا فيها في طفولته، وأحس ببرودة منعشة آنذاك. لم يمض وقت طويل وإذا به يسمع خرير الماء أشبه بإيقاع نغمة بهيجة إلى نفسه، فكان قد شيد بناءا على منبعها، كانت مياهها تخرخر نازلة إلى الوادي، فتبع ساقيتها وتجاوز بركتها الثانية وتجاوز سوق المعرفة ليقف مواجها باب القابي، وقد لاحت تباشير الفجر على الوادي. نزع حذاءه ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا به يرى عطارد الكوكب الأول الذي اكتشفه السومريون والذي أطلق عليه البابليون الكوكب القافز، ثم صار عند الأغريق هرمز، وعند الرومان ميركوري، وعند الفرس هرمس، وعند الصينيين شين إلسينغ، وعند الهندوس بوذا، وفي حضارة الياما صار يشبه بالبومة أما عند العرب فكان هو طارد ومطرود أي المتتابع في سيره، فهو سريع الدوران حول الشمس، وهو

أقرب الكواكب إلى كوكب الأرض بعد المريخ والزهرة، وهو يشبه قمر الأرض في شكله، ويومه أطول من عامه. هذا عطارد يوم الأربعاء ويوم طاووس ملك ويوم الإله نابو البابلي إله الحق والعدالة وقدرته رمزها الصولجان وعدالته المطلقة رمزها الطوق. هو نابو واهب الحياة والنور والنظام على الأرض من خلال شرائعه للبشر وهو دائما يمسك بيمينه حية رمز الحكمة، هو نابو الذي يرعى الحنطة ويسقيها بينابيع المياه كي تكون وفيرة، لذلك تشبه به الملك العظيم نبوخذ نصر مرددا: أنا نابو يهب صولجان السلطان للملك ليحكم الأرض. فهذا عطارد، وأنه في قصة الخلق البابلية خلقت الأجرام السماوية في يوم الأربعاء، وعطارد إله الفلك. الآن عطارد شديد الإشعاع وكأنه يدنو من ميرزا ويقع عليه بسحابته النورانية ذات الشكل الهلالي بأذناب أو أذيال ساطعة أو كأنه أقبل نازلا بسحابة أعظم من الأولى بنورها أو مثل نجمة متلألئة تسقط من السماء، فأغمض عينيه ليغيب عطارد عنهما، ولم تمض لحظة انبهار التي بها فتح عينيه ليرى عطارد ينجلي عنه أسرع من طرفة عين، حينئذ توهجت في عينيه الصور المنقوشة على الباب: قرص الشمس المتوهج المنير واهب النور والحياة ومشتت الظلمات، وقد تداخل نجم وهلال في ليله وشمس نهار سواء في شروقها أم غروبها أي ختام كل ليل،

وفجر كل يوم، تلك كانت في حلقات وعقد لتماثل أيضا دلالة الكون وخلقه وأبراج الزمن وكواكبه في نقوش تجسد مصير العالم. وقد برزت حية سوداء ضخمة رافعة رأسها إلى أعلى، وكانت رمز حية الطوفان التي تغير جلدها مثلما يجدد القمر ظهوره المتكرر، والذي اعتقد في ذلك منذ زمن سحيق أنها لا تفنى، وإنها خالدة منذ أن كانت أيضا رمز الحمل والولادة، وهي التي سرقت عشبة الخلود من جلجامش لتجدد نفسها به، لكن ميرزا استغرق في صورة الكلبين المتقابلين المعقوفي الذيلين إلى أعلى، وهذا ما كان يفعله كلب هنار الأمين الوفي، وذات مرة حدثه جده عن الكلب: إنه أول حيوان تآلف مع الانسان واستأنس له وجذبه لحم الصيد المشوي، فتغذى منه، وصار رفيقا له يصاحبه في الصيد، ويرافقه في الرعي ليحمي الماشية من الحيوانات المفترسة التي أسهم الكلب في تدجينها، فكان يشعر الراعي بالطمأنينة وينام في الليالي المقمرة بحراسة الكلب، وهناك قديما إله اسمه هدهد، وكلب الجوزاء نجم معروف، والكلبان اسم نجمين يطلعان عند اشتداد البرد. غير أن قصة الكلب الوفي التي رواها له جده ظلت راسخة في ذهنه حيث ذات يوم حلق الراعي الصالح عاليا في الفضاء الواسع، هو راعي الكون، وراعي أطراف العالم الأربعة، وكانت الشمس تغشو عيني الكلب، وهو يودع راعيه رافعا

رأسه إلى قرص الشمس، رافعا وهازا ذيله، فلم يلبث أن نبح نباحا مدويا أشبه بعواء حزين، وذرفت دموعه، كان ذلك أول بكاء للكلب قبل أحد عشر ألف سنة حين أحس الكلب بألم الفراق، وأن راعيه يغيب في فصل الخريف، وظل الكلب يجوب الأرض بحثا عن صاحبه الذي لم يجده فصار يعارك الذئاب التي لم تدجن، ولم تدجن لأن الذئب لا يغير طبعه، وذات ربيع ناضر وجد صاحبه في لالش.

فجأة فتحت الباب على مصراعيها الذي قطع صريرها تذكره لقصة جده عن الكلب، فوقف وجها لوجه أمام الفقير الذي كان بلحية بيضاء تتدلى على صدره، وهو يرتدي زيا أسودا، تعتمر رأسه لفة سوداء، ويلتف حول خصره حزام أحمر من صوف إلا أن ما أدهش ميرزا هو الخرقة التعبدية التصوفية التي كان يرتديها والتي كانت أشبه بقميص أسود من صوف، صبغ من أوراق شجرة (الزركوش) بعد أن أذيب صبغها في ماء يفور غليانا، ونقع الصوف فيها، لتكون بهذا المظهر الجميل، لكنه لاحظ أيضا طوقا أحمرا من الخرقة يلتف حول رقبة الفقير، وتتدلى أكمام حمراء من القميص على يديه. التقت عيونهما بصمت لا مثيل له، وأحدهما يقرأ أعماق الآخر ويغوص في فهمها، فكان الفقير يبدو عليه الهرم المبكر، وهو متوسط القامة، نحيل البدن، أنور الوجه ممتلئا طيبة، وذو سمو جليل ورفعة هدوء، إذ يجتمع الذكاء والصبر في نظرته الغامضة التي ما لبثت تجول في وجه ميرزا لتكتشف العذاب

والحزن والتعب إلا أنها حلت لغز مسحة البراءة فيه، واستغرقت في الصمت الذي ساد بينهما برهة أن تعبر عن دلالة لالش أي أن يفرغ ميرزا نفسه من دنياه عند عتبة باب لالش، ويتجرد من ثقل الألم الذي جاء به مهزوما، ثم أرادت هذه النظرة أن يفرغ ميرزا من انفعاله تماما ويندمج مع عالم لالش الهاديء المنعزل في بحر نضارته وسعته وصفائه، عندئذ يستطيع ميرزا أن يدخل عالم لالش بتلك الروح الصافية، حينئذ أحس ميرزا كم هي هذه النظرة رقيقة متعاطفة مع روحه الوديعة، هكذا أدرك بالسرور والرضا لمجيئه، فتغيرت قسمات وجهه خاصة وقد ارتبطت ابتسامة الفقير بهزة رأس فريدة، ثم سمع بانتباه إلى كلمات ود نطق بها الفقير:

ـ أهلا بالزائر ميرزا.

فألجمه الترحيب في مكانه مذهولا، وهو يتأمل وجه الفقير الهادئ، فثبت ميرزا نظره إليه صامتا دون أن ينبس بكلمة، ثم حملق فيه متعجبا إذ راح يسأل نفسه: كيف استطاع أن يعرف بخبر مجيئه؟! وعلى حين غرة تلاشى هذا السؤال عن نفسه لأن نظرة الفقير الرقيقة الصافية الودودة جعلته ينسى هذا الأمر، فاستدار الفقير وخطا نحو الداخل ببطء، فتبعه ميرزا دون ألم وخوف وهو يدخل عالما جديدا فيه الصفاء والنور الخالص كي تنساب روحه المضطربة المشبعة بالحيرة إلى عزف رقيق جديد، هذا وقد اغرورقت عينا ميرزا بالدموع

دون أن يدرك سبب ذلك، وهو يتبع الفقير ويغوص في بداية هادئة إلى صعود أخر في دنياه. تلك كانت لحظة سعيدة أن يحس ميرزا أن روحه النقية تتلقف نشوة الوجود في نور صباح الشروق أي في لحظة سحر عجيبة وهو يدخل عالما جديدا. تبعه ميرزا إلى حافة جدول صافٍ ثم تركه الفقير بعد أن سلمه ثوبا أبيضا ناصعا في نظافته منتظرا أياه عند جسر الصراط. حينئذ نزع ميرزا ما كان يرتديه من ملابس، وغسلها في ماء الجدول ووضعها على الصخور لتجف بأشعة الشمس ثم اغتسل هو في الجدول ليتطهر جسده في عذوبة الماء البارد النقي. ثم بعدها ارتدى الثوب الأبيض المطوق عند العنق، وسار إلى جسر الصراط ليردد ما كان يقوله الفقير:

ــ أنا أيزيدي، ابن الشمس، ابن كل الأنوار، ثوبي ناصع البياض خال من الأوساخ، أبيض مثل القمر في جوف الليل، أسير في الصراط المستقيم على هدى الأولياء، أنا أيزيدي صادق، أمين في التوحيد على هدى سيدنا ابراهيم، اقتنع برغيف خبز وماء، لا أقتل الأفعى السوداء، لا اصطاد طائرا أو حيوان في وادي لالش مهما كان، لا أقطع غصنا من شجرة خضراء، لا أدنس المياه، لا أسرق، لا أكذب، لا أزني، لا ارتكب محرمات. أنا أيزيدي، لا أتفوه كلمات بذيئة أبدا، نفسي مؤدبة مثل قطرات الندى في الصباح. أنا أيزيدي، أدخل لالش كي أبلغ الكمال وأكون في غاية المثال.

الفصل الرابع عشر

الناي (الشبابة) المقدس

الآن ميرزا في منامه، يغط في نوم عميق، يغشيه ويغطيه حلم. حلمه هذا هو حلم الأيزيدي الأقدم الذي به وضع معتقداته وأسس مبادئه، فكانت مسيرته طويلة استطاع بها أن يصمد ويكافح القسوة والوحشية البشرية والظلوم، ويتغلب على الشرور في قصة عظيمة حيث مكانتها في التاريخ ملحمة شعب، ليبقى الأيزيدي، وتبقى الملحمة في ذاكرة العالم، فهذا ميرزا يحلم مثلما كان يحلم الأيزيدي الأقدم في غرفته بالطابق الثاني التي يشرف شباكها على جدول الوادي، ويطل بابها على ساحة المزار الرئيسية التي تتوسطها شجرة التوت المعمرة. هذا الحلم لا يحلم به الآخرون كما لو إنه انبثق خصيصا لميرزا، وكأنه جوهر العالم منذ البدء، فهو الأصل، وهو الهيولي الأثير، وهو مبدأ وكمال الخلق، فمن ظلمة كثيفة تمتد إلى خمسين ألف عام كان الإبداع الأول المحض، إذ في هذا الحلم كأن ميرزا يكتشف لوح الطلسم المفقود أو التمائم والأحاجي والألغاز أي أن العتمة هي في بحر الظلمة التي في الأعالي، بحر لا يبصر فيه نورا، وكان ميرزا إلى النور يشتاق، بحر لا ماء فيه، ولا زبدا أبيض، ولا أمواجا عاتية

تتلاطم فيه مثل صخب البحر الأرضي الرهيب المخيف، الظلمة محبوسة مضطربة في بحر الأعالي، ظلمة ليس لها حد، إذ هي شيء آخر في اللامنتهى، هي ظلام أسود محض كثيف لا يعرف أي ألوان، الظلام جاهل أعمى أشبه بهوية موت، فكان ميرزا يتلهف إلى النور في حلمه لأن النور فيض النجاة من ظلام البحر، فمن هذا البحر الأشد ظلاما لاحت في عينيه المغمضتين الحالمتين لؤلؤة بيضاء، وهي تقاوم وتصارع ضدها السواد، ثم كبرت متوجهة إلى الكمال والتمام لتكون الخلق الأول الأعظم، وتثب دوارة بوثبة ذات إنشقاق وإنفجار بفعل صرخة مدوية مما وراء اللامرئي أو وراء الظلام، فتناثرت منها أشعة ضياء، وهذا كان الخلق الأول، وهكذا كان يخلق العالم من جديد في حلم، وصار فيض النور أزلي قديم لا يزول، وكان أول جوهر لطيف صاف، حسن المظهر، كريم نافع، يجلب السرور، ومن فضل بركته كانت السماء والأرض، وكان الليل بقمر ونجوم وأفلاك، والنهار بعين شمس أو عجلة شمس، فمن ظلام محض انمسخ نور محض حقيقي وكل الأحياء، فكان التراب والهواء والنار والماء، وببركة النور المنزل من الأعالي أشرقت الأرض، وضاءت الآفاق، وبذلك كان الضياء والأخلاق والمكارم والمحاسن، فببركة نور الشمس البازغة الواحدة النورانية العلوية اللطيفة ذات الفضيلة

منها تقتبس الأنوار، ومنها يقتبس رمز الخير لتكون متضادة لرمز الشر الظلام السفلي، فها هو ميرزا الآن في حلمه النوراني، إذ السماء تفتح أبوابها السبعة في طقس متناغم منسجم مع لحن متناغم فريد في المجد، الحافل بالأسرار، ثم تنبعث سبع كواكب نورانية متزينة بالقدسية والنقاء. سبعة كواكب تقف جليلة، تقف في مقدمة كل باب برداء أخضر، فيرتعش الكون، وعلى حين غرة تنسحب الكواكب إلى موطنها الخفي، وتغلق الأبواب، فيلوذ الكون بالصمت إجلالا لظهور آخر. في هذه اللحظة المباركة السعيدة يتجلى قرص الشمس بنوره الخافت. هكذا يجري هذا الانبعاث ساحرا هادئا في عيني ميرزا كما لو أن حزمة أشعة الشمس كانت تتسلل بنعومة إلى قلب ميرزا المتأجج في الحب ثم توقظه ليتألق في ظهور آخر حيث المفاجأة الكبرى العظيمة، حيث من قرص الشمس تنبعث عروس السماء ـ بوجهها العذب، وجاذبيتها الساحرة في لحظة دقيقة ـ أنها هنار ـ هنار من نور تضع في طرف فمها الناي (الشبابة) وتعزف لحنا حزينا بصوت الناي المخملي الذي يفتت كل الأصوات لتكون في سكوت، صوت يتوافق مع روح ميرزا كأنه أراد أن يتطهر بأنغام الناي المقدس الذي غالبا ما كان يعمده القوال الكبير في عين البيضاء وهي آلة عزفه التي لا يتخلى عنها وتلازمه إلى

الموت، وغالبا ما كان ميرزا يتقدم إلى القوال العازف ويقبل الناي، ليحس بمدى قدسية هذه الآلة التي اكتشفها البابلي من نبات القصب البري، هذه القصبة الجوفاء المفتوحة الطرفين العلوي والسفلي، الملساء المدورة ذات الستة ثقوب، وذات الثقب الواحد من جهة الخلف التي يضعها البابلي بين شفتيه على جانب الفم، وينفخ الهواء في حافة القصبة، وتتحرك أبهامه برشاقة، فصارت الشبابة آلة الشرق الأعجوبة في قدرة العازف أن يتابع رفع الأصابع في النفخة الأولى، ويحبس الهواء، فيخرج العزف دون شوائب، لكن ميرزا الآن في حلمه يرتقي في جوهر الصفاء ويحيي به قيمة حبه، ويكاد من المستحيل أن يبلغ هذه الألفة مع العزف خاصة وإنه يرى ملامح هنار الأثيرة كأن العزف أشبه بتلاقي إيقاعه ليكون ملاقاة أنيقة بارعة في حلم ممتع حقيقيفي من عوالم النور العليا. ها هو يتحد مع صوت الناي البريء الرحيم، صوت فيه أنين وحشرجة لكنه عذب كما لو أنه يجرد ميرزا من صمته القاحل، وينتزع من قلبه ترنيمة بهية في حضرة هدوء وجمال لالش، صوت ساحر عجيب تلقاه ميرزا من أنفاس حبيبته ليتقد فؤاده، فكان يرهف السمع إليه لأنه صوت الحب الحزين فيه رهافة النفس، والأرتقاء إلى جوهر الصفاء، ليحيي قيمة الحب في حلم نوراني:

لا أريد أن أنساك، لا أريد أن أنام.

لم أمت أبدا، سأزورك في الأحلام.

أنت ظلي في الغناء.

أنا عروس السماء.

صدى الناي مترع بالأنغام.

أجل، كان هذا صدى الناي الحزين قد تغنى في الفضاء بنغمة خفيضة عذبة ذات نكهة دافئة، انعشت قلب ميرزا الذابل في الحزن كأن صدى الناي يخاطب الكون ليغفو في حناه، فهذا طائر بسط جناحيه لائذا في صمته، وتلك أنسام شذا تمحى تاركة لغة الزهور، أما الجداول المتأودة المنسابة توقفت عن الجريان في لحظة نشوة لتسمع صدى الناي، لكن صدى الناي نأى وغاب في لحظة عجيبة مثلما أشرقت وغابت الشمس في السماء، فها قد اختفى الحلم من عينيه المغمضتي الجفنين، واختفت أيضا الصور السماوية، ثم اختفت صورة هنار، ولم يعد الناي يعزف لحنه في الفضاء، فهذا الفجر ينبلج في رداء رقيق ببطء فوق عتبة حياة أخرى، متنورا، مخلدا، يتضخم بضلاله الفاتنة العابرة لعهود قديمة. فتح ميرزا جفنيه ليحيا في نشيد جليل صوفي يجعل الروح ترتقي في لالش السعيد المبارك. فجأة كور جسده تحت الغطاء، وهو ينصت إلى دقات رفيقة، وإسمه يتردد : ميرزا...ميرزا انه الصباح... ميرزا انهض...

رفع رأسه، ونهض من فراشه صامتا، ثم تقدم إلى الباب، وفتحه ليواجه الفقير الذي نظر إليه نظرة ودية ترتسم على وجهه جلالة الوقار، وهو يقول بصوت هاديء خفيض فيه إيقاظ ومضمون النور ونداء الحياة:

- سر معي، كن قويا!

راح يتبع الفقير بخطوات بطيئة، وقد جمع الفقير في صوته كل الأصوات المترنمة. صوت واحد طغى في الصباح دون غيره، وتسلل رقيقا إلى قلب ميرزا، فوقفا سوية عند حافة العين البيضاء، إذ غسلا وجهيهما بالماء الصافي الرقراق، ثم عادا عدة خطوات إلى الوراء، وانتصبا واقفين يواجهان قرص الشمس الذهبي. هذه الشمس التي خطفت بصر ميرزا في نشوة عذبة مفعمة ببشر وخير النور، حيث النور الذي صار يتدفق رقة في نفس ميرزا، لتنمو في داخله بذرة حياة جديدة. بذرة بيضاء نقية تخفف عنه ألم موت هنار، وعذاب الفراق. هذه البذرة قد تعطيه سعادة روحية، خاصة وأن الشمس بدأت تعلو جبال لاش في الشرق، وتعلو بنورها قبب المزارات البيضاء المخروطية في عناق كأنها ترى كل شئ، وكأن نورها ينبئ عن عالم الحيوية الملئ بالثمار. لقد كان نورها وضاح رائع - ربما ينظر بحنان إلى قلب ميرزا، ويثير في داخله نورا صافيا يقلل عنده تعاسة الأيام التي مر بها. هكذا صار هو مع الفقير في عالم منزوٍ يقفان باجلال، وينحنيان بقدسية، وهما يرددان دعاء الصباح بصوت واحد:

- ايتها الشمس الخالدة، المتجلية للخالق العظيم، الأعلى العظيم، يا واهبة النور الصافي، الباهر الكريم، المشرق الجميل

الذي يضيء العالم ويملأه فرحا وسرورا، أيتها الشمس التي تضيئين الأرض بنورك، وتبعدين الظلام عن البشر، لا توجد عين براقة مثلك، فأنت تمهدين الخير للبشر، وتجعلين الأرض تعطي ثمارها، فتسود البهجة في النفوس، فأنت تقفين شامخة عالية بنورك الأخاذ، حيث نورك يمتد إلى جذور الأشجار، وأعشاش الطيور، ومباهج المخلوقات. أنت العين الوحيدة التي تضئ الأرض، ومن بعدك تضيئين الحياة. أنا ابن الصباح الجديد أردد دعاء الصباح خاشعا بصفاء الروح على الطريق المستقيم.

آمين، بزغ نورك العظيم،

سبحانك أيها الرب الكريم،

آمين، أيها الخالق الرحيم،

سبحانك يا رب العالمين،

النور من نور الخالدين،

آمين يا نور الصالحين،

لقد بلغ قلب ميرزا الهدوء، وانتعشت روحه الغضة بالدعاء الورع ليأخذه حبور مزدهر إلى مرقد الشيخ آدي، وهو يتبع الفقير بخطوات بطيئة بينما بدأت الطيور تصدح في الوادي بانغامها العذبة اللطيفة، وقد هبت أنسام خفيفة فيها نكهة روائح أزهار برية عطرة. ههنا ركع ميرزا على عتبة البوابة الحجرية وقبلها، ثم نهض من ركوعه ليداعب عينيه نور باهت تسلل إليه من باحة المدخل عبر البوابة الخشبية المفتوحة على

مصراعيها. تلك كانت لحظة مدهشة نادرة ايقظت في نفسه ورعا وخشوعا لم يدركه سابقا. وبعدها طبع قبلة هادئة بشفتيه المرتجفتين على الجانب الأيمن من بوابة المعبد التي كانت تعلوها نقوش وزخارف ورسوم ورموز حجرية لقرص شمس وأسدين وطائر. لم يلبث وهو في هدوء النفس، وصفاء القلب أن رسم قبلة ثالثة على النقش الحجري المنتصب للأفعى السوداء الذي يقع أيضا على الجانب الأيمن من البوابة. هذه الأفعى السوداء اشتهرت عند الأيزيديين بحكايتها الاعجوبة التي صارت خالدة في ذاكرة كل أيزيدي: أثناء الطوفان الأول حينما كانت سفينة نوح تمخر وسط الأمواج الهائجة الصاخبة حدث ثقب في السفينة، فأسرعت الأفعى السوداء لتكون المنقذ في لحظة الحاجة. أدخلت ذنبها في الثقب ثم تكورت على نفسها، فسدت الثقب بجسدها دون أن تسمح بتسرب المياه إلى السفينة، وظلت تقاوم الأمواج العاتية حتى رست السفينة على الجبل. هكذا انقذت الأفعى السوداء سفينة نوح. هكذا خرج نوح وأهله ومن عليها سالمين لتتجدد بذرة الحياة على اليابسة.

عبر ميرزا عتبة البوابة الحجرية دون أن تلمسها قدماه لقدسيتها، ولأنها عتبة دخول ورع جليل إلى دار الشفاء الروحي ثم صعد سلما حجريا صغيرا بعدة درجات إلى الجانب الأيسر داخلا إلى بداية سحرية في لحن آخر مفاجئ ومبكر، وقد تولاه العجب، وهو يقف في وسط صحن قدسي صامتا مذهولا رافعا رأسه إلى أعلى حيث وجد نفسه يقف تماما تحت سقف القبة المخروطية العالية، فراح في هذه اللحظة الخاشعة يردد مع نفسه:

يا رب، أنت الخالق الحامي،

يا رب، أنت العظيم الحي،

سلطانك يعلو في عرشك العالي،

فيما بعد اندلف إلى صحن الشيخ آدي، وطاف ثلاث مرات حول الضريح الذي كان مغطى بأقمشة خضراء وحمراء ثم قبل عقدة من طرف القماش، ووقف في مواجهة الضريح وهو يترنم ترنيمة حزينة ورعة خافته كأنها وعد لامتحان الذات:

بالصدق، طفت ثلاث مرات أيها الولي،

بالخير، سأصوم ثلاث أيام وثلاث ليالٍ،

بالصبر، أتلو الحمد للرب الخالق العالي،

ثمة شئ آخر كان ينتظر ميرزا، وهو يتبع الفقير نازلا إلى نفق صخري ضيق مظلم أسفل جبل عرفات. شئ كانت له ظلال أزمان طويلة في رهبة الخشوع لصوت خرير رائع أشبه بانشودة خالدة ترعى الحس البشري المرهف الذي كان يرتعش له قلب ميرزا ارتعاشا رقيقا. ذلك كان خرير ماء عين زمزم المتدفق من تحت الأرض بغزارة في الكهف. نزل ميرزا منحنيا لضيق المدخل، ووقف يتطلع مذهولا إلى عين زمزم المقدسة عند الأيزيدي التي يعتبرها بركة من بركات الشيخ آدي. تلك كانت لحظة مباغتة جلبت إلى نفسه البهجة، وهو ينقل نظراته إلى القناديل المشتعلة التي توحي بعالم جليل يتناغم مع هذه القدسية. تلك كانت لحظة فيها نداء خفي، فيها بحث عن وجود لانهائي من الخشوع لتسمو النفس في السكينة. انحنى ميرزا،

ومد يديه كما فعل الفقير، وغرف بكفيه الماء، ثم غسل وجهه، ووقف منتصبا، وهو يردد دعاء الغسل المبارك:

طهر قلبي من شوائب الدنيا يا ماء الطيب والنقاء

اجعل قلبي بيتا للرحمن كي ارتقي لنور السماء

بعد برهة صمت، وبينما كانت قطرات الماء تنساب من وجه ميرزا، وتذوب على صدره لاحظ أن الفقير كان يحدق إليه بنظرات متقدة فيها رأفة، فيها رؤية حكيم، وفيها أيضا قراءة غامضة غريبة لملامح وجهه. لم تمر لحظات، وإذا بالفقير ينطق بخفوت:

- الآن أتممت حجك يا ميرزا، الآن ينبغي أن تكمله بالصوم.

هز ميرزا رأسه موافقا دون أن يتفوه بكلمة، ثم تبع الفقير صامتا منحنيا في مدخل سري من خلال فتحة في جدار الكهف التي أدت إلى نفق حجري مظلم. كان الفقير يحمل بيده قنديلا لينير به الطريق الغارق في الظلام، بينما كان ميرزا يسير خلفه، ويتبعه بهدوء، وقد أدرك أنه يولج إلى عالم آخر، عالم ينطوي به مع ذاته في خلوة عظيمة التي حدثه عنها جده ذات يوم: هذه الخلوة يا ولدي يتعبد فيها الأيزيدي، يصوم ويتأمل، إنها إمتحان بعيدا عن ملذات الدنيا، فيها ينزوي الأيزيدي وحيدا منعزلا عن العالم كي يؤدب نفسه، فيها يتوحد مع الذات العليا بلطائف الكلام الصامت ناسيا الرغبات. هذه تسمى الخلوة في تجلي الذات في زاوية الشفاء، وهي تصفي القلب، ليدخله الحب الرباني العظيم، وتصفي الذهن من الظلام لينال نور الخالق

الطاهر. هذه الزاوية موجودة في لالش النوراني التي كان فيها يصوم الشيخ آدي أربعينية الشتاء وأربعينية الصيف.

انتهى الممر إلى مغارة تتكون من عدة كهوف وغرف حجرية مظلمة لكن ميرزا رأى ضياءا يتلألأ في أحد الكهوف ، فقاده الفقير إليه، ووقف عند مدخله وقد طلب من ميرزا أن يردد معه كلمات الوعد:

- أنا أيزيدي أصوم ثلاث أيام وثلاث ليالٍ،

أمتنع عن الأكل لأتذكر الجياع الغرباء،

أمتنع عن الشراب كي أتذكر العطاشى ،

لتعتاد نفسي على نور الرب المبارك،

ثم تركه الفقير وحيدا، ليندلف ميرزا في الكهف الذي كانت تنيره القناديل وتتوسطه بركة ماء التي كان يعبر منها ماء زمزم إلى غرف تحتضن قبور ونياشين الصالحين، ثم تتسلل إلى بركة الثور، وهكذا تلتقي بمياه عين البيضاء لتتوحدا وتتوجهان سوية إلى جسر الصراط في أجمل حلة.

جلس ميرزا على بساط وهو يراقب النور المتسلل إلى البركة ويستمع إلى خرير الماء. ذلك أحدث خشوعا قدسيا في نفسه ليبدأ منه لحظة الاستغراق في التأمل شيئا فشيئا بلغة ذهنية دونما إدراك، وهو وحيد في الصمت، أعزل من أي سلاح دنيوي في الكهف الأصم الذي كانت تضيؤه القناديل المحترقة، وتضوعه البخور المشتعلة المتصاعدة بكثافة لتبث طيب روائحها في ثقل الهواء أما خرير الماء في البركة فكان هو

الصوت الودود العابر إلى قلب ميرزا. قلبه هذا الذي كان يصدح في هذه الخلوة الفريدة العجيبة، ويتعاظم ليبلغ جموحه، وانفصاله عن الوجود الأرضي مع الوقت الخامد. الوقت كان يمر دون حساب، ودون أن ينتبه إليه ميرزا. إنه تحليق هائل متوثب مع الوقت إلى اللانهائي الذي فيه إصالة، فيه رقة، فيه سمو نحو حقيقة الذات. إنه فيض مترع بينابيع نقية متدفقة بألوان تتجاوز ألوان قوس قزح بعد المطر لتروي بستانه الروحي الأخضر المزدهر بتراب الخصب.

أحس ميرزا أن البخور صارت تنشر عبيرا روحيا احتفاءا بتأمله، وأن نور القناديل صار نورا نقيا لذاته البشرية أما خرير الماء فصار إيقاعا مشبعا بالحنان الذي كان ميرزا يصيخ السمع إليه كما لو أنه صوت نفسه مثلما صارت نور القناديل نوره هو الكامن في أعماق نفسه.

إنه انتقال مفاجئ لم يحدث له سابقا في الصمت عندما كان يرعى الماشية في جبل بحزاني. هذا الصمت كان صمت العالم كله الذي تراكم عليه في هذه الخلوة التي سخر نفسه إليها فقط.

أما بعد فقد انعتق ميرزا عن نفسه بنغمة تتوازى مع صمته ثم انداح إلى صمت آخر من أشكال ودوائر حلزونية لصور مرتعشة قبالة عينيه. كانت الصور والأشكال تتوالى عفوية لا تمس واقعه الدنيوي بشئ سوى ألوان تمتد في سعة الخيال مفرطة في الغرابة والبعد إلى درجة لا يمكن كبح إتساع مدى تأمله في رؤيا راحت تضئ أفقا لا نهاية له، فقد تحول الكون عنده إلى تأمل، والتأمل تحول عنده إلى كون دون زمن

أو مكان أرضي، فها هو قد دخل في استغراق التأمل إلى روضة مخروطية آسرة في جمالها، إذ كانت فيها كل الصور والأشكال تستجلي له مخروطية بيضاء مثل قبب لالش، فهذه زهرة الإقحوان تنزع أوراق تويجها وتتطاير في فراغ، وتسقط في جدول رقراق، تغتسل فيه، ثم تتطهر، ثم تظهر في تكوين آخر أشبه بأزهار عباد الشمس التي راحت تهتز راقصة في مكانها على إيقاع الجريان الهادئ لمياه الجدول. كل شئ كان يتغير في خيال ميرزا السارح إلى اللانهائي، ويتحول، وينمسخ، ويتناسخ في توازي خطوط،، وينتهي في تلاقٍ عند نقطة التلاشي العظمى.

هذه أيضا شجرة الزيتون المقدسة التي لا مثيل لها تجلت في ذهنه بارعة باسقة مثمرة فارشة أغصانها مثل أجنحة لطائر أبيض عملاق. فجأة انبثق منها غصن ذهبي بوجه مخروطي، مزموم الشفتين. اهتزت الشجرة عندما جاءها على حين غرة صدى ناي من بعيد، فافتر وجه الغصن الذهبي عن ابتسامة رائعة نورانية التي ما لبثت أن صارت نغمة ترن برقة في أذن ميرزا:

ـ أنا شجرة الزيتون المباركة، الجميلة المثيرة، تثمر حبات الزيتون. أنت، أنت تقطفها، تتغذى بها، تخرج منها زيتا تشعل فتائل القناديل. أنا أحبك مثلما تحبني أنت، فأنت أيزيدي لا تقطع أغصاني الخضراء.

كان ميرزا يسرح لوحده في عالم الزهد شاردا في ذهنه بغياب، بتداخل الأنغام والصور الذهنية التي راحت تفضي إلى نكهة روحية عجيبة يعجز عالم الصخب والضوضاء البلوغ

إليها، فكان ذهنه يعدو، ويعدو في غدران ورياض، وهو يستمع إلى أصوات ساحرة عجيبة، وكذلك كانت روحه تحبو إلى عوالم خفية بهيجة. حينذاك تراءى له أن زيت الزيتون بدأ يسيل من حبات الزيتون المتلألئة في غصنها الذهبي الأم، فأسرع إليها متلهفا، وغسل قدميه بها ثم حلق صاعدا إلى الأعالي، فانفتحت باب مملكة تناسخ الأرواح العجيبة الساحرة التي كان يخترقها النهر المقدس، وهو يسير على سطح مياهه البراقة صائما ثلاث أيام وثلاث ليالٍ مبتغيا ضفته دون أن تتبلل قدماه. عندما أحس بقدميه تطرقان اليابسة وقف متأملا الألوان الزاهية لهذه المملكة باحثا عن هنار. لم يجد أثرا لها، بل وجد أن الزهور تترنم أعذب الألحان، والأشجار تحفحف طربا مثل أنسام الصباح، والطيور تغرد مزهوة بالأفراح، والحيوانات أليفة من كل الأنواع كما لو أنهم يكلمون بعضهم بعضا، ويسمعون بعضهم بعضا، ويفهمون بعضهم بعضا. مشى ميرزا متلفتا حوله، وهو يرى الأرواح المتناسخة طيبة بهية وجميلة ترفرف بلطف. تلك كانت مملكة ساحرة فاتنة، مجهولة عجيبة، ولغز من ألغاز القدرة الإلهية . كل شئ فيها جميل، كل شئ فيها خفي، كل شئ فيها مستيقظ في أبديته.

يا له من عالم جميل هذا الاستغراق في التأمل!

خمدت القناديل رويدا رويدا، وخمد ضوؤها، وتلاشى المادي الدنيوي، وحل ظلام دامس في الكهف كأن كل شئ كان يدفع ميرزا إلى نبوءة ملهمة في الصبر على تحمل الجوع والعطش في يوم الثلاثاء. لم يكترث ميرزا للظلام لأن هناك إتقاد نور مهم انبثق في داخل كينونته. هذا التحول والانفصال والعزلة انطوى على تمثل الماورائي مستدرجا أياه إلى رؤية

عجيبة دون شعور في خلوته، فهو كان يمضي صوب اللانهائي البعيد بصبر، بتصميم من برزخ التأمل في كهفه المظلم بين أوله وآخره، بين الدنيوي والإلهي ليتجاوز الهفوة بين الأرضي والسماوي. هذا ليس قليلا على الاطلاق، لكن هذا لا يكفي، فها هو يتجلى له وجه هنار. وجه لا ظل له، فتاك في بداعة جماله، وجه أكثر كمالا من الجمال المألوف الأعتيادي الذي كان يراه في بحزاني، جليل مبارك، أحبه جدا كما أحبه سابقا، لكنه كان هو الناظر وكان وجه حبيبته هو المنظور أي ناظر ومنظور في تداعيات الظلام. عض ميرزا على شفته السفلى، وتقطرت عيناه المتضرعتان بالشوق لهنار بالدموع بينما الوجه المنظور كان يبتسم برقة، وقد تلألأت عيناه في سر طقوسي، وتهادت من شفتيه كلمات:

- يا حبيبي، لا أحد يفسد صيامك. لا أحد يهزم استغراقك في التأمل. امض صوب اللانهائي. لا تدع الجوع ينهك إرادتك، ولا العطش يهزم عزمك. قاوم بقوتك الهائلة الرغبة الجسدية، قاومها بقلبك المبارك المترع بالحب لكل ما هو جميل. أنت محارب عظيم ليس بالسيف. أنت بطل في الصوم الجليل. امض صوب المعرفة الإلهية، صوب الحقيقة، صوب الجمال الروحي المهيب. الآن أكمل صيامك، أنا أحبك جدا، وداعا حبيبي.

وهو في غضون تأمله أوحت له نفسه إنه أبصر ضوءا تسرب إلى كهفه. ضوء داهم خلوته على حين غرة. لم يطلق حسرة، ولم يمتعض منه بل اعتبره في قرارة نفسه بركة تداعب عينيه. توجس أن يكون الضوء الكامن في داخله قد تدفق إلى الخارج دون أن يعيه...لا...لا...هذا وهم خداع، فأدار وجهه من اليسار إلى اليمين، وقد حاول أن يتدارك الضوء الذي أحسه

بطيف من نسيج خياله غير المألوف...لا...لا... إنه يرى ضوءا شاحبا يدخل كهفه، ينيره فجأة، ويطرد الظلام...لا...لا...هذه ليست رؤيا خادعة عابرة. حينها أيقن إنه لم يعد ذاته هو. إنه بدأ يتغير تدريجيا لاسيما كانت نظراته مثبتة صوب الضوء الغريب الأصم الذي اخترق عزلته ووحدته. آن الأوان له أن ينفصل عن تأمله لحظة كي يتبين معنى وجوهر الضوء. آنئذ أحس إنه موجود في الكهف بلحمه ودمه، وإنه هو ذاته الوحيدة التي لا يشاركه فيها أحد. مضت لحظات وهو بين اليقين والشك أن يرى الضوء مدهوشا كالنائم الواثب من نومه. عندئذ رأى الفقير يتطلع إليه وهو يمد يده إليه التي كانت تحمل قطعة رغيف خبز. تناولها بصمت، ومكث في مكانه دون أن يتحرك كما لو إنه تحجر فيه. قبل قطعة الخبز، ثم مد يده إلى البركة وغرف الماء، وبدأ يشربه، ثم أكل رغيف الخبز بينما كان الفقير يصب زيت الزيتون في القناديل، ويشعلها، وقد انتهز فرصة سانحة للتحديق في وجهه برفق وسكون. وجده وديعا هادئا شاحبا، وإن نظرات عينيه قد تغيرت كأنهما تنظران إلى بعد مجهول. أدرك الفقير أن ميرزا قد بدأ يدخل عالم التصوف القاسي، ويغيب فيه، ويغادر الدنيوي الأرضي إلى الإلهي الأعلى، وهو يغالب الجوع والعطش، ثم خرج الفقير دون أن ينطق بكلمة تاركا ميرزا في خلوته التي لا يعرف كيف سيتوج مداها.

انقضى يوم الثلاثاء، وميرزا كان يرى الحياة شيئا آخر في هذا الكهف المنعزل، فلا حياة له في مكان آخر إلا هنا لأنه كان يحيا عالما لا قياس له. عالم لا يراه غير سواه. هنا توقد خياله وهو يتعايش منفردا مع ألغاز وأسرار الكون، وحين تعبت عيناه تمدد على أرضية الكهف، واضطجع، ونام في هدوء

عميق، فقد التحم عنده الزمن الطويل مع الزمن القصير، والتحم عنده الليل والنهار، والنور والظلام، وكذلك التحم عنده الموت والحياة، واللقاء والتنافر. كل ذلك رآه في إيحاء الخيال. كان يرى أشياء ما لم يرها أحد. كان يرى طلاسم التداخل والتضاد، وفي نفس الوقت كان يطرد الوساوس والأشباح لكن كان يعتقد أن كل ما رآه في ذهنه لم يكن إلا قليلا وضئيلا وناقصا لذلك تلاحمت وتضاربت عنده الصور، فكل ما رآه لم يكن يقوده إلى ما تمناه. هذا لم يكن مبتغاه، فالسكينة والهدو والاسترخاء الفكري وراحة البال الانعزالية وكل ما كان يجلب للطمأنينة النفسية في صيامه لم يكن إلا توحد مع الذات. إنه أراد لقلبه الصافي أن يكون عقله الغارق في التأمل مأخوذا بالذات الإلهية، وهذا ما تمناه.

الآن انقضى أيضا يوم الأربعاء المقدس عند الأيزيدي. هذا اليوم مضى بما فيه - الرابع من أيام الأسبوع - المترادف للفصول الأربعة من فصول السنة، والجهات الأربعة، والأركان الأربعة، وإن الماء والهواء والنار والتراب عناصر الكون، ففي يوم الأربعاء كانت ولادة النبي يوسف، ونزول النبوة على ابراهيم الخليل، ووفاة النبي نوح، ويسمي الأيزيدي يوم الأربعاء يوم طاووس، وعيد رأس السنة (سه رسال) يبدأ في يوم الأربعاء، وأعياد أخرى تبدأ أيضا في يوم الأربعاء، والفقير يشعل القناديل في مسالك لالش وأزقته وعلى عتبات أبواب الأضرحة والمزارات في مساء الأربعاء، ولا يغتسل الأيزيدي، ولا تغسل زوجته الملابس أو تخيط القماش في هذا اليوم لكن ميرزا طفق خياله في يوم الأربعاء إلى خلق الكون، إذ ارتقى بخياله إلى الأعالي، ورأى أن الظلام كان البداية، ولم يكن

النهاية. كان الظلام صادقا حتميا لا تبدل فيه. هو في زمن طال أربعين ألف عاما. هو عريض وعميق. فجأة قفزت اللؤلؤة البيضاء في جوف الليل. ألهمت هذه اللؤلؤة عيني ميرزا، فثبتهما إلى أعلى، رأى أن اللؤلؤة صافية أنيقة ناصعة تتلألأ في موضعها كأنها مفتاح سر الكون. اهتزت، وبدأت تنقي، وتغسل الظلام، فتولدت عند ميرزا رغبة جامحة أن يكشف سر هذه اللؤلؤة العظيمة التي بها تلاشى مركز الظلام حين حدث الانفجار العظيم الرهيب في لحظة مدوية عملاقة، مذهلة خارقة، وتبعثرت أشلاء، وتشتت ضوؤها، فكان النور والظلام، ومن ضوئها نشأت الأرض والسماء، ثم نشأت البحار واليابسة، فكان الليل والنهار، والعناصر الأربعة، والجهات الأربعة، والفصول الأربعة، والأركان الأربعة، وكانت المخلوقات منها تلك التي تمشي على أربعة، وكانت الحياة وكان الممات، وهذا كله حدث في يوم الأربعاء المقدس.

ومضى نهار الخميس كأنه يستعجل الزمن الخامد، وكان ميرزا قد تاه في رؤيا مفرطة في الغرابة والبعد. رؤيا تبدو رائعة بصورة فائقة، عفوية مطلقة، تمتد في إتساع الخيال، وسعة الكون. رؤيا ارتقى بها ميرزا صوب الأعالي أثناء الصمت دون أن يحطمه الجوع والعطش في الصوم، وبه بلغ ذهنه الحد البعيد الذي كان يتمناه.

هكذا، دون إدراك، مضى هزيع من ليل الخميس، وتعدى الليل إلى هزيعه الأخير لتضج في رأس ميرزا ثلاث أصوات: صوته الكامن في داخله، وصوت خرير ماء البركة، وصوت سماوي صامت. كان يصغي ميرزا ابتهاجا إلى هذه الأصوات الثلاث التي استيقظت في نفس الوقت في لحظة قصوى، لتتحد

في صوت واحد، لكن صوت السماء الصامت أخافه كثيرا، وتملكه رعب لا مثيل له. إنه لا يرسل أي نبرة. هذا أرهقه جدا. استغرق في التأمل ما استطاع بمحبة لا مثيل لها للخالق الأعلى، وأسلم نفسه إلى تحليق يتقد إشراقا بجموح عاصف، وانفصل عن ذاته، وعن وجوده الأرضي بعد أن انصرمت ثلاث أيام، وثلاث ليالٍ في صوم وعبادة وتأمل عميق ليتفتح برعمه الروحي، ويزدهر في زهرة من ينبوع قلبه الصافي، وحديقة نفسه النقية. نمت هذه الزهرة في تراب الجسد ببطء، ونضجت في لحظات الظلام والنور في وحدة وعزلة. الآن نضجت كاملة متألقة ،وميرزا يستنشق عطرها الخفي في تناغم مع الأصوات بإنشودة ذات نبرة غريبة. كان يصغي بهدوء، بشغف بعد أن طال في صمت، وهو يبتهج في عالمه الذي لا يعرفه أحد، ولا يقدر أن يستكشف سره أحد. هو وحده تعلم ، وعرف هذا التأمل العميق، وقد أيقن في قرارة نفسه إنه على وشك أن يبلغ الأمنية التي تمناها، الأمنية الفريدة بعد أن أوحت له الإنشودة إنه سينال الذروة حين يطلق نوره الخامد في قلبه، فنهض من ظلامه في لحظة قصوى، ورفع ذراعيه إلى أعلى، فاستيقظ نوره، وانفصل عن الذات كليا، ودخل دون شعور تلك اللحظة الساحرة الآسرة التي لا يمكن أن يكون خارج مدارها. لحظة الذروة الرائعة التي تبحث عن نور الذات الإلهية، نور جليل مهيب. تلك كانت لحظة إنبثاق نور النقاء من ذات النفس البشرية التي بلغها ميرزا في متعة كبرى، واندفع في رحلة إلى نور السماء، إلى نور الخالق العظيم. كان ميرزا يحلق فوق عجلة نور إلى أعلى، وهو لم ير شيئا سوى نوره يرتقي بعيدا، صاعدا إلى الأعالي، وهو يتمتم مع نفسه:

ـ يا نفس، نحن لا ندرك قلبنا إلا قليلا

ثمة نور نقي، طاهر مدفون فيه خامدا

كان نور الإله القدسي عطوفا حنونا، وديعا براقا، بهيجا ساحرا، قد احتضن نور ميرزا برحابة منتظرة، إذ صارت عينا ميرزا لا تريان إلا نور الإله الجليل الرحيم. هذا النور الرباني الذي لا مثيل له في سطوعه، في رحمته، في طيبه، في لطائفه، كان يجسد العظمة الربانية في الإكرام والكمال. كان ميرزا يقول بخفوت من شدة انبهاره ودهشته:

ـ يا إلهي العظيم، ما أروع نورك! أنت، أنت العالم كله، لا شئ آخر، لا شئ آخر، في بهاك، وفي حسنك، ما تقدر الأبصار أن تراك دون محبة عظيمة، أنت، أنت الخالق الأعظم.

في ذروة هذه اللحظة الكبرى الهائلة ارتعش جسد ميرزا، وسقط غاشيا في نشوة عجيبة، وقد ارتسمت على شفتيه الكلمات:

ـ اتحد نوري مع نور الخالق الحق.

وعلى حين غرة ايقظت ميرزا يد حنونة لمست كتفه لمسة رقيقة، وهو يستمع إلى كلمات وديعة بعد أن استفاق من غيابه:

ـ ميرزا الشمس اشرقت من جديد.

عاد ميرزا إلى وعيه، ونهض صامتا، وهو ينظر إلى وجه الفقير باستغراب، وقال بخفوت:

ـ الصباح خير وبركة، أيها الفقير الجليل.

الفصل الخامس عشر

الخرقة المقدسة

حين دخل ميرزا كهفه دبت حركة غير عادية في لالش، فقد أخرج العذراوات الطاهرات الصائمات الصوف الأبيض الخالص من مخبأه في صندوق خشبي مرصع بالذهب الذي كانت تزخرفه نقوش من قرص الشمس وزهور البنفسج. هذا الصندوق كان ملفوف بكساء مخملي أسود مطرز بخيوط الذهب. الآن، كن يتذكرن العذراوات أحاديث الأولياء التي صارت قصصا قدسية تتوالى في ذهنهن كصور لماضٍ سحيق، وهن منهمكات في غزل الصوف على بكرة الغزل. إذ عندما كان الظلام، ولم تكن هناك دنيا أو كون، ولم تكن هناك أرض أو سماء، حيث كانت الدرة البيضاء أشبه بمصباح لا ينطفي، وهو محفوظ في غطاء مثل غمام. وكان هذا الغطاء قشرة مظلمة في عتمتها لإرادة الجلال. كان ذلك قبل تسعين ألف عاما قبل أن تنتزع القشرة السوداء نفسها من الدرة البيضاء آنذاك. وكان النشوء من الدرة البيضاء بإرادة الخالق حين انفصلت القشرة عن نفسها، وحين انتفضت الدرة البيضاء، فصارت من هذه القشرة خرقة مقدسة، وصارت اللباس الأول لطاووس ملك، ثم لباس فخر الدين الذي كان يسير القمر. آنذاك، وقف في خشوع واضعا يدا على يد، وهو يستمع إلى كلام الرب:

- يا فخر الدين، ليكن لباسك الخرقة.

وكانت الحياة، وكان الموت ثم تناسخت الأرواح، وقد نزلت الخرقة إلى الأرض بقوة سحرية، وبراعة إلهية طاغية،

وانتقال عجيب لتكون لباس الشيخ آدي، ثم قال الشيخ آدي مخاطبا الشيخ ابو بكر:

- انهض، والبس الخرقة!

ثم تناولتها يد ولي، ليسلمها إلى ولي آخر، وفيما بعد صارت لباس الفقراء. هذا ما جعلها مقدسة عند الأيزيدي، فالخرقة لا تفنى، وإن لابسها يدخل عالما صوفيا مفرطا في الزهد والتعبد، وفي الوقف نفسه يتملكه احساس خالد للحياة والموت، ولا تزول الخرقة عن جسد الفقير في مماته، لأنها كفنه مثل قبلة شفاه الموت. وبحضرة الفقير لا يجوز الشتم، ولا يجوز الشجار، ولا يجوز القسم بالخرقة أيضا، وكذلك يحق للفقير أن يضرب أحدا، ولا يجوز لأحد أن يرفع يده في وجه الفقير، فهذه خطيئة لا تغتفر.

الأن، جلبن، العذراوات الماء من عيني البيضاء وزمزم إلى إناء كبير، وبدأن بإشعال الحطب تحته، ثم رمين نسيج الصوف مع قشور وأغصان وأوراق ذكر شجرة الجوز غير المثمرة، وقد بدأ الماء يغلي حتى تحول لون النسيج من أبيض إلى أسود بينما العذراوات رحن يرددن:

- رداء الخالق، رداء الخالق في تقديس،

سلام، سلام على مرتديه في تهذيب،

خرقة مقدسة تزين جسد الفقير بتبجيل،

وفيما بعد رفعن النسيج من الإناء، وغسلنه من جديد بماء العين البيضاء وزمزم، ثم حملن النسيج إلى نفس شجرة الجوز،

ونثرنه على أغصانها، وترك ليوم كامل حتى جف النسيج الأسود. وفيما بعد بدأ الحائك الصائم حياكته لهذا النسيج ليكون أشبه بسترة خشنة مطوقة حول العنق ليكون لابسها في الدائرة الإلهية، والخرقة أصبحت جاهزة لتمتد إلى حد وركي لابسها.

الآن، بدأت قصة الخرقة المقدسة لميرزا فحسب!

الآن، خرج ميرزا من محراب إعتكافه، من كهفه المظلم الذي فيه عرف نور أناه الكامن في داخله، وعرف النور الإلهي الذي انسجم معه، واتحد معه. أنه عرف هذا السر العظيم بالحب العذب في لحظة ورع، وكذلك عرف أن لم يعد هناك شئ يعيق قلبه الوفي في التأمل كي يرى أسرارا أخرى في المحبة، فها هو قلبه يغتمر بلا نهاية بمحبة الأرض المخلوقة، وإخضرارها في حظوة ترتيلة دنيوية.، وقد بدأ يجتاز النفق المظلم عائدا إلى الحياة اليومية العادية التي لابد له أن يتغير هو فيها، ولابد أن يتغير فيها كل شئ. كل شئ لابد أن يتغير على نحو رائع.

توقف عند عين زمزم، وأطفأ ظمأه في الماء الرائق المتدفق، وقد فاضت عيناه بالدمع. أنه لأمر غريب وغامض أن يشعر بأن دمعة لامعة تعلقت في عينه كما لو أنها من نعيم حلم لسعادة روحية سوف تلجم كل ملذات وشهوات الدنيا. آنذاك تدفقت من شفتيه الكلمات:

- ما أجمل أن ترى النور منتصرا!

تلك كانت إثارة إعجاب بفيض جموح النور في قلبه، وهو يصعد عدة درجات خارجا من الظلام. فجأة، تولته دهشة مباغتة، وهو يقف في مدخل الصحن الكبير الذي ترتفع منه

القبة المخروطية إلى أعلى، وقد اعتراه الاضطراب، وهو ينظر نظرة ذهول وتعجب نحو حشد من المجلس الروحاني الذي كان يتوسطه أمير الأيزيديين بهيبته الوقورة الذي يعتمر رأسه عقال أسود رفيع فوق كوفية بيضاء. كانت نظرته الثاقبة تتأمل ميرزا مثلما تتأمل سنبلة جديدة ناضجة توثبت من مكانها إلى عالم جديد. انتزع ميرزا نفسه من مكانه، وتخطى ارتباكه بتماسك وإتزان، ودخل الصحن خطوة خطوة. خطوة واحدة كانت فيها صعوبة، وخطوة أخرى كان فيها توجس كأنها جعلته يدخل رؤية خيال، ثم تلتها خطوات يقين مثقلة بإيقاع هادئ بطئ دون أن ترتد خطوة واحدة إلى الوراء، وهو يلقي نظرات نزيهة على شيوخ طاعنين في السن بلباسهم الأبيض الزاهي. شيوخ تدلت من وجوههم الوديعة الطيبة لحايا بيضاء. شيوخ تجاوزوا أعواما صعبة قاسية بصبر. تقدم ميرزا، ووقف في مقدمة صفين متقابلين للفقراء، وهم يرتدون الخرقة المقدسة.

خيم صمت ثقيل، وقد أحس ميرزا المسحوق بهذا الصمت نفسه أن هذا النهار الأول بعد صومه يخفي له مفاجأة. حينئذ افترت شفتا الأمير عن ابتسامة مشرقة سعيدة في ظل هذا الصمت الكثيف كي يتفادى ميرزا خجله، ويهدأ من روعه، ثم قال بصوت خفيض:

- هل ترغب بإرتداء الخرقة المقدسة؟

هدأ ميرزا من روعه، وهو يقول بفرح:

- نعم.

وبعد عدة أسئلة من قبل الأمير، وجده الأمير نقيا لا شائبة فيه غير أن ملامحه تنطوي على شئ غامض، وتخفي لغزا مفرطا في التوتر، وإن نظراته تتناهي إلى البعد، فلا صوت لها، فهي موصدة في ذاتها، ولا تريد الإفصاح عن نفسها. وههنا ينبغي إزالة هذا الغموض منه بمرور الأيام. لم تمض لحظات قصيرة بدأ بابا شيخ يتلو دعاء الوفاء والأمانة للخرقة المقدسة بصوت هادئ عذب، وقد تملك ميرزا إحساس غير عادي أدخله في سكينة وبهجة، وهو يردد قسما أمام المجلس الروحاني:

باسم الخالق العظيم، خالق الصدق من نوره، أكون وفيا للصدق إلى الأبد،

باسم الخالق العظيم، خالق الحب من نوره، حبه يسكن قلبي ساطعا إلى الأبد،

باسم الخالق العطيم، خالق الحياء من نوره، الحياء يسكن قلبي إلى الأبد،

أنا أيزيدي أرتضي بشظف العيش، أنذر نفسي للزهد والعبادة والخير إلى الأبد،

ألبس الخرقة المقدسة ليكون نور قلبي مشرقا إلى الأبد،

ألبس الخرقة المباركة كي أهتدي لكمال النفس،

ألبس الخرقة المقدسة مثلما يلبسني نور الشمس،

فيما بعد هذا القسم الذي تغلغلت كلماته في أعماق ميرزا التفت الأمير إلى كبير الفقراء، ونظر إليه نظرة بهية، فغادر كبير الفقراء الصحن لوهلة قصيرة، ثم عاد بعد لحظات حاملا

الخرقة المقدسة والكمك والمفتول والرست على صفيحة دائرية خشبية، فتعالت الأصوات مبتهجة بصوت واحد:

- مبارك، مبارك، مبارك.

بينما كان ميرزا يتقدم بخطوات بطيئة هادئة إلى أمام، ثم وقف قبالة الأمير، وقد التقت نظراته بنظرات الأمير اللطيفة التي جعلته أكثر تماسكا. رفع ميرزا هامته إلى أعلى، ونزع قميصه دون ارتباك، فتقدم إليه أخو الآخرة، واستلم منه القميص. ههنا انتصب ميرزا عاري الصدر.عندئذ رفعت يدا الأمير الخرقة، وهو يقول بصوت وقور يخاطب ميرزا الذي اتسمت على محياه الفضيلة، وقد بلغت أعماق قلبه:

كن وفيا لتعاليم الخرقة المقدسة.

سر في درب الزاهدين الأوليين.

أحس ميرزا بخشونة صوف الخرقة التي طوقت عنقه بشكلها الدائري، وامتدت لتصل إلى حد الوركين ،وهو يرتديها، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لهذا الشرف الذي منحه أياه الأمير والمجلس الروحاني. تلك كانت لحظة خالدة ساحرة بهية ليصبح نموذجا يضئ درب الآخرين في كفاحه، وتضحيته، وقد تفجر في داخله ينبوع مضئ من الغبطة في طقوس إرتداء الخرقة. هذا الضوء كان مترع بالحب، وينطوي على آمال خفية. الآن، تمتع ميرزا بشموخ الروح التي تتوق في تتبع خطى الزاهدين الذين وضعوا هذه المأثرة دون أن تقهرهم آلام أعوام الرياح السوداء، وأمة الأيزيدين تصمد، وتقاوم على مر السنين.

فيما بعد وضع الأمير غطاء الرأس (الكوليك) على رأسه كأنه تاج الزهد، ولف حوله قطعة قماش لتكون أشبه بعمامة تسمى (البوشية)، ثم طوق عنقه بزيق الفقراء الرفيع (المفتول)، ولف حول خصره حزاما من الصوف الأسود مرتين الذي يسمى الرست، وكان ميرزا يردد كلمات التعهد أشبه بترنيمة صوفية:

سأكون صبورا، صامدا، يقظا في تحمل الآلام،

سأكون ضوء الخير في وجه الشر والظلام.

فيما بعد مشى الأمير بخطوات قصيرة متمهلة، وقد تبعه المجلس الروحاني، وتجاوزوا عتبة المزار. وفي لحظة خالدة بهية ظهر ميرزا، وقد قبل بوابة المزار،وحينما خرج من المزار استقبله حشد من العذارى الفقيرات الجميلات المنتظرات في الباحة الكبيرة بالزغاريد والهلاهل، وهن بلباسهن الزاهي الأبيض، وقد توجن رؤوسهن بأزهار حمراء وبيضاء وصفراء فوق أربطة بيضاء، وكانت كبيرة الفقيرات بزيها الأبيض التي تعتمر رأسها عمامة بيضاء أيضا تحمل طاسا فضيا يشتعل فيه البخور، ويتصاعد منه دخان كثيف ذوعبق الروائح. فجأة تعالت أصواتهن مرددات ترنيمة فرح:

تهاني، تهاني، سلام، وحب، وهناء،

تهاني، تهاني لنورالقلب البهي السناء.

فتقدم إليه كبير الفقراء، وأخذ به ماسكا إياه من أذنه، ثم دار به ثلاث دورات، وهو يخاطب ميرزا:

ـ طف في الأرض مستجديا، وطوع جسدك على الخشن وقلة الطعام! حس بآلام الفقراء على الأرض في جولة الاستجداء! اخرج من تحكم الجسد، وتقيدك برغباته بإرادتك الحرة! انقد إلى سمو الروح في المعرفة والحكمة كي ترتقي إلى النور الأعلى! أنت وحدك، بذاتك المنفردة تقترب إلى الخالق العظيم!

تيقظ،، وانتصر على ملذات الدنيا، والشهوات!

فيما بعد علق كيسا منسوجا من صوف إلى كتفه، ودفعه برقة، ليبدأ ميرزا جولته طائفا مستجديا في الأرض بين القرى، ويخوض امتحانه في إذلال جسده، ويستنير كمتيقظ إلى سعادة فردية قصوى مرتقبة ناسكا في لباس الزهاد. أجل، سلك طريق الزهد تحت أشعة الشمس هاجرا رغبة الجسد. هكذا سار ميرزا هائما تحت أشعة الشمس التي راحت تلفح وجهه، وراحت الخرقة تلهب ظهره في عذاب مقدس. حينئذ شعر بأن العالم حوله كان يعزف له بصمت ولطف معزوفة الإستجداء: استجدي الخبز، وتجاوز الأنا المنفردة! استجدي الخبز، واحس بنكران الذات تجاه الفقراء.

تلك كانت لذة روحية تبهج قلبه، ومتعة عظيمة بالنسبة له أن يكون حرا في الجبال مثلما كان طليقا في جبل بحزاني يرعى ماشيته، فقد أحب الجبال الجميلة. كان كل شئ عنده في الجبال جميلا. كل شئ فيها رحب بمياهها الرقراقة ليل نهار، بأشجارها المترفة بالخضرة، بأخاديدها العميقة، وكهوفها التي تخفي ألغاز الأزمنة الغابرة. الآن، كان يعبر إلى زمن لا متناه في بهجة طاغية، ويطوف مستجديا متسكعا في صدر الجبال،

ويرتقي إلى أعاليها. فجأة رأى شجرة بلوط عملاقة منعزلة قد أذهلته في تفردها، وأذهله جذعها الضخم المتشبث بالأرض في عناق، وكذلك أذهلته أغصانها المتفرعة، وأوراقها البراقة تحت أشعة الشمس. تلك كانت شجرة عجيبة، قد تكون لها حكاية ارتبطت بالجبل، وكافحت بصمت زئير الرياح في ليالي الشتاء متحملا جذعها أعباء الأعوام التي مرت عليه. هذا ما جنح خيال ميرزا إلى جبروت هذه الشجرة، ليجلس في ظلها متكئا ظهره إلى جذعها، ويتأمل كينونة عالمه الذي دخله بمحض إرادته، ويتأمل امتداد الجبال لتسمو في قممها. كان يحدق إلى المدى بابتهاج، ويراقب مستغرقا في تأمل سلسلة الجبال التي روض نفسه لها. إنه أحبها منذ أن ترعرع فيها، ومنذ أن قضى أمتع أوقاته راعيا فيها. تلك كانت لحظة ساحرة أن يترك بصره ينفذ من جديد بعمق وصفاء إلى جمالها.

وبعد حين، تدفق الماضي في ذهنه مثل أنين الرياح التي عصفت بالشجرة، لينقاد في إستحضار ذكريات الماضي، ذكريات فيها خصب الروح بروعة أنيقة، لم يستطع أن يخلص ذهنه منها، فتمثلت له صورة هنار تبتسم قبالته. صورة فيها نبض الحياة، فيه أيضا رائحة نبض الأرض التي ينتمي إليها مثلما تنتمي شجرة البلوط. هكذ أصبح التوحد حميما مع الكل الكوني الذي استكشف ميرزا فيه وحدة وتناقض الموت والحياة. لكن صورة هنار الحية بدأت تتراجع خفاقة محلقة، وتختفي فوق سلسلة الجبال، ولم تلوح أمام عينيه. إنه كان يرى فقط سلسلة الجبال ممتدة بلا حدود أمام ناظره.

بعد برهة مرتكبة قلقة برزت له أنثى الماعز الجبلي من بين الصخور، فسرت رعشة غامضة في جسده غير مصدق ما

يرى. أغمض عينيه، ثم فتحهما، فوجدها واقفة صامتة تنظر إليه برقة. حينئذ أدرك أن وجودها لم تكن رؤيا، ولم يكن ذلك أي تخيل من ذاته الأنا، بل إنها حقيقة وجود تظهر له في لحظة الاستغراق في التأمل. كانت أنثى الماعز تطرف بعينيها الكبيرتين اللطيفتين كأنهما تلوحان له عن تعبير ما. لم يدرك ماهية هذا التعبير. تلك كانت لحظة غريبة جدا. إذ ما لبثت النظرات أن تحولت إلى لغة خفية تحمل في داخلها أصواتا وديعة صامتة:

- انظر إلي!

شعر ميرزا بأنه أصبح خاضعا لنظراتها السحرية، فأصابته الدهشة والذهول في آن واحد من أن نظراتها قد أطبقت عليه بصمت، وهيمنت عليه برهافة. حينئذ لم يدرك كيف انطلقت من شفيه الكلمات:

- هذا أنا الفقير، أنا هو الكائن الفقير.

وفيما بعد،اصبح الصمت مدهشا بينهما في تعابير العينين بألغاز وجود الكائن الحي بتناغم الأرواح في نبض الحياة التي تجذب الأحياء في علاقة حميمة كما استشعرها ميرزا، عندئذ واجهها بنظراته، وثبت تحديقة طويلة في عينيها. لم يكتشف إلا أن عينيها كانتا أشد ذهولا، وقد ثبتتهما صوب عينيه، فصارت نظراتهما هادئة جدا تلتقي بانشداد واهتمام لا حدود له في تعبير مشترك:

- أنا أكون مثل الذي يكون. هذا أنا. أنا هو.

وبعد حين، ندت منها حركة عجيبة، ومالت برأسها، ثم قفزت قفزة واحدة ، وابتعدت متوارية عن نظره بين الصخور. آنئذ اكتشف ميرزا أن كل كائن حي يمتلك سره الكوني، وأن هناك إندماج في الوحدة الكونية، فنهض بتثاقل، وسار بخطى وئيدة بين الأشجار، والصخور، وفوق الأعشاب، ثم هبط نازلا بتأن، ليقف عند عين ماء في مدخل قرية بربور، وهو يتأمل تدفق المياه المتلألئة الرقراقة. كان ميرزا يتأمل روعة، ونقاء المياه التي كانت ترفرف فوق سطحها فراشات ناعمة بألوان زاهية. تلك كانت أيضا لحظة مثيرة لقلبه النقي المترع بالأمل أن يستقبله شخص ما بالترحاب. مشى ببطء، وقد تصارعت في داخله نزعة جارفة بين الأمل الوديع والرهبة المتوجسة من أن لا يكون هناك أحد في استقباله. توقف أمام بيت، وقال بصوت مسموع:

- طعام ايها المحسنون.

فجأة خرجت امرأة عجوز، وراحت تطيل النظر إليه. نظراتها كانت وديعة، مليئة بالرفق والسكون. لم تمض لحظات، فقد دخلت إلى البيت، وجاءت بالخبز والبصل، فمد يده إليها، وتناوله، وهو يستمع إلى صوتها الوديع، المهذب:

- هنيئا لك الطعام، أيها الفقير.

أخفض بصره، وقد وضع الطعام في الكيس، وهو يقول:

- باركك الخالق العظيم أيتها الأم الكبيرة.

بعد حين استأذن الانصراف، وسار في دروب الاستجداء متابعا جولته بين القرى، وقد جمع طعاما يكفيه لسد جوعه، وهو يرتقي إلى كهف الهنود (شكفت هندوا) الذي يقع خلف معبد لالش، ليقضي ليلته فيه. هذا الكهف الذي سكنه فقراء الهند الناسكين الزاهدين بعد أن سمعوا ببركات الشيخ آدي، فجاءوا

إليه عابرين حدود البلدان، وهم يستكشفون الطريق بتلك النجوم البراقة لتدلهم على الطريق إلى لالش، استقبلهم الشيخ آدي بحفاوة، خاصة وقد وجدوه غزير العلم والمعرفة، زاهدا يلبس الخشن، ويقتات القليل من الطعام حتى هزل جسده، فإذا انحنى طقطقت عظامه، وأيضا وجدوه كثير التعبد للإله الواحد، وكثير الصوم صيفا وشتاء والتي اطلق عليها اربعينية الصيف، وأربعينية الشتاء. آنذاك حجوا متبركين في عين زمزم.

ها هو ميرزا في وقت الليل قد خرج من تحكم الجسد، وبدأت تتحكم فيه الروح النقية مقتربا إلى الإله الواحد الكوني في ملكوته الأعلى، ليكن أيضا هو الكائن المجرد، المتحرر، المتوحد مع الكائن الحي الذي له نفس في وحدة وجود، فهذه مرتبة الورع قادته أن يرفع بصره إلى السماء، وينعتق من ذهنه، ويتسربل بالسماوي الأزرق كأنه مولود من نوره، فراح يبحث عن نجمه بين آلاف النجوم. أجل، يبحث عن نجمه الخاص ويتلبس بنوره الساطع بومضات نقية من علوه الشاهق، وليغفو تحت سطوعه، ويذوب دون عناء قلب، دون ألم، دون عذاب، وليظهر غدا في لالش بروح منغمسة بنور الوجود الكامل.

الفصل السادس عشر

برات الإخوة والتسامح

منذ أن كانت الأرض وما فيها من أسرار كان لالش الموطن الأول كخميرة الأرض مزين بالخضرة والنور والحياة، وقد تعاقب عليه الليل والنهار، وكان الخصب، وكان العطاء،وكانت ثمار الأشجار، وصار لالش مستوطن الزاهدين الأتقياء الصالحين. هكذا يعتقد الأيزيدي، ويعتقد أن الخلق بدأ بعناصره الأربعة ـ الماء والهواء والتراب والنار ـ فتراب لالش مقدس عند الأيزيدي، وكل ما فيه مقدس، وتجري فيه الحياة بسلام، وهو أيضا ملجأ الإنسان عند الطوفان بعد أن يكثر الإثم ويكثر البلاء، فمن تراب لالش ومائه إختار الأيزيدي البرات كعطية مباركة، وهي كرة طينية مدورة صغيرة بيضاء واحدتها تشبه البندقة، فبقدسيتها وكرامتها تجعل الأيزيدي صابرا عند الجزع، وهو يحملها أينما حل، ورحل لأنها تعطيه الأمان، وتقيه شدائد الحياة، وعندما يدخل في الصبح يقبلها، ويستعين بها بالصبر على حبس نفسه عن الطعام والشراب أثناء الصيام، ثم يقبلها قبل الأفطار. هي دائما تذكره بالحياء ليمشي دائما على الطريق المستقيم غير ملوث بدنس الدنيا، وبها تكتمل روحه في الخير، وتغذي قلبه بالصفاء، ولذلك يضعها في يده، ويحلف بها عند الخصام مع أخيه الأيزيدي، وهو القسم الصادق دون خداع أو نفاق أو غشُ ثم يجري تبادل البرات رمز الإخوة والتسامح. حين يختار الأيزيدي أخا الآخرة يضع البرات في قدح، ويسقيه الأخ الماء بيده، وكذلك حين تختار الأيزيدية أخت الآخرة تفعل نفس الشئ، ولا يضع الأيزيدي البرات في يد زوجته لأنها سوف تتحول في الشرع إلى أخت، وتحرم عليه كزوجة، وعند

الطلاق يضع الرجل البرات في يد زوجته، فينفصل الأثنان كطليق وطالق، فالبرات يوزعها البابا شيخ على الأيزيديين عندما يزور القرى ليدوم التسامح والسلام، وتدوم الأخوة في الأمة الأيزيدية، وتوزع أيضا أثناء جولات السناجق (الطاووس) بين القرى، ثم في جولات فقير النواقيس، وكذلك يوزعها السادن في شيخ آدي على الزوار أثناء الأعياد، ليقدموا هداياهم إلى لالش، ولتبتهج قلوبهم في الزيارة.

الآن، تبعن إثنتان من العذارى الفقيرات ميرزا في مدخل كهف البرات (اشكفتا برات) الضيق، وهن يزحفن تارة وتارة أخرى ينحنين في المدخل المظلم حاملات أدوات الحفر، والمنخل، وكيسا أبيض، وقطعة قماش بيضاء بينما كان ميرزا يحمل بيده الشعلة الذهبية التي تسمى (الجقلتو) الذي هو طبق صنع ليحتوي على زيت الزيتون، وكذلك الفتائل معا بترتيب يستطيع منه أن يغمس الفتائل، ويشعلها بسرعة، وأيضا يستطيع أن يصب الزيت في القناديل، فتنبعث شعلة لاهبة صغيرة مقدسة.

الآن، صارت تبث هذه الشعلة نورا سحريا يتعالى في تناغم مع سكون الكهف المظلم بعد أن تم تجاوز ممره، ووقف الجميع في فنائه يتطلعون إلى جدران الكهف، وإلى الصخور والأحجار المنتشرة فيه. حينئذ راح نور (الجقلتو) يكور نفسه كهالة ضوئية من ذاته. هالة كأنها اندماج بين لون الشمس الذهبي ولون القمر الفضي، فصار الكهف يشع بالنور والضوء معا.

لم تمر لحظات حين وضع ميرزا (الجقلتو) على صخرة صغيرة تاركا عينيه تستحمان في الهالة النورانية، ثم تستغرقان برؤية تأملية للجدران، وهو غارق في صمته وذهوله. بعدها شرع يغذي (الجقلتو) بالزيت من خلال المغراف الذي فيه، ليكون النور والشعاع هما المرشدان في ظلام الكهف، لرؤية الجدران التي تغوص فيها الحفر منذ قديم الزمان كذكرى لتلك الأيادي التي نبشت التراب منها. تلك كانت أيدي سدنة المرقد التي صار يراها ميرزا عبر الزمن أشبه بأطياف بيضاء تحفر في الجدران مما جعلته يغادر وجوده في هذه اللحظة بالذات، وأن يسافر بذهنه عبر الزمن المستحيل ليرى وجوها وقورة ممتلئة بالحكمة والمعرفة والزهد، وهو يردد مع نفسه:

- أنهم ربحوا المجد.

لكن لم يكن في ذات اللحظات وقت للتأمل، ولم يكن هو يقدر أن يكون وحده كي يتأمل، فلصق خده الأيمن فم الأيسر على الجدار، وقبله، وهو يشم رائحة طيبة ثبتت السكينة في نفسه. حينئذ مر يده على الجدار بلطف، ومسح بها وجهه، وقد بدأ ترديد دعاء التراب مع الفقيرات بصوت واحد:

باسم الخالق الأعظم، نستخرج التراب من مستوطن القدماء

نجعله برات ينعم بها فيه القلب الصافي في السراء والضراء

ولتكون النور المرشد تسقي الروح كأنها الشجرة الخضراء

وليكن الأيزيدي بها صابرا أثناء الجزع، و تعطيه الحياء

وأخذ يحفر في الجدار بمعول صغير، فتبعثر التراب على رأسه ووجهه، وتعلق منه في رأسه كما لو أنه يجلله حتى بدأ في استخراج التراب الأبيض بينما كانت الفقيرة تجمعه، وكانت الأخرى تغربله في منخل ، وتصفيه، ليبدو نقيا ناعما ثم تضعه في كيس أبيض هتى امتلأت ثلاثة صغيرة، فحملوها على أكتافهم خارجين من الكهف تارة زاحفين وتارة منحنين في ممره، وقد استقبلهم (بابا جاويش) مع عائلة الفقير الكبير مع مجموعة من الفقيرات ومن بينهن الأمة كاباني (داي كاباني) التي تكبر الفقيرات في المعرفة والمكانة الدينية.

هكذا وجد ميرزا نفسه واقفا أمام بابا جاويش دون أن يستطيع أن ينطق الكلمات، فوضع الكيس على الأرض مثلما فعلت الفقيرتان بينما كان بابا جاويش يتطلع إليه بفرح، وهو بلحيته السوداء، وزيه الأبيض الكامل بخرقته البيضاء المقدسة المتميز بها وهي خرقة شيخ شمس الدين. بابا جاويش هو الناسك وخادم مرقد لالش، والمسؤول عن شؤونه الدينية وتنظيف المرقد ومحتوياته، الأعزب الذي لا يحق له الزواج، الذي يقدم خدماته الجليلة طيلة حياته في المعبد، وهو الذي يطلق عليه الفقيرات اسم الأخ، راح يطيل نظراته كما لو أنه يتفحص وجه ميرزا، ثم راح يقول بصوت خافت:

- بوركت الأيادي.

بدأت الأم كاباني تقدم تعاليمها للفقيرات بتهيئة الملح والتراب لإعداد العجينة، فرحن الفقيرات بخلط الملح مع التراب لأن الملح يعطي البرات قوة وتماسكا وصلابة بينما ذهب بابا جاويش مع ميرزا إلى جلب الماء من العين البيضاء وكل واحد يحمل بيده الدلو. وقفا بخشوع ثم راح بابا جاويش يتلو دعاء العين البيضاء، ثم طأطأ دلوه في العين، وملأه، وعمل نفس الشئ ميرزا صامتا، وعادا سوية إلى الأم كاباني وكل واحد يمشي بدلوه المملوء ماء كي يستسقي به التراب والملح، وبه أيضا تعد عجينة البرات.

صب بابا جاويش الماء في طشت كبير يحتوي على التراب والملح بينما كانت الأم كاباني تحركه بمقراف خشبي كبير وسط هلاهل الفقيرات بينما كان ميرزا يتفكر بالبرات، فراح يهمس مع نفسه: البرات المقدسة. انتبه إليه بابا جاويش، وبادره مستفسرا:

- ماذا تقول؟

لم يعرف ميرزا كيف انفلت من فمه سؤال محير:

- من هو أول من حمل البرات يا بابا جاويش؟

استغرب بابا جاويش لهذا السؤال غير المتوقع، فلزم الصمت برهة، وأدرك أن هذا السؤال يحتاج إلى توضيح، لذلك دعا ميرزا إلى غرفته المتواضعة البسيطة التي يعيش فيها وحيدا واهبا حياته في خدمة المرقد، وقد حرم نفسه من الزواج. جلسا على بساط، وراح بابا جاويش يتحدث بلغة وقورة تنم عن إدراك عميق بقدسية البرات:

ـ يا ميرزا أن البرات بيضاء في لونها، وهي بذلك ترمز إلى الدرة السماوية الأولى التي ابتكرها الخالق العظيم من ذاته، وقد احتفظ بها أربعين ألف عاما، ثم رماها، فتفجرت، فكانت السماء بأفلاكها، وكانت الملائكة السبعة، ورئيسها طاووس ملك، فكان معه لوح القدر المقدس الذي يحفظ كلام الباري تعالى، وبه أوامره، وبه يأتمر طاووس ملك، ثم بعد حين كانت الأرض، وكان لالش خميرة الأرض دون دنس، وكانت مياه العين البيضاء أيضا دون دنس، فأصبح لالش ينبوع الحياة، وموطن الأيزيدي الأول حيث زرعت فيه أول بذرة حنطة لتكون غذاء الإنسان الأول، وليتواصل جنس البشر، ثم اصبح لالش موطن الأشجار ذات الثمار، والنباتات ذات الأزهار، والطيور ذات الأصوات المغردة، والحيوانات ذات الألفة مع البشر، فلذلك كل شئ مقدس في لالش حتى الحجر. أجل، لوح القدر هو ينبوع الحكمة، وهو محفوظ في خزانته السماوية، يقرأه فقط طاووس ملك، لأنه وحده يستطيع أن يقرأه، ففيه روح الحكمة، وفيه الهداية للبشر لأنه كلام الباري الأعلى، إذ منه يوحي طاووس ملك إلى الملائكة السبعة، وهذا يتجلى في أبهى صورة، وأبهى نشوة روحية، ليمتلأ الكون بالخير، فالكون يمتلأ بأرواح خيرة كما يمتلأ بأرواح شريرة، وبينهما صراع دائم لا ينتهي إلا بإنتصار الخير على الشر في لحظة نهاية العالم، لذلك لابد أن يمتلك الأيزيدي البرات أينما رحل، أينما يكون. أجل، أن تكون معه في الأفراح والأحزان لأن هذه البرات تجسد قوة وسلطان الخير، وتطرد الأرواح الشريرة، وأذاها، وبها يعيش الحياة، ويعيش لحظات الموت حين ترتفع روحه إلى الأعالي مرفرفة، متناسخة في أشكال أخرى حسب إفعاله الدنيوية، فإذا كانت خيرة قد تحل في طائر وإذا كانت سيئة قد تحل في ذئب،

لذلك نحن نرفض الجشع، ونرفض الكذب والغش، ونتجنب الأشرار، لأننا نحب السلام والخير للبشر.

كان ميرزا يستمع بانتباه وتركيز إلى حديث بابا جاويش مأخوذا إلى عوالم متعددة في البراءة والصدق، وقد أدخله الحديث إلى منطق الحكمة مما أسبغ كلام بابا جاويش عليه نشوة روحية قادته إلى الحدث التاريخي الذي تناقلته الألسن عبر الأجيال ألا وهي ليلة البراءة ـ التي يسميها الأيزيديون (الشف برات)، فتبادر بالسؤال:

ـ ماذا حدث في ليلة البراءة (الشف برات)؟

هز بابا جاويش رأسه، ثم مسد لحيته السوداء، وبدأ الكلام بدعاء قصير، ثم قال:

ـ عندما جاء الشيخ آدي إلى لالش أحدث تجددا في الديانة الأيزيدية بما يتناسب مع ذلك الزمان من منطق الحكمة التي تراعي مفهوم الإجتهاد في الدين، فصار عندنا عين زمزم، وصار عندنا جبل عرفات، وصار عندنا التصوف والزهد وصوم الأربعينية، وقد بارك أولياء الدين الصالحين هذا التوجه مع الحفاظ على أولويات الإصول، وقد اعتبروه تكريما روحيا من الملك طاووس، لكن بعد وفاته ظهرت فئتان متصارعتان حول السلطة الدنيوية ومنطق الإجتهاد، إذ الفئة الأولى وهي الآدانية كانت تدعو إلى الإنفتاح والتجديد ليكون متلائما مع تطور العصر، ولتكن الصلاة متوجهة نحو قبلة أبراهيم الخليل أبو الأنبياء أما الفئة الثانية وهي الشمسانية كانت تدعو إلى التمسك بحكمة الماضي، وأرادوا أن تبقى الشمس كما كانت هي

القبلة التي يتوجه إليها الأيزيدي في صلاته، فهي النور المتجلي من قدرة الباري الأعلى. آنذاك قرر الأولياء الصالحون أن يعقدوا مناظرة عقائدية في لالش، ويتجادلوا حول قضيتين: السلطة الدنيوية، والإجتهاد الديني. لا أحد يعرف عما دار في هذا الاجتماع الذي استمر الليل كله، لكننا نعرف أن الإخوة الأيزيدية إزدادت صلابة بين الطرفين، واهتدوا إلى توافق روحاني صار يتغنى به الأيزيديون، إذ خرج الطرفان من الاجتماع بفرح لا مثيل له، فقد ذهب الآدانيون متباركين إلى عين زمزم، ويقال دون أن أتأكد من ذلك أن الآدينيين أوقدوا شمعة كبيرة، وتوجهوا في صلاتهم نحو قبلة ابراهيم الخليل، إنهم صلوا ست مرات دون ركوع، وقد لامس جبينهم الأرض مرة واحدة، وسميت تلك الصلاة صلاة الشكر تجسيدا للمحبة بين الآدانيين والشمسانيين، فصارت هذه الصلاة تقليدا يمارسه الآدانيون في ليلة البراءة من كل عام حسب التقويم القمري، وصار الأيزيديون يسمون تلك الليلة بأسماء كثيرة: ليلة القدر، ليلة المحيا، ليلة الشكر، ليلة الإخوة والسلام. أما الشمسانيون في تلك الليلة، فقد ذهبوا إلى مرقد شيخ شمس، وتباركوا به، وقد التقى الطرفان عند العين البيضاء في الفجر، فرقصوا سوية رقصة (السما) الخالدة وسط هلاهل الأيزيديات وعزف الناي، وضرب دفوف الفرح، ثم فيما بعد ذلك أكلوا السماط المبارك، وابتهج الشعب الأيزيدي بهذا اليوم، لذلك صارت تذكر تلك الليلة بليلة البراءة (الشف برات) بكونها ليلة الإخوة والسلام، وصارت رمزا خالدا تعد فيه البرات دون أن ينام فيه الأيزيديون في تلك الليلة، فيقضونها فرحا وابتهاجا وعبادة، ولذلك يسمي الأيزيدي الليل باسم شيخسن، ويسمي النهار شيشمس.

أجل، تلك الليلة كانت ليلة الإشراق بعد إجتهاد النفس الأيزيدية، وبعد تجردها من ملذات الدنيا، وتجردها من الخلاف والنزاع حول سلطتها. حينئذ ابتهل الأيزيديون لنور الخالق الأعظم، وهو النور الأول، وهو النور الأعلى، وهو نور الأنوار، واتكلوا على قدسيته وحكمته، فأنعم عليهم الفطنة من فيضه، ليصلوا إلى الغاية برقة القلب، والمحبة. أجل، يا ميرزا، عندما القلب الصادق يشتاق إلى مقام نور الخالق سيلتمع الذهن في وقاد إشراقي، وسوف لا يرى الظلام، بل سيرى الكون وحدة كاملة في جوهر النور الخالد. هذا النور لا ينطفأ أبدا، هذا النور هو مصدر كل الأنوار في الحكمة، والوجود الكوني، والمعرفة. أجل، ذلك كان الطريق الأمثل والأعدل في تسوية الخلاف بتجلي نور الأنوار، وترك المنازعة في استواء النفس.

تلك كانت لحظات رائعة قادت تفكير ميرزا إلى حدث فيه منطق الحكمة الواعي الذي فيه تجاوز الآدانيون والشمسانيون الخلاف مما أدخل حديث بابا جاويش الفرح إلى قلبه لكنه في تلك اللحظة المهمة تطلع بابا جاويش إلى وجه ميرزا الذي وجده يغوص في البراءة والفطنة ثم قال:

- لنخرج، ونرى ماذا فعلت الأم كاباني!

وجدا أن العجينة قد اكتملت، وسوف تترك لتتفاعل بين الملح والتراب والماء، ثم سوف تجتمع عائلة السفيل مع أفراد عائلة الفقير السادن في لالش في أحد السطوح بعد أن يتم نقل العجينة إلى أحد السطوح وسط تلاوات مقدسة وأدعية طقوسية بهية تمجد لالش، وتدعوا إلى وحدة الشعب الأيزيدي في الدروب الصعبة. آنذاك تقوم الأم كاباني بمهارة يديها النقيتين

في صنع البرات بالتعاون مع الآخرين، ويتم وضعها على قماش أبيض نظيف، وتترك تحت أشعة الشمس، لتجف، ثم يتم نقلها إلى مكانها المخصص، وهو بناية (ستيائيس) وتوضع في دلو الذي هو مخزنها المقدس.

فيما بعد انفرد ميرزا بنفسه، وهو يغذ السير في طرقات لالش، وكانت الدموع تترقرق في عينيه، وهو يستنبط الكلمات من حديث بابا جاويش، فأخذ يردد مع نفسه: نور الأنوار، إشراقة النور، حكمة الإشراق، الفيض السماوي، حكمة الإنسلاخ من الدنيا. بغتة وجد نفسه على جسر الصراط، وقد أدرك أن كل ذلك لا يتم إلا أن يتشرب قلبه بالمحبة لكل ما هو موجود في مشاهدة نورانية عميقة من ذات النفس، لتبدد ظلام الدنيا. أراد لقلبه الشغوف أن يتحد مع كل نور، فكل الأنوار هي من نور الخالق الأعظم. لكن قلبه كان يشتاق أيضا إلى نور هنار، فلم يقدر أن يفهم إنها ماتت، وهذا ما كان يكتمه في داخله، ولم يبح به إلى الفقير أو بابا جاويش أو حتى إلى الفقيرات العذارى، فكان يرى هنار روحا نورانيا تطير بأجنحة دون ريش أو نجمة زاهية تمشي فوق المياه. أجل، كان ينصت أحيانا إلى رجع صدى يمتع به نفسه، وهو ليس إلا صدى نفسه يتمثل له، ثم يتركه في غياب كي يغوص في دموع غزار، ونواح صامت. هكذا كان ميرزا يبحث في عينيه عن هذا النور، ويستكشفه في قلبه. قلبه يرتجي أن يلتقي هنار.

الفصل السابع عشر

تجلي شجرة الهرهر

مرت الأيام هادئة في لالش، وقد اندمج ميرزا في عالمه الجديد حيث وجد فيه متعة روحية كبرى، ووجد فيه أيضا طقوسا حميمة إلى قلبه. تلك التي كان يؤديها في نشوة عجيبة، ففي كل يوم حين ضوء النهار في عبور إلى الفراق، وحين الشمس تميل إلى الغروب، وقبل أن يحل ظلام الغسق كان ميرزا يبدأ جولة قدسية النور. تلك الجولة وجد فيها متعة تشف إلى قلبه بشغف، وهو ينطلق حافيا إلى جرار زيت الزيتون في المرقد، ويغرف الزيت من جرة فخارية قديمة عاصرت أجيالا كثيرة بمغراف هيئ خصيصا لتعبئة الزيت الذي تم إعداده من ثمار أشجار الزيتون المنتشرة في لالش، فيملأ (الجقلتو) ببهجة لا مثيل لها، وينطلق حاملا (الجيقلو) بيده اليسرى كأن نورها يمر عبر عينيه إلى جوف روحه، وهو يطوف باحساس جميل بأنه يحمل شعلة العرش الدنيوي ـ السماوي بروحه الصافية الورعة، مغمسا الفتائل بحركة سريعة عجيبة، واضعا إياها أمام المزارات والقبب والنياشين دون أن تفوح رائحة، ودون أن يتصاعد دخان كثيف منها، وهو يردد بصمت:

ـ لالش مضيئة في ظلام الليل.

أما في يومي الأربعاء، والجمعة فيزيد من عدد الفتائل التي يضعها في أماكنها لتشمل أيضا حافات الكوات، وفوق الصخور، وقرب الأشجار، وفي الأزقة كي تكون لالش زاهية

في تلألؤها ببريق الأنوار في جوف الليل، ولأن هذين اليومين لهما شرعية مقدسة في النفس الأيزيدية. آنذاك يتملك ميرزا شعور بأن الشعلة المقدسة باهرة جدا، وأن نورها وهاج كرمز الشمس الأبدية. أجل، كانت روحه تنتشي بجولة الشعلة المقدسة، ففيها لغة صامتة وديعة تتجاوب مع ومضات الضياء:

ـ مباركة أنت أيتها الشعلة في قدسية أبدية.

أما في هذه الليلة التي أنجز فيها ميرزا خدماته نام في شعاع بريق القناديل الذهبية حيث رأى في منامه شجرة الهرهر الخالدة التي هي مسكن الأبدية عند الأيزيدي، والتي حط عليها طاووس ملك في زمن بداية الخلق والتكوين، فكانت جذورها في الأرض، وأغصانها متجهة للأعلى صوب السماء، فهي شجرة الأرض والسماء الأولى الوحيدة في وسط الظلام حين كان الوجود كله ماء.

أجل، جاءت شجرة الهرهر إلى ميرزا في منامه ظاهرة بهيئتها الكاملة، أنها مرئية في عينيه. يراها في التمام والكمال. هي شجرة الهرهر نصفها يقع في النور لأن أغصانها تكاد تكون مستقيمة، لها سبع أغصان، وفي كل غصن سبع أوراق، وسبع ثمرات، إذ فوقها القمر، والشمس، والنجوم الساطعة التي أنوارها تشبه ياقوتا أحمر، وتشبه ياقوتا أصفر، وتشبه ياقوتا أبيض. كل غصن يحمل أنواع الثمار، وأنواع المأكولات. أما نصفها الآخر فيقع في الظل لأن أغصانها ملتفة، وفيها أنواع الفواكه، وأنواع الأطعمة.

أجل، هي شجرة الهرهر، فيها أغصان بيضاء وحمراء وصفراء. هي شجرة ليست كشجرة الدنيا، فهي تحمل كل أنواع الثمار، فكانت شجرة رمان، وفيها تين، وفيها زيتون، وفيها

بلوط. هي شجرة زيتون، وكانت شجرة كرمة، فيها عناقيد عنب، وفيها ثمار لم يرها ميرزا سابقا على الاطلاق.

أجل، شجرة الهرهر هذه كانت شجرة الخلد والخير، وكانت شجرة طاووس ملك التي كان أكل منها، وكذلك أكل الملائكة منها.

آنئذ تكور ميرزا في منامه، وصار في داخل صورة اخرى، فقد أخذته رؤيته في شكل آخر كما لو أنه المسخ بحد ذاته، وهو يتأمل شجرة الهرهر، فلم يعد له جسد ، ولم يكن له أنف يتنفس فيه، ولا فم ينطق به، ولا عين ينظر بها. هو في منامه كائن غير بشري، كائن هلامي في رؤية الميت الحي، فالحياة تولد بعد الموت، وتتناسخ، وتنتقل، وتتقمص شكلا آخرا في جسد نقي آخر. أجل، هذا ميرزا الحي في منامه يتنفس، وبرى فيما وراء الكون، وتتجاوب معه الصور، والألوان، والأصوات الصامتة. لم تكن شجرة الهرهر إلا صورة محبوبة إلى قلبه في منامه لتهدهد روحه المسحورة بنوى أصم مثل نهر يتأوه بصمت.

الآن، يرى ميرزا، ويسمع في انسجام متكامل، فتقدم إلى شجرة الهرهر ببطء مضطرب، وحين بلغ ضوئها مد يده المرتجفة تحت غصن منها، فجاءه صوت رهيف خافت منعش أشبه بترنيمة نسيم:

- لا تخف، لا تخف، متع نفسك بثمرة الخلد.

فجأة نزلت حبة زيتون متلألئة في راحة يده المفتوحة، فوضعها في فمه، عندئذ ساغت ذائبة في حلقه بحلاوتها لتكون

أحلى من العسل، ولتجر في دمه وجسده رائحة طيبة أذكى من عطور الأرض.

لم يتمكن ميرزا من النوم هانئا في هذه الليلة حين تبددت الرؤيا تماما، بل كان نومه أشبه بارتعاشة قلقة سرت في جسده، فتصبب جسده عرقا، وهو يتقلب من جنب إلى جنب. بغتة انتفض من فراشه، ليجد نفسه أنه استيقظ متأخرا في الصباح، ولم يعرف كيف خرج إلى الفناء بملابسه الاعتيادية دون الخرقة السوداء، وكذلك ليجد نفسه يقف على نحو غير متوقع وجها لوجه أمام بابا جاويش، فقد استغرب بابا جاويش أن يرى ميرزا منهكا بشئ ما، ومشبعا بالقلق كأن هناك أسى غريبا ينتابه، فقد ساد صمت ثقيل بينهما لحظات، ثم بعد لحظات أخرى قال بصوت فيه ترنيمة وديعة:

ـ الأخوات الفقيرات ذهبن لجمع الأعشاب البرية.

ارتعشت شفتا ميرزا خجلا، ورفع عينيه، فرأى الشمس شاحبة، فاترة في صعودها من مشرقها لكنها بدت له إنها تبعث دفئها، وتدغدغ وجهه مثلما كانت تلفحه نسمة هواء باردة منعشة، فأدرك إنها بداية الخريف، فتنهد، ونطق الكلمات:

ـ أنا سأذهب لجمع الحطب.

تناول ميرزا فطوره لوحده، وفيما بعد ولج إلى غرفة الأدوات، واستخرج منها الحبال. حينئذ انطلق مرتقيا جبل مشت بينما كان بابا جاويش يتابعه بنظرات حنونة وديعة، حيث أثار انتباهه تعلق ميرزا بجميع الكائنات، وألغاز الكون. أجل كان ميرزا يهيم في الجبال الرحبة، الحميمة، ينفرد بنفسه،

ويراقب كل شئ بنفس متوهجة، متحمسة، لازما الصمت المطبق، منفرطا خياله في أشياء لا تخطر على بال أحد. كان يلتمس العجيب الغريب من الجبال، وهو يتوغل أعمق فأعمق في تأمله لطائر يرفرف قريبا منه أو زهرة انبثقت بين حافات الصخور. كان دائما ينظر أمامه شاردا متغلغلا في أعماق وصور مجهولة. ذات مرة رآه بابا جاويش واقفا كالجامد في شرود تأملي، وهو يردد في داخله:

- ماذا يبحث؟

كان ميرزا يتكلم مع نفسه بين الحين والحين بصوت خافت، وإذا تكلم مع أحد كان كلامه قليلا، بل ويغمغم أيضا مع نفسه كأنه يتجاوب مع همهمة أوراق الشجر حين تهب أنسام طيبة. لم يشرك أحدا في عالمه. كان وحده المشغول في شئ ما، وحده الموجود في عالم خاص.

كان ميرزا يصعد إلى سفح الجبل حاملا الحبال على كتفه، وهو يبحث منحنيا على أغصان جافة أسقطتها الرياح من أشجارها. بغتة سقط شئ بين قدميه. شئ يبرق نورا، فانحنى يريد التقاطه من الأرض، فإذا به يتبدد في الأرض. اعتقد أن هذا لم يكن وهما في دنيا خياله، وإن ما رآه ليس حقيقيا، تأمل الأرض برهة، ثم رفع رأسه مستغربا، ومندهشا إلى السماء باحثا عن قطرة مطر قد تنزلق منها. لم ير إلا سحابة وردية ذهبية بديعة في الفضاء. لم ير مثلها سابقا، ولا توجد سحابة أكثر إشراقا منها في السماء كأنها تمتزج في عناق مع ضوء الشمس الذي كان يتسلل برشاقة باهتة عبرها، ثم بعد لحظة انبثق بريق باهت حولها. بريق يشبه هالة ذهبية سماوية جعلت

ميرزا يراها مثل ياقوتة وردية مطهمة بالذهب . كانت الدهشة قد ألقت بظلها على ميرزا دون أصداء فأخذ يردد بخفوت:

ـ الشمس دائمة الدفء، دائمة العطاء.

كان ذلك أكثر من دهشة، وأكثر من إعجوبة، وكل ذلك كان أشبه بحلم يقظة في نغمة بداية الخريف، فقال مع نفسه:

ـ ما أروع السماء!

استطاع أن يجمع حزمة حطب، ويلفها بالحبال كي يكون في مقدوره أن ينقلها على ظهره إلى أسفل، وقد خال في ذهنه بعد المشهد السماوي أن رحيق روح هنار كان يسبح فيما وراء السحابة، ويتجاوب مع رؤية عينيه اللتين كانت الدموع تعتصر فيهما، وهو يحلم أن يحلق عاليا برشاقة مثل طائر السنونو، ويلصق شفتيه في السحابة، ويضمها إلى صدره، ويشبع روحه فيها بعذوبة وحنان. فجأة ذرف دموعا زهيدة كي يغسل عينيه، ثم اعترته دهشة حين سمع تغريد طائر يقترب منه. تطلع حوله، لم ير الطائر لكنه عرف الطائر المغرد. إنه طائر السنونو العجيب الذي كان يحظى بمنزلة كبيرة عند الأيزيدين، وعند أيزيدي بحزاني بالذات، فهناك يبني أعشاشه تحت السقوف دون خوف، يبنيها جديدة بالطين النظيف، والتبن النظيف الذي يبحث عنه في المزارع، وعندما لا يجد طينا نظيفا كان يلقي نفسه في عين الماء الرئيسية غير الملوثة، ثم يحلق إلى خارج القرية، ويتمرغ في التراب حتى يثقل جناحيه، الممتلئين بالتراب، ويعود إلى السقف جامعا التراب في منقاره، ليكون طينا، فيبني عشه من هذا الطين الذي غالبا ما يزينه بقضبان

الكرفس، لتكون رائحة عشه طيبة فيها نكهة جديدة، وكذلك لتطرد أي طائر لا يستسيغ رائحة الكرفس. وهو لا يحب ما تلقيه الرياح الخفيفة اشياء غريبة كالقش، فيرميها خارج عشه. هو لا يبني أعشاشه في أماكن أخرى إلا في أبعد المواضع وفي ذرى الأشجار، لكن في بحزاني كان يتقرب، ويدنو من أهلها، ويستأنس بوجوده هناك، وهناك كان يحظى بقدسية خاصة، فهو يسمع أهل بحزاني تغريده عند شروق الشمس، ويسمعهم صرصرته المليئة بالشدو عند بداية الشفق الذهبي بينما هم كانوا يطلقون عليه اسم طائر الروح أو طائر الشمس أما جده فغالبا ما كان يسميه الحجي لأنه يغادر في نهاية الخريف إلى بلدان بعيدة، ويعود في بداية الربيع، فهو الطواف، وهو قاطع البلدان.

آنذاك اجتاحت ذهن ميرزا حكاية جده عن طائر السنونو، فراحت تلك الحكاية تحيا في مخيلته في لمحة رائعة مما جعلت قلبه يفيض بالسرور، ويغمره فرح لا مثيل له كان يتناغم مع السحابة الوردية الذهبية المتوشحة بنور الشمس الباهر. سحابة طافية في عرشها العالي دون أن تهوى على الأرض، فرفع عينيه كي تستمتع عيناه مرة أخرى برؤيتها. أجل، رآها تتلاشى في نور الشمس البديع الباهت، وتختفي في صموت ساكن، وفي هدوء سمح، وكذلك رآها تختفي ببطء ثري في عذوبة وسحر، فأدرك إنها تغيب في اللانهائي وحيدة، فقال بخفوت:

- ما أروع ظهورك وغيابك في الهواء!

شعر ميرزا بوهن غريب، فجلس ساكنا على حزمة الحطب، وقد بدا عاجزا أن يستكشف سر السحابة لكنه أدرك أن

هناك شيئا مجهولا يترعرع، وينمو في كامل كيانه. شيئا جعله أكثر إرتباطا بالوجود الكوني، ومخلوقاته. لم تمض لحظات حين بدأ يستغرق في التفكير بأشياء غريبة لم تكن تخطر بباله على الاطلاق، فظل مبهورا وهو يرى تهاوى ورقة من غصن شجرة على الأرض الندية، فأدرك إنها لحظة الموت. تلك اللحظة أثقلت، وشتت أفكاره في آن واحد، واصطدمت في ذات المجهول، فانصاع دون وعي إلى حكاية جده ليتجنب الإحساس المرهف أمام كل ما يراه ويسمعه، ويتجنب كذلك الإدراك العميق للكون ومخلوقاته التي تحيط به، فهو الآن يتذكر الحكاية جيدا، ويتذكر تلك الليلة الخريفية التي فيها سرد جده الحكاية: يا ولدي، في زمن الطوفان الأول حين غمرت المياه الأرض، وحين لاطمت الأمواج الهادرة العنيفة سفينة سيدنا نوح في الظلام، وهي تمخر فوق المياه متمايلة، متأرجحة في القدر. بغتة اصطدمت بسن صخري في جبل (شنكال)، فعم هلع لا يوصف بين مخلوقات السفينة التي حملتها بغية النجاة من الطوفان. إذ أحدث هذا الاصطدام ثقبا في السفينة، وراحت تتسرب المياه إلى داخلها. حينئذ صرخ سيدنا نوح:

- من ينقذ السفينة من الغرق؟

فتطوعت الحية قائلة:

- أنا يا سيدي إذا استجبت لطلباتي ما بعد الطوفان.

لم يكن أمام سيدنا نوح إلا أن يوافق على طلبها بغية أن ينقذ النسل البشري، وكافة المخلوقات من الهلاك، وبغية أن يبني عالما جديدا الذي سيكون الموطن الجديد. عندئذ هبت الحية

خفيفة الحركة قاصدة الثقب، فأدخلت صدرها بقوة فيه، وهي تقاوم المياه، ثم انضمت ضمة بكامل جسدها مما جعلها ذلك أن تسلخ جلدها، ليشتد لحمها، ويعود بدنها أقوى أضعافا، ومنذ ذلك الحين صارت الحية تسلخ جلدها في الربيع أو الخريف، ويكون داخل الجلد هو الخارج.

ثم فيما بعد الطوفان، وبعد أن بدأ سيدنا نوح في تشييد وطنٍ جديدٍ لبى طلب الحية التي أنقذت السفينة. استرخت الحية، وأوحت إلى ذبابة الحمار (كر موزا) أن تمص دماء جميع المخلوقات، وتعلن للملأ الكوني عن أحلى دم في مذاقه. هذا ما حدث في وقتها، وقد اكتشفت الحية أن أحلى مذاق هو دم الانسان. في تلك اللحظة المصيرية، وقبل أن تنطق الذبابة بالسر باغتها طائر السنونو برفرفة جناحيه الطويلين حائما حولها بحركة دورانية عجيبة مما جعلها تسقط في التراب، وتتمرغ فيه، فظن الجميع أن التراب هو أحلى مذاق. أما الحية، فأدركت حب طائر السنونو للبشر، وأنه يهدف من ذلك أن يتآلف معهم دون أن يتعرض للأذى من أحد. نظرت الحية إلى طائر السنونو بحذر، ثم أخرجت لسانها لتنطق عنه بالسر،فأدرك طائر السنونو أيضا من نظرات الحية أنها ستبوح بالسر. آنذاك فتح منقاره الأحمر القصير بقوة فكه في فجوة واسعة منقضا عليها بمباغتة سريعة شاقا لسانها، فصار كلامها نفخا وفحيحا دون أن يفهمه أحد، وكل ما فهمه سيدنا نوح أنها قالت:

- تراب (ئاخ).

هكذا فسر سيدنا نوح كلامها أنها تقصد التراب هو أحلى مذاق، فخاطبها قائلا:

ـ تذهبين زاحفة على بطنك دائما في التراب.

اغتاضت الحية بشدة، ونفخت بشراسة، وهجمت على طائر السنونو، وانقضت عليه إلا أنه استطاع أن يفلت بمهارة منها، فهي لم تستطع بهجومها إلا أن تشعب ذيله، وهكذا صار ذيله متشعبا إلى الأبد، ومنذ ذلك اليوم أصبح العداء أبديا بين الحية وطائر السنونو.

نهض ميرزا من مكانه بعد أن تلاشت الحكاية من ذهنه، وتقدم بخطى ثقيلة وبطء إلى الشجرة الهرمة التي انتزعت الورقة نفسها من غصنها، وسقطت مرتعشة على الأرض. انحنى، ورفعها من الأرض الندية، وراح ينظر إليها صامتا برعاية روحية تأملية كأنه يريد أن يعيدها للحياة، فكانت نظراته زائغة أشبه بمحاولة إستكشاف مضطربة، مثيرة بعد لحظة موتها. تلك كانت لحظة غير عادية في الشئ العادي، إذ فيها تأويل روحي لطيف، وتهذيب نفسي للغور العميق في اللامحدود، فالورقة انفصلت عن غصنها، وسقطت ليس لأنها كانت تريد أن تفارق غصنها. لا، أبدا، لأنها ليس بمقدورها أن تبقى خضراء في غصنها، لأنها من المستحيل أن لا يتغير لونها بعد لحظة الموت، فهي في راحة يده صفراء، شاحبة، باردة، واسبغت بهذا اللون كي تغازل الأرض بموتها، وكي تحتضنها الأرض في إيقاع كوني موحد. أدرك ميرزا لوحده هذا التوحد الكوني وهذه الإدراكية القيمة للكون الذي من المستحيل أن يبلغها أحد دون التوحد مع الكينونة الوجودية. هكذا أدرك أن

الكون يخصه، وهو يتطاوع معه، فهذه أول ورقة يراها تسقط في بداية اليوم الأول للخريف. وها هي تسقط من يده مرتعشة، لتفرش نفسها على الأرض. كان ذهنه الذي يبحر في عوالم الوجود جائع جدا إلى هذه البرهة التي فيها تمدد خياله، واتسع صفاء ذهنه، وخشعت روحه للذات الكلية الكونية الغامضة، فالسماء كانت أنيقة وبارعة تزين الأرض بنورها الذي هو دائما شغوف به، ويعشقه مثلما تعشق الفراشة الزهور.

هذا ما قاد خياله إلى رؤية توهمية تقهر العالم، وهو يعيش طقوسها لذاته حيث كان يتراءى له أن أوراق الشجرة العتيقة انتزعت نفسها بخفة من أغصانها، ونثرت نفسها عليه، وبدأت تغطيه تماما في ترنيمة حفيف الورق، وهو ساكن في مكانه مثل الحجر، ثم تهمس في أذنه، وهو ينصت، ويصغي إلى أصوات متداخلة:

- الحب أرقى شئ في الوجود.

فجأة سمع تغريد طائر السنونو، فتبددت هذه الرؤية اليقظة، لكن في نفس اللحظة انبثقت رؤية أخرى في ذهنه أن أسراب طيور السنونو بأعدادها الضخمة الهائلة كانت تحجب وجه السماء أشبه بسحابة سوداء، وهو يراقب تحليقها، ويحملق بعينيه نحوها، وتملأ السماء بأصواتها، ثم نزلت تحوم حوله ليرى بطونها البيضاء، ثم بدإت تحط على رأسه متدافعة، وتهبط إلى كتفيه، ويستقر بعضها على قدميه، ثم ترفعه من الأرض إلى أعلى دون أن يمتلك جناحين، وهو يقترب من قرص الشمس، وتعود روح هنار ، فيضمها إلى صدره، وهو يردد:

ـ أنا أحبك للأبد.

أجل، هذا هو ميرزا يطوف في خياله إلى اللانهائي، وعبثا حاول التخلص من رؤيا تلي رؤيا لأن نظراته تحمل دائما روحا تحلق إلى السماء. ربما ـ هو مجرد توق أن يحلق إلى أعلى. هو غير القادر أن يحلق إلى أعلى ليكون مثل سحابة عابرة إلى أبعد مدى.

في نهاية المطاف طفق ينظر إلى أسفل، وظل واقفا كالمذهول، إذ كان كل شئ عاديا، فها هو يرى المعبد بقببه المخروطية البيضاء قابعا في الخضرة والجمال، فردد مع نفسه:

ـ هذا هو موطني.

عاد ميرزا إلى حزمة الحطب. حملها على ظهره، ونزل إلى المرقد بأذن مليئة بتغريد طائر السنونو، وبعين مليئة برؤية قدسية للجمال التي هامت في البعد من نور البراءة والصفاء، وأيضا بذهن ملئ بإدراك الكون العميق. تلك كانت ثمرة ناضجة وعظيمة، وضاحة ومرحة.

الفصل الثامن عشر

العالم هنا، نعم هنا

إنه الخريف المديد بأوجهه المختلفة، بلياليه الطوال، وأمطاره الغزار الذي يختال أحيانا بالسكون الغريب، ويختال أحيانا أخرى بالرياح، حينئذ يخلو ميرزا بنفسه في صمت عميق، وتأمل مفرط من جديد. ذات ليلة مظلمة باردة جاءه صوت مرهف عذب وهو في منامه. صوت ساحر تحكم به، فتلقاه قلبه في إتقاد أثير:

ـ أنت، أنت أيها الغافي في الظلام إنهض!

نهض ميرزا مسحورا مثل نبتة يانعة فتية تتبع مسار نور من الظلام. فتح عينيه في دهشة واستغراب، وقد تولاه العجب، إذ لم يعد هناك حجاب يختم الظلمة على عينيه، فها هو يفتح عينيه على وسعهما في نظرة خاشعة إلى نور خالد عظيم في حلم لا ينتهي. أصبح غائبا في فيض نور. ظل مجفلا كالشبح لظل نور الذي اعتقده هبط عليه من العالم العلوي السماوي، ثم بدا ميرزا غريبا جدا عن نفسه كما لو أنه كان معلقا خارج الزمن، ليرى وجها مهيبا في حلة نورانية اسبغت عليه إيقاعا ممتعا بارعا. خيم عليه سكون، وجرت من عينيه الدموع دون أن يحس بها، وراح يرى ابتسامة أنيقة ممتعة فيها وداعة، ولها بريق ساكن، ونظرة تمتلئ بالحياة فيها امتنان وثناء. هذه النظرة كانت فريدة وثاقبة ولطيفة أثارت في نفسه الخجل، فانحنى واضعا يده اليمنى على فمه ابتهالا وخشوعا، وبإجلال في لحظة

عظيمة، عذبة مفعمة بالبشرى. آنذاك انطلقت الكلمات من فمه مرتعشة وببطء:

- أنت ذات المجد الأسمى يا نور الأنوار.

أنت الحاضر في كل شئ يا رب الأقدار.

أحس ميرزا في تلك اللحظة الساحرة البارعة إنه ينتمي إلى عالم عجيب، وهو يقف مدهوشا في هذا التألق النوراني، فأصبح كيانه نورا لم يلطخه شئ. أصبح كل شئ نور شوق بلا حدود، غير مألوف وهو يتكلم همسا:

- هنا كل شئ نور. ما أجملك يا نور الأنوار، يا ليت تدوم!

من أنت الآن، أنا لا أعرفك، أأنا ظل للنور، يا ليت تدوم؟!

استرق ميرزا السمع إلى صوت كأنه أنغام من فم الموجود:

- أنا لست سوى نور.

أجل، كان ذلك نورا خشع له قلبه في ليلة خريفية مظلمة. نور قد تجلى من الظلام والقتام. نور أنطقه في طهارة كأنه يريد منه البهاء، فراح ميرزا يردد مع نفسه:

- هذا نور من الأنوار.

ثم فيما بعد رأى ميرزا بابا متجه نحو الشروق، فتقدم إلى عتبة نيرة، ومد يده، وفتح الباب، وتجاوز العتبة، ودخل حديقة كانت تتوسطها شجرة الهرهر، وتجري فيها المياه، وتترنم فيها

الطيور. تلك كانت حديقة من نور، وقد ظهر وجوده في نعيم الهدوء والجمال والسعادة والسلام. تلك كانت لحظة عبور إلى اللامرئي الذي كان ميرزا ينقب عنه، فاكتشفه في حلم. حلم أخرجه من الظلمة إلى النور بصمت مرح حافل بالأسرار. حلم مدهش وديع سحري في عالم أسمى من كل الوجود. وها هو وجه النور يكلمه:

ـ هنا عرشي، وهذه حديقة المعرفة، لا نجس فيه، لا موت فيه، اسمها نور الأنوار.

ثم وجد يده تمتد دون شعور، لتلتقط كأسا ذهبيا يطفح بشراب غامض. حينئذ رفعه بهدوء إلى فمه، وشرب منه، فأحس بقوة عظمى تتسرب في جسده، وقد تحول جسده إلى نور، وتلاشى من يده الكأس، فأصبح هو وكل ما يحيط به نورا. حينها راح يردد دون أن يفهم كيف خرجت الكلمات من فمه:

ـ أنا شربت من نور الخالق الأعظم.

تلك كانت لحظة حميمة دافئة فيها دهشة لا متناهية، فيها براءة ساكنة، فيها جوهر النور الكاسح الذي يعوم في المجد من فرط صفائه الذي عبر إليه ميرزا في ومضة مضيئة، إذ ثمة كل شئ امتلأ بالنور حيث فيه لا يمكن تميز الأرض عن السماء، لأنه نور غناء، وألق ساطع أترع عيني ميرزا، وجعله ينسلخ عن وجوده الأرضي الدنيوي.

ثم فيما بعد ظهر من جديد وجه النور، ثم ودعه بنظرة رقيقة مهذبة فيها صفاء تام لا يوصف، وبدأ يختفي، ويذوب، ويتلاشى مثل نجم أفل وغاب. عندئذ أدرك ميرزا إنه نهض من

رؤيا، وإنه أضاع نفسه ليندمج في نور الشفاء بلا صدى في شحوب ليلة خريفية ثقيلة متراكمة في ظلمتها، فأوى ميرزا من جديد إلى فراشه، وسرعان ما غلبه النعاس.

هذا هو الخريف المثقلة سماؤه بالغيوم، المغتسلة أرضه الرطبة بالمياه، إذ فيه بدأت تتعرى الأشجار من أوراقها المصفرة في أنين الرياح، وكان ميرزا يراها تسقط عارية في همهمة على الأرض، وتتراكم فوق بعضها، وتتكوم أشبه بتجريد عن غصنها.

هذا هو الخريف الذي كان فيه ميرزا يتحد مع إحتضار الأوراق برؤية استغراقية تأملية من فطرة وجوده كأنه هو شجرة خضراء فتية راسخ جذرها في الأرض لا تستطيع الرياح أن تنتزع أوراقها اليوم. هو ذلك الكيان الذي بلغ ذاته المستغرقة في كل شئ أينما كان، أينما وجد نفسه سواء في الليل العميق أم في النهار القصير، فهو كان يتوحد مع كل شئ بتمعن، ويصغي إلى كل شئ بانتباه لاسيما كان يصغي إلى صيحات طيور السنونو، ونداءاتها، وتغاريدها، وهي تعد نفسها كي تهاجر إلى بلدان بعيدة. كان ميرزا يتوحد مع كل شئ، وكان يجاهد أن تكتمل ذاته كليا في هذا التوحد لأنه لم يكن يقدر أن يكون غير ذلك، فوجوده النقي المرهف تكمن قيمته في هذا الإتحاد، فهو الجذر، وهو الكيان الذي يمتلك نورا يشع لكل المكونات.

أما في هذا اليوم، وهو يوم خريفي هادئ وحميم كانت الشمس تبعث بدفئها. يوم كان يوقظ في ذاكرة ميرزا ذكريات الطفولة، وهو يغذي قلبه الظمأ إليه. إنه يوم بدء عيد الجماعية (جه زنا ـ جه ماي) الذي مدته سبعة أيام، ينكب فيه سدنة وخدام

المرقد على الإعداد والعمل بإندفاع وصمت قبل عدة أيام لتهيئة وتحضير كافة المستلزمات لإستقبال الحجاج الأيزيديين بأحسن حال، وليحتفلوا بإطمئنان وسلام. إذ كانت حشود كبيرة تتوافد على لالش من كل صوب وحدب سواء تلك التي تهبط من قمة (سلافكة) أم من الطريق العام وسط الأهازيج والهلاهيل والأناشيد الدينية مخترقة جسر الصراط (برا سه راطي) بعد أن تغتسل في الجدول، وتترك أحذيتها على حافاته، وهي تحمل هداياها ونذورها واحتياجاتها من ملبس وأكل ومنام، وتتجه افواجا مع العوائل إلى مراقد أوليائهم وشيوخهم بفرح وسعادة، وهم في أزهى وأفخر الملابس، فكانت تتدلى الجدائل من الشعر الأسود على أكتاف الفتيات اليافعات الجميلات، وكذلك تتدلى فوق حواجبهن قطع ذهبية أو فضية لامعة أما النسوة فقد اعتمرت رؤوسهن عمائم بيضاء أو ذات ألوان داكنة بنية، وهن يرتدين الحلى البراقة الزاهية أما الرجال فكانوا في إناقة ثيابهم الفاخرة أو البسيطة ذات الألوان المتنوعة، ومنهم من ذوي الثياب البيضاء، وذوي الشعر الطويل الذين تسترسل ظفائر على أكتافهم، وهم بلحاياهم البيضاء أو السوداء، ومنهم أيضا من ذوي الثياب السوداء الذين تعانق لحاياهم البيضاء صدورهم، وبعضهم يرتدي عباءات فضفاضة طويلة منسوجة من صوف أبيض زاه. إنه عيد الفرح والسعادة والإنبعاث والحلول الذي فيه تبتهج القلوب بينما كان الوادي يضج بالحجاج، ويكتظ، ويزدحم بالوافدين، وهم يفترشون الأرض تحت الأشجار، وقرب المزارات، ومراقد الشيوخ والأولياء، وقد دبت حركة نشطة تجوب الوادي، فهذه عوائل تدخل إلى الباحة الرئيسية لشيخ آدي لتتبرك فيه، وتلك تقود أطفالها لتعميدهم في العين البيضاء وسط هلاهل وتراتيل دينية،

وافترش البائعون مقدمة دكاكينهم في سوق المعرفة لعرض بضائعم من الجوز والعسل والحلوى والأقمشة والسمسم، اما الفقير فقد بدأ بتوزيع البرات واستلام الهدايا من الحجاج الزائرين بينما جلس أعيان الأيزيدية والشيوخ والقوالون على سجادات طويلة في الباحة الخارجية (الجلسة)، وهم يتداولون شؤون أمتهم، وشؤون الدنيا، ويتبادلون أطراف الحديث، ويستقبلون الناس، ويتحادثون معهم في حل الخلافات والنزاعات، ففي هذا اليوم الكل متساوون، فلا شرب خمور، ولا سرقة، ولا فسق، ولا اعتداء، ولا خصام، ولا كذب، فالكل أخوة في الدين.

فجأة تعالت أصوات الحشود الأيزيدية الهائلة في فضاء لالش، وهي تردد:

- (بري شباكي) قادم، قادم، قادم.

نهض الجميع في (الجلسة)، وساروا بخطى بطيئة إلى مقدمة جسر الصراط (برا سه راطي) يتقدمهم والبابا شيخ ورجال الدين والقوالون، وكان ميرزا يحمل المشعل (جه قه لتو)، وقد سارت بجانبه الفقيرة (الفقري) الأم الكبيرة بردائها الأبيض وعمامتها البيضاء، وهي تحمل طاوة البخور، وحينما وصلوا إلى الجسر بدأ العزف على الناي، وبدأ الضرب على الدفوف لتتناغم مع الهلاهل والزغاريد والهتافات، فهؤلاء هم عشيرة البركعية حاملي أجزاء (بري شباكي) الملفوفة بحقائب من أقمشة صوفية ملونة براقة يعبرون جسر الصراط بعد أن ساروا من بحزاني، وتوقفوا في الشيخان. هذا هو وفد حجاج

بحزاني أيضا الذي كانت عينا ميرزا تبرق لمعانا لإستقباله، ويمتلأ قلبه شغفا لرؤية جده الحنون.

عندئذ دبت حركة متسقة لتشكل موكبا وقورا يتقدمه عازفو المزمار، وضاربو الدفوف، وهم يؤدون لحنا بإنشودة ذات إثر جليل ثم تبع ميرزا الجوقة العازفة، وهو يحمل الشعلة المقدسة (الجه قه لتو) حيث كانت الشعلة توقد نارا هادئة تحرق نفسها في خشوع، لتبقى يقظة متوقدة لوحدها، ويتألق ضوؤها دون أن يخمد، ثم تلت ميرزا الأم الجليلة (فقري) حاملة الطاوة التي كان يتصاعد من طاوتها دخان البخور شفافا خفيفا سابحا في الفضاء، ليملأ المكان عطرا زكيا. حينئذ ترتب صف أنيق سائرا خلفهم من البابا شيخ، وأتقياء الدين، والقوالين قاصدين العين البيضاء (كاني سبي) في مسيرة روحانية مهيبة يتوافق وقع أقدامهم مع إيقاع العزف. كان الموكب يسير بخطى وئيدة، ويتقدم بإنسجام ببطء وهدوء، وعندما توقف في ساحة العين البيضاء، وأنشدت تراتيل دينية، وقد وضعت أجزاؤه في المكان المخصص لها راح ميرزا يبحث بنظراته عن جده بين الحشود، وعلى نحو مفاجئ تسمر في مكانه حين رأى جده يتقدم إليه، ويعانقه بشغف رائع، وقد ظل ميرزا واقفا صامتا كصمت العالم كله ، وقد تراقص شئ ما في صدره كما تراقصت شفتاه دون أن تنطقا من شدة الفرح، وهو يصغي إلى صوت المجد الأليف الحنون لجده الذي كان يرشده إلى الطريق الصحيح:

- أنا فخور بك يا ولدي، أنا فخور بك أيها الفقير الفراش ميرزا!

فيما بعد، سارا سوية إلى المرقد، وقد قبل الجد باب المرقد بينما ميرزا كان يضع الشعلة (جه قه لتو) في المكان المخصص لها في مدخل المرقد. شعلة كانت تستعر لوحدها، وتتأجج على نحو متألق لتبعث ضوءها الدائم. حينما اكمل جده زيارة مرقد الشيخ آدي توجها سوية إلى غرفة ميرزا، وكان ميرزا شغوفا أن ينجرف إلى شواطئ الذكريات، وأناشيد بحزاني الصادحة في ذهنه بروح جامحة. لم تمض لحظات، وقد بدأ جده يحدثه عن بحزاني، ثم راح يسهب بالحديث عن طيور السنونو التي لم تترك أعشاشها لحد الآن في هجرتها الخريفية. أنها ما زالت تنعش أهل بحزاني بتغاريدها، وصارت تطلقها من أعشاشها حتى في ظلام الليل، وهذا ما أثار أهل بحزاني، وشغل بالهم، وكلهم يتساءلون عن لغز تأخر هجرة طيور السنونو، وقد سألنا العارفين بالطيور، فقد خمنوا أنها تنتظر شيئا لا أحد يعرفه أو يتكهن به إذا لم يحدث هذا فسوف تموت جميعها من البرد، وهذا حدث قبل الطوفان في زمن موغل في القدم. شرد ذهن ميرزا بعيدا، وقد لاحظ هذا جده مما جعل ذلك يثير استغرابه، وعلى نحو مفاجئ سأله:

- هل تغرد طيور السنونو أحيانا؟!

تفكر الجد، وهو يقلب أفكاره، ثم قال بصوت حنون:

- نعم، أحيانا تغرد أنثى طائر السنونو عندما يختفي عن أنظارها الذكر، لتطرد عنها الوحشة، وتنتظر عودته، فهي تردد أصواتا أشبه بأغنية: سيعود الغائب، سيعود، سيعود. لحظتئذ تكون أغنيتها تغريدا. هذا ما يفسره عارفو لغة الطيور، فتمضي لياليها في عشها حزينة مغمومة مهمومة، وصوتها يرتفع:

سيجئ، سيجئ لأن قلبها ينفرط شوقا إلى ذكرها، وهي تنتظر توأمها الروحي كما يسميه عارفي لغة الطيور، ويطلقون عليها انثى طائر السنونو المخلصة أما في النهار، فتقضي معظم وقتها في التحليق، ولا تقترب إلى الأرض أو الشجر، وتشرب المياه وهي مرفرفة فوقها، والقدامى كانوا يقولون إنها إذا أرادت أن تستريح، تذهب إلى عشبة عطرية بألوان متعددة ذات أشواك، وتتمرغ فيها كي يشم عطرها الذكر من بعيد، وهي تردد بصوتها: سيعود، سيعود.

تنهد ميرزا عميقا، وقال:

ـ وإذا لم يعد ذكرها، ماذا تفعل هذه الأنثى؟

فرد عليه الجد بصوت خجول:

ـ ستغرس صدرها في أشواك العشبة العطرية، وتموت، هكذا يقول القدامى، ويقولون أيضا أن عطر هذه هذه العشبة من دم أنثى طائر السنونو الذي امتصته الأشواك.

تفرس ميرزا في وجه جده مندهشا متعجبا، وقال:

ـ جدي، هل يمكن أن تتقمص روح هنار في أنثى طائر السنونو:

أجاب الجد مرتكبا، مضطربا إلى حد ما:

ـ لا، لأن هنار ماتت، وهي عذراء، والعذراء روحها محلقة في السماء.

استأذن ميرزا جده ، ليخرج في تأدية واجباته المعهودة به، واتفقا أن يلتقيا أثناء تأدية رقصة السما، وليرتاح جده من عناء السفر الطويل. هكذا خرج ميرزا وإذا بجده راح يردد مع نفسه بصوت خافت:

ـ أواه يا ولدي، قلبك ما زال يتحرق شوقا إلى هنار، ويتملكه الحزن، فحبك مثل زهرة لا تفارق غصنها مهما عصفت بها الرياح، فهي دائما تذبل على غصنها، وتموت لوحدها دون فراق ، فهنار ماتت يا ولدي، ومات عندك السرور، يا لقلبك الصافي الطاهر، الحزين المسكين! أما زلت تحن للحبيب، أي حب هذا الذي لا يستكين؟! ستظل أنت، كما بدأت في حب الحبيب.

كانت الشمس تغرب، وتودع لالش بجلال، وبابتسامة وديعة، وتسحب قرصها الأحمر الضخم الباهت ليبدأ أول الليل بمغادرة ضوء الشمس وحمرته، وقد تعالت الأصوات في لالش من جميع الجهات:

ـ كوفندة العين البيضاء (كوفة ندا كانيا سبي).

أقبل الشباب بلهفة إلى ساحة العين البيضاء، ثم تلتهم الفتيات محمرات الوجنات تشع نظراتهن ببريق الفرح. لم تمض لحظات، وقد اكتضت الساحة بالشباب والفتيات حين عزف الناي، وضرب الدف، آنذاك راح الجميع يشكلون سوية صفا متلاحما بتشابك الأيدي، وقد تحرك الصف بضرب الأقدام على الأرض بانسجام مع إيقاع أنغام الناي، وقد اهتزت أكتاف الراقصين، وهي تلامس بعضها بعضا، وقد فاضت وجوههم

ببشاشة بهيجة، وكانت الأقدام ترتفع قليلا عن الأرض بخطوة إلى الأمام، ثم تنحني الأجساد بترو، وتلت ذلك خطوة إنسيابية متسقة راقصة ، وقد تصاعد حماس العازفين، وحماس الراقصين في نفس الوقت، وقد توردت وجوه الفتيات ، والتمعت نظراتهن، لتتآلف مع الشباب التي تمايلت رؤوسهم لتقترب من شعورههن المتدلية على أكتافهن بينما كان قلب ميرزا يفيض حبا لسماع أنغام الناي، وهو يطوف في أرجاء لالش بشعلته، ويوقد الفتائل القطنية المشبعة بزيت الزيتون في الأماكن المخصصة لها طاردا الظلمة بالضياء. وهو يسمع الناي الذي راح يطيب قلبه. أجل، كان ميرزا يحلق طليقا بأحلامه بجناحي طائر السنونو، ويغزو العالم المحيط ببهجته. بهجة عارمة ظفرت به في بوتقة الضياء التي يغذيها من نور شعلته في لحظة حاضرة دائما في فيض مجدها، وفيما هو خلال طوفه هذا اندفع إلى رغبة جامحة لم يكن يتوقعها ألا وهي أن يرى هنار. تلك كانت رغبة عارمة حادة أصيلة زجته في الألم لكنه مضى قدما حاملا شعلته، ويوقد الفتائل مارا بين الحجاج ، لتكون أشبه بآلاف النجوم تلمع في أماكنها، وذات لهب خافت، ليمد الحاج يده فوقها، ويمسح وجهه تبركا بها. لم يأبه أحد لحزنه، ولم يكن هو يبالي بأحد. هو نفسه لنفسه يسيطر على ألمه، وخيبته، ويعيش بهجته بنفس الوقت برقصة الكوفندة التي صارت أصواتها تتغلغل إلى روحه دون أن يتمكن أن يطرد حزنه المحموم المكبوت. هو يجلد نفسه يجلد ذاته بخيبة الأمل في لقاء هنار.

ثم فيما بعد عبور الغسق، وقد حل المساء بنجومه اللامعة، وقد وقف ميرزا صامتا حاملا شعلته قرب القنديل في

ساحة (الجلسة)، فكان له ضوء القنديل رمز قنديل العرش من نور، ورمز نور الخالق الأعظم الذي لا تنطفئ ضياؤه أبدا. كانت الساحة محاطة بحشود هائلة، وقد توزعَ النساء على سطوح البنايات المطلة على الساحة، وقد تسلق الأطفال جذوع الأشجار، وجلسوا فوقها مبهورين، مدهوشين لرؤية طقوس رقصة السما (سه ما) في حين توزع أربعة قوالين في ركن يواجه الساحة، ووقفت قربهم الأم الفقيرة حاملة طاوة البخور لتملأ الفضاء برائحة البخور العطرة. فجأة ساد صمت عميق حين رأت الحشود القوال الكبير بدأ يهيء نفسه لإلقاء خطبته الوعظية، وها هو صوته صار يتردد مثل ترتيلة عذبة:

- يا أيها الأيزيديون، يا أيها العباد الصالحون، يا أبناء طاووس ملك، يا أبناء نور الخالق الأعظم، خالق السموات والأرض والبحار، كونوا أتقياء على مدى العهود، وسيروا على الطريق المستقيم دون أن تتلوث ملابسكم البيضاء، ودون أن تغريكم ملذات الدنيا. اهتدوا بالخير والعدل والحق، وابتعدوا عن الظلم والشر. ساعدوا الفقراء والمحتاجين من أبناء أمتكم. كونوا على هدى الشيخ آدي، والتزموا بوصايا الأولياء الصالحين، وكونوا مثلا تهتدي به الشعوب، ليرعاكم طاووس ملك على مدى الأجيال. يا أبناء طاووس ملك هول هولا طاووس ملك.

حينئذ تصاعدت زغاريد وهلاهل النساء، وإذا تصاعدت أصوات الرجال عاليا من كل صوب:

- هول هولا طاووسي ملك.

وفي نفس الوقت انبعثت أصوات المزامير والدفوف تتناغم مع أصوات الفرح التي تحولت إلى إنشودة متداخلة ما بين ترتيل ولحن أخاذ مدو، وعلى حين غرة برز الفقير الكبير من المعبد بردائه الأسود خارجا، وهو يرتدي الخرقة والتاج والحلة، ثم وقف لحظة مثيرة أمام رجال الدين المنتظرين قرب باب المعبد، وهو بزيهم الأبيض، الذي تغطيه عباءة فضفاضة بيضاء قصيرة تزخرف حوافها خيوط حمرا براقة تسمى (مه رزو). لحظتئذ شكل ستة أفراد منهم صفا على يسار الفقير الكبير، وكان قرب نهايته سادن المرقد (بابا جاويش)، وقد خطى الفقير الكبير خطوة مدهشة عجيبة، تلتها عدة خطوات، ووقف لحظة وقورة وسط صمت مطبق على الساحة، فتشكل صفا ثانيا من ستة أفراد آخرين من رجال الدين، يتقدمهم البابا شيخ. هكذا انبعث موكب من صفين، فصار الفقير الكبير في وسط مقدمة الصفين، ثم سادن المرقد (بابا جاويش) في وسط نهاية الصفين، وقد أخذ الجميع يدورون بانتظام وتناسق وانسجام حول القنديل، وحامل الشعلة (جه قه لتو) ميرزا، وهم يمدون أرجلهم اليمنى بخطوة طويلة بطيئة جدا إلى الأمام، ويمدون أياديهم اليمنى المفتوحة الأكفاف إلى أكتافهم بكل خشوع، وتناسق تام مع مسيرة الدوران الهادئة باتجاه عكس عقارب الساعة، وقد تلت ذلك وقفة مهيبة سريعة بسحب الأرجل ماسحين الأرض بأطراف أقدامهم ببطء شديد مع سحب الأيادي اليمنى من أكتافهم اليسرى، وهم يواصلون تقديم أرجلهم اليمنى إلى أمام بخطوة جديدة بينما كان ميرزا ينظر إلى لهب القنديل، ويزهو عينيه في نوره، ليتجلى له أنه يحاكي شعلته (جه قه لتو)، وكأن الأثنين كانا يتناغمان مع ألحان الناي، ومع رقصة السما (سه ما)، ومع هذا المهرجان الساحر الجليل الذي

كان بالنسبة له في هذه اللحظات بالذات ليس هناك مهرجان آخر في الدنيا يضاهي هذا التوحد بين الأنوار واللحن والرقص الرجولي الوقور الذي يناجي قنديل العرش الرباني، ولبس أيضا هناك مكان آخر في العالم تضفي عليه هذه القدسية مثلما تضفي على لالش، وهو يقف وقفته الخالدة، وقد تشكلت في مخيلته أنوار من سبعة ملائكة تطوف حول قنديل العرش الرباني وهو نور الأنوار، ليستلموا الإيحاء الرباني المحفوظ في اللوح المقدس الذي لا يقرأه إلا طاووس ملك. أنهم يطوفون، ليحيوا ويأتمروا بمشيئة القدرة الرباني، وبينما كان ميرزا يحلق بخياله داعبت نسمة عذبة لهب القنديل لتكون في رؤياه تارة صورة نجمة، وطورا صورة إكليل، وآونة صورة هلال التف حول قطبه، وميرزا يهمس لنفسه:

- العالم هنا، نعم هنا.

دار الراقصون ثلاث مرات حول القنديل والشعلة (جه قه لتو)، ثم بوهلة مفاجئة اندمج الصفان بصف واحد يتقدمهم الفقير الكبير، وحين وصولهم عتبة باب المرقد ابتهلوا، وقبلوا الباب بخشوع هادئ، وقد دخل الفقير الكبير إلى المرقد، يتبعه ميرزا، فقد نزع الفقير الكبير التاج والحلة ووضعهما في المكان المخصص لهما، وهذا ما فعله ميرزا أيضا، فقد وضع شعلته (جه قه لتو) في المكان المخصص لها. فجأة رأى جده ينتظره عند عتبة الباب ، وكانت دموع الفرح تترقرق في عينيه.

مرت ثلاثة أيام لم يبلغها أحد في فيضها الهائل من البهجة مثلما بلغها ميرزا من الصباح إلى المساء، ففي الصباح كان ميرزا يقف قرب باب المرقد، ويوزع (البرات) على الحجاج ،

ويجمع الهدايا إلى المرقد، ويساهم بتعميد الأطفال في ماء العين البيضاء، وقبل المساء كان يوقد الفتائل من شعلته (جه قه لتو) في المراقد والأماكن المقدسة. عندئذ تكون لالش تتلألأ فيها نجوم أرضية أما جده فكان يذهب إلى (الجلسة) ويستمع إلى تراتيل القوالين الصباحية التي تسمى (به يتا سبي) وكذلك يستمع إلى تراتيلهم المسائية التي تسمى (به يتا هيفاري) لكن جده رأى ميرزا سجين قلبه المفرط بالحنان والشوق إلى محبوبته هنار رغم مرور فترة غير قصيرة على موتها، وهذا ما أقلقه وأفزعه سيما هو يكتم ذلك في صدره، ثم أنه كان يميل إلى الإنطواء والعزلة. ذات ليلة سمعه يتكلم في منامه، وهو يردد اسم هنار، وعلى نحو مفاجئ نهض، وخرج كأنه يسير في منامه، فتبعه جده ببطء. رآه واقفا ساكنا في مكانه، شاردا بخياله، وهو يضرب في تأمل جامح دون أن يشعر بضجيج الحجاج. كان ميرزا ينقب ببصره في نجوم السماء الباهتة دون أن ينتبه إلى الأصوات كما لو أن أذنه صماء عن صخب الأصوات. جفل جده أيضا في مكانه، ورفع عينيه إلى السماء، وهو يسأل نفسه:

ـ ماذا يبصر بعينيه؟

لم ينتبه ميرزا لجده، وراح يقول بصوت خافت:

ـ أنه نور الأنوار.

لم يفهم جده إيقاع كلامه مما جعله يقول:

ـ ماذا ترى يا ميرزا؟

استدار ميرزا، وقد تراقصت عيناه، واحمر وجهه، ليقف قبالة جده المدهوش المتعجب وقفة مفعمة بالأسرار، وهو يقول بصوت ناعم بعد أن تدارك نفسه:

ـ أرى النور الذي يحيي قلبي يا جدي.

لم تمض عدة لحظات حين دخلا الغرفة، وانسل كل واحد إلى فراشه، وقد تملك أيضا كل واحد إحساس ليس نفس الإحساس، فميرزا كان يرى السكينة والصمت في نور السماء بينما الجد كان يرى حفيده يفني ذاته، ويحطمها ليكتشف أشياء بالغة في الغرابة تبعده عن دنياه. أحس الجد أن حفيده تحول إلى كيان آخر يتقد قلبه إلى أشياء مجهولة خفية شديدة البعد عن واقعه الإنساني، وهذا ما جعله يميل إلى الوحدة والعزلة.

اليوم هو اليوم الرابع من العيد الكبير، وهو يوم تنصيب البريات (به ري سواركرن) إذ أخذ ميرزا يساهم مع متولي العين البيضاء برش الماء على قطعة قماش بيضاء لا يتجاوز طولها ثلاثة أمتار ثم تم تسليمها إلى الفقير الكبير ليضعها على رأس المشترية بعد مزايدة طويلة، وكانت المشترية فتاة بارعة باهرة من عائلة الأمير، وهي تمشي ببطء في موكب مهيب وسط صفين يتقدمه قوالان احدهما يضرب على الدف والآخر يعزف على الناي تراتيل دينية روحية إلى مقام السيدة آسيا (ستيائيس). فجأة امتدت قطعة القماش من رأس الفتاة التي لم تفارقها يد الفقير الكبير، لترفرف في رهبة وخشوع، وقد مسك ميرزا حافتها الأخيرة، وكانت الفتاة تتقدم بخطوات هادئة منسجمة مع إيقاع العزف وسط حشود بشرية هائلة غلب عليها الرداء الأبيض، وعند الدخول إلى مرقد السيد آسيا، وهي والدة

الشيخ آدي الثاني الذي يقع قرب بيت الفقير الكبير راحت الفتاة تنصب قطعة القماش (البريات) بكل ترو فوق الضريح، ليكون هذا العام عام تجدد، وعام محبة وسلام، وعام أخاء دون مشاكل، ودون أمراض.

هكذا تم تنصيب البريات السبعة عدة ساعات في النهار، فكانت برية الشيخ آدي خضراء اللون، وقد وضعت على ضريحه، وكانت برية الشيخ شمس صفراء اللون، وقد لفت على عمود داخل المرقد، وكانت برية الشيخ حسن حمراء اللون، وقد لفت على عمود أيضا داخل المرقد، وبرية الشيخ فخر برتقالية اللون، وقد لفت كذلك على عمود في المرقد أما برية الشيخ بكر، فكانت الخرقة السوداء، وقد وضعت على ضريحه. ذلك تم باجلال للأولياء الكبار الذين تعمدت حياتهم في مسيرة روحانية نقية صافية، وقد تطوع سبعة أيزيديون وهم يؤدون نذورهم المباركة دافعين مبالغ عالية أثناء المزايدة، ليتشرفوا بهذه القدسية الوجدانية، وتعالج أجسادهم وأرواحهم الطيبة.

ثم فيما بعد حل اليوم الخامس من العيد الذي تجمعت فيه حشود بشرية هائلة عند الطريق المؤدي إلى جبل عرفات، وسوق المعرفة بينما ابتدأ موكب من (الجلسة) يتقدمه حامل الشعلة (جه قه لتو) ميرزا بخطوات وئيدة يتبعه القوالون العازفون، ثم حاملة الطاوة (فقراي)، ثم ثلاثة رجال مسلحون، الأول منهم يمثل عشيرة القائدية، والثاني يمثل عشيرة الترك أما الثالث فكان يمثل عشيرة الماموسية، وهذا تقليد قديم، إذ هم أول من حضر إلى لالش بعد سماعهم بوفاة الشيخ آدي. سار الموكب وسط الهلاهل والزغاريد، وهم يتجاوزون سوق

المعرفة، ويصعدون الجبل. ما لبث أن توقف الموكب عند منطقة (به ري قه باغي)، وعلى حين غرة جاءتهم إشارة من أمير الأيزيديين من أسفل، فاصطف المسلحون صفا واحدا على صخرة كبيرة تسمى حجر الثور الأبيض (به ري قه باغ)، وأطلقوا ثلاثة عيارات نارية، وتكرر إطلاق النار ثلاث مرات. حينئذ نزلوا إلى أسفل بإنشودة ترنيمية هادئة، وتوقفوا عند فسحة تشرف على سوق المعرفة. بعدئذ اصطفوا من جديد صفا واحدا، وجاءتهم إشارة الأمير، فكرروا إطلاق ثلاثة عيارات نارية ثلاث مرات. بعدئذ تحركوا إلى أسفل، وعبروا الباب الرئيسي الخارجي (ده ريي مير)، واستقروا في (الجلسة) وقد تشكلت سبع دوائر بشرية، وهي ترقص رقصة (كوفندة) الشعبية التي أثارت حماس الجميع، وقد شاهد ميرزا جده وهو يرقص، ويدق الأرض بقدمه مع إيقاع العزف، فصار قلبه يتقد فرحا، وقد ارتسمت ابتسامة على محياه، وهو يقول بصوت خافٍ:

- الشمس لا تقهر.

فجأة انبثقت صرخة عالية من الحشد:

- جلبوا الثور الأبيض (قه باغ) من مذبح الثيران (كاي كوش).

انفرطت الرقصة، وتلاشت أنغام الموسيقيين، وهب الراقصون يركضون بسرعة، وتعالت أصوات المحتشدين، وهي تردد:

- ذهب الثور الأبيض (كاي كوش).

فتهافت الناس من كل صوب يتراكضون خلف الثور، وهم يضربونه بالعصي كأنهم يخلصونه من الأرواح الشريرة، وقد كان السادن يقود الثور الأبيض إلى مزار شيخ شمس. لم تمض لحظات حتى فقد الثور نفسه تحت وابل الضربات، وذبح من قبل شخص من عشيرة القائدية، وكان وجهه متجها إلى قرص الشمس كقربان لنورها الخالد، ثم بدأ السادن بعد سلخ الثور وتقطيعه، بتوزيع لحمه على الحجاج ليطبخ (سماط) بينما كانت هناك مجموعة تستلم قطع قماش صغيرة بيضاء التي كانت معمدة في العين البيضاء من السادن نفسه، وقد لفتها على الرؤوس، ثم اتجهت نحو جبل عرفات وسط رقص وغناء وزغاريد، ما لبثت أن توقفت عند ساحة صغيرة في سفح الجبل تسمى (ديوانا سةري جيايي) التي اشتهرت بشجرة الأمان، وقد علقت على أغصانها مئات قطع الأقمشة الملونة، ثم زارت هذه المجموعة مقام (بيري ئيسيبيا) وعادوا مبتهجين إلى (الجلسة) وقد توجوا رؤوسهم بأغصان نبات بري، وراحوا يواصلون الرقص على أنغام الناي أما ميرزا فلم تفارق مخيلته شجرة الأمان التي كانت رمزا عند الأيزيدين لطرد عذاب الدنيا، ويسود الحب لأن الحب عنده عظمة مقدسة، ومجد بريء، وما كل ما يحدث في هذه العيد في لالش إلا تجسيدا لأتحاد القلوب في نقاء وصفاء.

أما في ليلة هذا اليوم الخامس من العيد وقف الأمير بهيبة وقورة مع حشد من رجال الدين قرب العين البيضاء (كانيا سبي) وأوعز بنقل أجزاء التخت (به ري شباكي) إلى داخل رواق الشيخ آدي، وقد ابتدأت مراسيم تركيبه بترتيلة حزينة رصينة تسمى (قه وليته ختا) كما لو أنها تتحدث عن تابوت

الشيخ آدي بحضور الأمير وبابا شيخ ورجال دين وأفراد من عشيرة البركعية التي لها مكانة خاصة في هذه المراسيم لأن أجدادهم رافقوا الشيخ آدي في أول مجيئه إلى لالش الذي اختار حياة التقشف والفضيلة، وكان أعظم الزاهدين في زمانه، وفي أثناء غسل أجزاء التخت بمحلول السماق، ومسحها كانت الفقيرة الكبيرة (الفقراي) حاملة طاوة البخور التي كانت تقف قرب ميرزا تلقي نظرات بين الحين والآخر إلى ميرزا وهو يحمل شعلته (جه قه لتو) فرأت ميرزا مهموما حزينا شاردا بنداء الموت. تلك كانت لحظة يعجز المرء الكلام عنها. أجل، لحظة مذهلة خارقة فيها حضور سماوي يستفيق فيها الزمان البعيد. لم تسمع الفقيرة من ميرزا سوى تنهده العميق كأنه يندمج مع الموت، ويتحد معه. ذلك كان تأمل من ملامح ميرزا الذي اكتشفته الفقيرة، قد يكون في غير أوانه، وقد يكون هو مفرط في نور شعلته مما تناسى نفسه.

في صباح اليوم السادس من العيد كان الخريف جافا وصافيا بشكل مبهر قد لا يتكرر مرة ثانية في مثل هذا الوقت، وضوء الشمس النقي أضفى سحرا رائعا، وجمالا أخاذا على لالش، وقد ساد صمت مطبق على المحتشدين قرب باب المرقد، وهم ينتظرون، ويترقبون، فهناك داخل المعبد تجري مزايدة حول تنصيب التخت (به ري شباكي). ربما- انتهت، وقد نالت جماعة أو عشيرة هذا الشرف المبارك. ربما نالت جماعة أخرى شرف مبارك أيضا أثناء المزايدة شرف تعميد (به ري شباكي). هذا ما كان يدور في خلد الحشود المنتظرة. فجأة، انبثقت ترانيم الناي والدف الحزين من داخل المعبد (ديوانا به ري شباكي). الآن رفع من الأرض قليلا ثم تم تنزيله ثلاث

مرات، وعلى حين غرة ظهر التخت (به ري شباكي) من الباب الرئيسية محمولا على الأكتاف، يتقدمه الأمير، فضجت لالش بزغاريد النساء من فوق السطوح التي تشرف على الساحة، وحاملي التخت يتقدمون بترو وخطوات أنيقة، وآلاف الأيادي من الحشود تتزاحم، وتتدافع محاولة لمسه للتبرك به. نعم، آلاف الأيادي تمتد، وتتراجع في صراخ بعد أن تبركت به، وآلاف الأيادي لم تحظ بما أرادت. تجاوز حاملو التخت ساحة (جلسة الشيخ آدي، وهم يقتربون من بركة الماء التي تكونت من ساقية العين البيضاء (حودا كه لوكي). آنئذ عمدوه برش الماء عليه وسط أنغام الناي والدفوف، ثم عادوا به من جديد إلى المرقد، ورفعوه، وأنزلوه ثلاث مرات، ثم وضعوه على سجادة قرب ضريح الشيخ آدي.

حل الليل، وقد أطبق الظلام على لالش، وحل أيضا نبض آخر في الحياة بينما كانت حكاية تحيي الماضي البعيد في ذاكرة الجد، إذ أراد ببصيرته أن يسردها على ميرزا، أراد أيضا أن يتصرف بها لتكون متلائمة مع بؤس ميرزا الذي يكتمه في داخله. أراد أن تكون حكاية ذات قصد في صمت هذه الليلة الغامضة المرهقة التي كان يبتغي منها أن لا يكون وطؤها ثقيلا على ميرزا لأنها تمس شيئا خطرا، تمس الحب الورع الشغوف البرئ والموت الذي ينتظره البشر، لذلك قرر الجد أن يسردها بحذر، ويتوخى منها أن تكون أثرا ـ علها تخلص ميرزا من ظل العذاب الذي كان يؤطر وجوده.

فجأة انهار الصمت حينما بدأ الجد يتقلب في فراشه، ويتنحنح، وحينما لم تغمض عينا ميرزا، وهو يتمدد مضطربا في فراشه، وحين قال الجد بصوت خافت:

ـ هل تريد أن تسمع حكاية يا ميرزا؟

انتزع السؤال ميرزا من رقاده المضطرب، وطرد النعاس من عينيه، وهو يردد بحماس:

ـ نعم، نعم ياجدي!

هكذا راح الجد يسرد الحكاية بتأن ليجعل ميرزا يعيش الماضي البعيد في مخيلته، ويصغي بانتباه:

ـ في ذات يوم كان الأيزيديون يبتهجون برقصة العيد (الكوفندة) في ساحة العين البيضاء، وكانت الأميرة طاووس الساحرة الجمال ترقص معهم ببهجة وفرح لا مثيل له، وهي تربط وردة حمراء برية إلى شعرها، وتلك كانت إشارة إلى أنها كانت مخطوبة. نعم، الأميرة طاووس هي ابنة الشيخ حسن العدوي، وكانت مخطوبة إلى سجاد الدين. فجأة، تقدم إليها الأمير الوسيم نال، وخطف الوردة من شعرها، فأثار ذلك التصرف غير المعتاد في العرف الأيزيدي ضجة بين الراقصين المندهشين، ووجوههم تنم عن قلق غريب، وتوقف أيضا العازفون عن عزف الناي والدف، وهم في حيرة من أمرهم. ساد صمت ثقيل في الساحة بينما تسمرت الأميرة مرتبكة خجلة محمرة الوجه، والدموع تترقرق في عينيها، لتواجه الأمير بصلابة، وتقول له بغضب:

ـ أنت تعرف، أنا مخطوبة من عمك سجاد الدين يا نال.

لم يبال الأمير نال بما قالت، بل استدار، وراح يسير، وهو يشم رائحة الوردة الزكية، ويتلفت إلى الوراء مبتسما تاركا

الأميرة طاووس تذرف الدموع من عينيها بصمت على خديها المتوردين، وعلى حين غرة سحبت خطاها الثقيلة من الساحة، وتوجهت إلى الشيخ آدي مهمومة، وأخبرته باكية بما حدث لها بمرأى الجميع. قرر الشيخ آدي معاقبة الأمير ئال لتجاوزه الأعراف الأيزيدية، إذ ما حدث أذهل الناس، وكل واحد صار يتحدث عن الأمر بما يشاء، فشاع الحدث بين الأيزديين. نعم، أمر الشيخ آدي بنفي ئال إلى حمص، وهناك ألقي به في السجن.

مضت سبع أعوام، والأمير ئال يعاني من وحدته في السجن دون أن يفارقه الحب المستعر في قلبه الجريح، فكان يتغنى بالأميرة طاووس، وينشد الشعر في جمالها، وشاع خبره في أرجاء الأمة الأيزيدية حتى صار يلقب بالأمير العاشق الولهان. نعم، لقد تحول إلى كيان آخر يتقد شوقا إلى الأميرة طاووس، فقد أمسك به عذاب الحب في مهاوي المعاناة، وهو لم يقدر أن يقاوم قلبه الحزين مما جعله ذلك يمتنع عن الأكل والشراب، فذوى جسده، وجف، وذبل.

ذات يوم دخل عليه خادمه نابيل، فوجده ميتا على نحو غير متوقع، فحضنه، وغرق في البكاء، وهو يصرخ:

ـ مات ئال العاشق الغريب.

نعم، كل حي يموت في النهاية، ولا أحد يستطيع أن يوقف الموت. نعم، مات الأمير العاشق، ودفنه نابيل، وعاد بائسا حزينا، قاطعا الطريق الطويل ليالٍ وأياما، وعند وصوله إلى قمة (سلافكة) في جبل مشت(مشه ت) رتل مرثية جنائزية

حزينة بصوت عال تسمى (لا فز وغه ريبو) مليئة بالحسرة والألم.

ثم فيما بعد علمت الأميرة طاووس بموت ئال في سجنه، ودفن غريبا بعيدا عن موطنه لالش، فذهبت إلى الشيخ آدي منتحبة، وتوسلت إليه أن يحيي ئال، وأن يعيده إلى الحياة كي تراه. حينئذ دعا الشيخ آدي رجال الدين أصحاب القدرات الخارقة إلى حضرته، وطلب منهم أن يحققوا هذه المعجزة، فتطوع الشيخ فخر الدين لتحقيقها. باركه الشيخ آدي، ودعا له بالخير والبركات. آنذاك اعتزل الشيخ فخر الدين في الكهف، وصام أربعين يوما، وهو يتضرع، ويخشع للخالق الأعظم، ويتعبد حتى استطاع أن يتحد مع النور الرباني العظيم، ويحلق نحو السماء، ليقف أمام أبواب ثلاث كانت تحرسها ثلاث حوريات، وهن في أزهى ثياب وحلي يحملن في أياديهن كؤوس الخمر الرباني. حاولن أن يغوين الشيخ فخر الدين بجمالهن، وغنجهن إلا أن صاحب البصيرة الحكيم، صاحب المعرفة والدهاء، صاحب التقوى والورع الشيخ فحر الدين تجنب هذا الإغواء، وتجاوز اللذة البشرية ليحقق عبوره الخالد إلى قبة القنديل. فجأة فتحت الأبواب الثلاث، ورأى الشيخ الجليل قنديل الأرواح، إذ في هذا القنديل تحفظ ارواح الموتى كمظهر وحساب لفترة ثم تطلق في ولادة جديدة، فإذا كانت طيبة تحل في روح حية طيبة، وإذا كانت شريرة تحل في روح حيوان شرير كالذئاب.

أخذ الشيخ فخر الدين روح الأمير ئال معه في قنديل خاص، ونزل قريبا من قبر ئال في حمص، وانهضه من قبره بعد أن أعاده إلى جسده. نعم نهض الأمير ئال من موته إلى

حياة جديدة، وجاء به الشيخ فخر الدين إلى لالش في حضرة الشيخ آدي.

عندئذ دعا الشيخ آدي الأميرة طاووس لتلتقي الأمير نال، وهي في غاية الإرتباك والفزع، وقد وقفت قبالته وجها لوجه مذهولة تذرف الدموع، وهي تصغي إلى كلام الشيخ آدي:

ـ تأمليه جيدا، تمعني به جيدا، تحدثي معه كيفما تشائين.

كانت الأميرة تتطلع إليه باستغراب مبهوته حائرة، فقد ذهب حسنه، وذهب بريق عينيه، وتحول وجهه الوسيم إلى شاحب أصفر، فسألته بخفوت:

ـ هل ما زلت تحبني يا نال؟

أجاب متلعثما، وهو يطلق الكلمة بصعوبة، وبصوت متكسر:

ـ نعم.

منذئذ أدركت الأميرة طاووس أن الموتى ليسوا مثل الأحياء حتى إذا ولدوا من جديد، فاستدارت وهي تنحب على مصير الإنسان. آنذاك حضر جبرائيل، وأعاد روح الأمير نال إلى القنديل الرباني ثانية. تلك كانت كرامة الشيخ آدي نحو الأميرة، ومعجزة الشيخ فخر الدين الذي ولد في يوم الأربعاء المقدس، ومات في يوم الأربعاء المقدس.

ولم تمض عدة أيام حين فارقت الأميرة طاووس الحياة، وماتت في حسرة وقهر وحزن شديد، لذلك شيد أهل الشيخان

ضريحا يجسد ذكرى مأساة الأمير ئال، وفوقه قبة قرب مقبرة الأيزيديين في عين سفني. أجل، أن أهل عين سفني ما زالوا يأبون أن يلفوا اليشماغ (الجمداني) على رؤوسهم المعروفة بلفة الأمير ئال المتميزة التي كان هو الوحيد يجيدها ببراعة خشوعا لروحه العاشقة.

انتهت حكاية الأمير ئال والأميرة طاووس التي سردها الجد لحفيده، ونام ميرزا مستمتعا بأحداثها، غافيا مع القلب الكسير لئال في الحزن الأرضي الذي لا نهاية له، وفي قلب ميرزا يكمن الحب العارم لهنار، حب متفانٍ فيه نشيد الارض. هذا الحب الذي كان يحسه ميرزا جيدا قبل الموت، حب يحلق من ظلمة الليل نحو الأعالي، إذ ما من شئ يحول بين الحب والموت، وكذلك غفا جده بعد أن سرد الحكاية، وقلبه مرهوب خائف كما رأى حفيده يفني نفسه في الحب، وفي الأسرار الكونية التي صارت شغفه في دنياه.

في الصباح نهض الجد والحفيد مع آلاف من الحجاج الذين تجمعوا في الفسحة القريبة من بيت الفقير، وهم في أزهى ثياب مبتهجين بيوم العيد الأخير من أيامه السبعة، وهم يتبادلون التهاني، وقد ارتسمت على وجوههم ابتسامة الفرح والود والحنان، ثم رقص سبعة من رجال الدين رقصة السما (سه ما) قرب مرقد الشيخ شمس، وساحة العين البيضاء، ومقام الشيخ عبد القادر، ليجسدوا الملائكة السبعة الذين رقصوا في السماء حول قنديل العرش.

ثم فيما بعد رقص الحجاج رقصة العيد (الكوفندة) في سوق المعرفة، وتم توزيع الأشرطة البيضاء التي عصب

الحجاج رؤوسهم بها بينما راح أهل بحزاني يفكون التخت (به ري شباكي) ويحملونه إلى بحزاني، وقد وقف ميرزا يودع جده قرب جسر الصراط، وهو يشد رأسه بشريط القماش الأبيض، ويعانقه بحنان لا مثيل له. بغتة مرق سرب من طيور السنونو فوقهما، فرفعا رأسيهما إلى السماء، وقد أثار هذا استغرابهما، فقال ميرزا بصوت وديع:

ـ إنها تأخرت في الهجرة هذا العام يا جدي.

تنهد الجد بعمق، وقال مهموما:

ـ إنها تنتظر شيئا يحدث يا ولدي، ستهاجر، ستهاجر.

استدار الجد كما لو أنه وداع أعوام، وهو يكتم في داخله أسى وحيرة راجيا أن يحفظه طاووس ملك من كل أذى، وربما كان هذا أشبه بفراق أبدي. مشى الجد بخطى ثقيلة بطيئة دون أن يلتفت وراء حشد أهل بحزاني الذين يحملون أجزاء التخت (به ري شباكي)، وقد وقف ميرزا يودعه بنظراته برهة من الوقت، وقلبه مثقل بالتوتر والألم.

الفصل التاسع عشر

صدى الوداع

مضت عدة أيام، وقد عاد ميرزا يغذي روحه في التأمل أكثر مما ينبغي، ويستغني عن وجوده الدنيوي، فصار يرزح تحت عبء التأمل من جديد، وكان بدون التأمل يحس بثقل رهيب يجثم على صدره، وبدونه كان في قرارة نفسه لا يستطيع أن يبلغ نور الأنوار سيما تشبه أكثر من مرة أنه نور ينهض من احتراقه المستعر، إذ أراد ميرزا أن يبلغ الكمال في سكينة دائمة، وقد حفزته على ذلك روحه الرقيقة أن يحيى هذا السر الرباني، فهو وحده كان يسمع شدو الطيور المهاجرة، ويسمع خرخرة المياه الخارجة من منبعها عن بعد، وحين تصل تلك الأصوات إلى أذنيه يبتهج بحد الذات، وهو وحده أيضا كان يرى ابتسامة ضوء بهي، ومنظر سماوي وضاء. ميرزا اعتقد أن كل ما يراه نور يأسر عينيه في نعيم خالص، فكل شئ صار عنده متناهيا في الفهم، وله تفسير، ومنه تترادف الأشياء، وأن كل ما يراه كان مختصا به، وما من شئ كان يستطيع أن يحول بينه وبين إستغراقه في التأمل العجيب الباهر، إذن هو لم يقدر أن يعرف نفسه كلما توغل في التأمل، وكلما تخطى حدود نفسه. هذا وقد اتسم وجهه أحيانا بالحزن، وارتعدت الدموع الحبيسة في عينيه أحيانا أخرى، فقد عاش ميرزا محلقا دون أجنحة، وتجاوز كيانه الأرضي، فتشكلت صورته البشرية في رؤياه نورا، ونفض عن دنياه ذاته مثلما بدأت بعض أشجار لالش تنفض أوراقها الصفراء كلما هبت رياح في هذا الخريف.

ذات مرة اشتد الظلام عليه، وحال بينه وبين نجوم السماء. ارتبك حين جن الليل، وستر عليه الرؤية بحجاب معتم، وكادت تطفر الدموع من عينيه لأنه مصدر النور هي السماء. بغتة ظهر نجم جبار يتلألأ في السماء، وطغى نوره السماوي الأعلى ينير الأرض ثم راح يسمع همسا متعاطفا في أذنه. وقف تائها في شرود، ونظر ما حوله. لم ير أحدا. ذلك كان صوتا متسترا، ومتحجبا بالنور ذاته. آنذاك أحس كما لو أنه في الجانب الآخر من الحياة، وأنه ذاب، وانتقل إلى مكان آخر مثلما يؤكد الأيمان الأيزيدي أن مفتاح الزمن ينقل الولي إلى مكان جديد يسمى (قدم كوهاست).

هذا ما اهتدى إليه ميرزا بروحه الورعة النقية الفتية المضطربة خاصة أنه أراد أن يبلغ الكمال لذلك نبذ الحياة، وحبس نفسه في غرفته، وامتنع عن الأكل والشرب، لتجوع بطنه، ويظمأ كبده، وقد اعتقد خدام لالش وسادنها الكبير أنه يصوم، فتركوه في خلوته، وتركوه في تعبده، وتركوه في تأمله حتى أصبح نحيفا هزيلا، وقد بانت أضلاعه. ذات ليلة ألهمه وحي تأمله أن نورا ربانيا يسكب له شرابا غامضا في قدح، وقد امتدت إليه يد نورانية، وهي تمسك القدح، تناول القدح، بشغف عظيم، ثم شرب شرابا حلو المذاق كالعسل، فصار هذا الشراب طعامه وشرابه، وكانت روحه ترتوي من غذائه.

ها هو ميرزا الآن، كان جالسا في غرفته المظلمة بعد أن غرق في التأمل ليل نهار جائعا منذهلا، يتلمظ عطشا، وهو يحاول أن يصل بتأمله إلى قنديل العرش ـ حافظ برزخ الأرواح ـ المحفوظ في القبة الربانية المقدسة التي تحرس أبوابه الثلاث ثلاث حوريات. بغتة رأى نورا يفرغ نفسه فيه، ويتحد معه،

وصار هو نور. حينئذ شعر ميرزا غير ما يشعر به أحد، فراح يردد مع نفسه:

ـ أنا نور قدم كوهاست.

نهض مأخوذا بجمال النور، وقد حرر نفسه من كينونته، وألغى وجوده الأرضي في لحظة فريدة ثم رأى الباب قد انفتح أمامه، وصار النور ينير طريقه، وقد أحس بنفسه خفيفا، وهو يخرج من الغرفة، ويسمع صوتا جليا صافيا متكررا:

ـ أنت نور.

نزل السلم الحجري إلى أسفل، ومشى ببطء دون أن يدرك كيف وقف قبالة باب المرقد بخشوع، وقبل الباب قبلة أخيرة بلحظة خالدة ثم استدار ومشى بصمت تقوده قدماه فوق الأرض دون أن يدري في أي طريق يسير، وإلى أي مكان تقوده قدماه. فجأة وجد نفسه قرب شجرة بلوط التي يسميها الأيزيديون (دار زنكلا). لحظتئذ توقدت ذاكرته، أنه يتذكر جيدا. ذات مرة خرج في جولة بين القرى الأيزيدية، وهو يحمل كيسه المزخرف بروموز نحاسية من خارجه التي تطلق أصواتا أشبه بأصوات النواقيس حين كان يمشي، فهرع إليه الأيزيديون وهم يقبلون هذه الرموز النحاسية، ويضعون نذورهم وصدقاتهم في الكيس. أنه تذكر هذا جيدا حيث وضع كيسه المملوء بالنذورعلى غصن هذه الشجرة، واستراح برهة، ثم نهض، وحمل كيسه على كتفه عائدا بفرح إلى الوادي.

صعد ميرزا إلى قمة (سلافكة) في جبل مشت (مه شت) ثم توقف عندها مهموما حزينا كما لو أنه كان يصغي إلى

صدى مرثية نابيل الذي رتلها بصوت عال منذ عصور قديمة. تلك كانت مرثية تحكي موت الأمير ئال في بلاد الغربة، ودفن فيها بعيدا عن موطنه لالش، فصارت أيضا نداء الموت، ونداء الحزن الأليم على روح العاشق الولهان. لم يتمالك ميرزا نفسه، فترقرقت الدموع في عينيه، وهو يسحب قدميه هائما، فارا من نفسه دون هدف، وضرب فوق الجبل شاردا على وجهه. وعلى نحو مفاجئ استدار متصورا نفسه أنه المخلوق الأول النقي الذي تقوده قدماه فوق الأرض غير انه أراد أن يثبت إيمانه الراسخ لذلك اتجه في طريق يعرفه جيدا، ثم انحنى ورفع من الأرض غصنا جافا، وواصل سيره. أنه الآن يقف مندهشا مبهورا قرب شجرة بلوط أخرى التي تسمى شجرة الأوتاد (دار سنكا) في أعلى جبل مشت (مه شت) من الجهة الجنوبية. دق وتده قرب جذعها، فانتابه فرح لا مثيل له لأنه فعل مثلما يفعل أي أيزيدي حين يمر قرب هذه الشجرة، ثم واصل رحلته دون أن يشعر بالألم في قدميه اللتين بدتا تنزفان دما من وطأهما فوق خشونة أحجارالأرض. أنها رحلة طوال الليل إلى مكان آخر على أيقاع نوره الداخلي.

أخذ يغذي سيره في الطريق الطويل ، ويصعد الجبال، ويهبط إلى الأودية، ويطوي الطرق، إذ هناك شئ يخفق في روحه العذبة ذات المنهل الثري من طهارة قلبه، فمن صميم هذا القلب تولدت معانٍ جليلة فياضة في الصفاء، فكان يسير، ويعبر جداول، ويتوقف ثم يستريح، وبعدها ينهض ثم ينطلق من جديد، ويندفع إلى أمام معتزما المضي للبحث عن ملاذه الأخير، ومستقره النهائي. أحس أنه كان يسحب قدميه بصعوبة، وهو يصل إلى مأواه الأبدي. دخل إلى مقبرة بحزاني تعبا، ضعيف

الجسد، زري المنظر. وجد قبر هنار، وهو يكاد لا يستطيع الوقوف، فجثى على ركبتيه أما القبر، ثم زحف إليه، واحتضنه في لحظة عبور أبدية إلى ضفة الموت، وقد ارتسمت ابتسامة بريئة ظاهرة. ربما ـ قصد في ابتسامته تحرره الحقيقي في فجر جديد.

هذا هو لغز ميرزا، إذ أنه كان زهرة من روضة ذات أزهار روحية، وثمرة يانعة من نواة أصيلة، ولمعان من نور لا يخبو حبه أبدا، فحبه لهنار كان ضياء قلبه!

هذا هو ميرزا استرشد بخبايا التأمل والتجلي الوجداني في الكون الفسيح، وقد ارتوى قلبه، وشبع، وفاض نورا!

هذا هو ميرزا شحن قلبه بالتأمل الرباني والحب، وصقل قلبه، وهذب روحه، لتسمو إلى نور الأنوار بمعاني المجد والنبل!

نهض أهل بحزاني في فجر باكٍ على أصوات حشود هائلة محلقة من طيور السنونو في السماء. كانت تدور حول المقبرة، فهرع الجد مرتبكا إلى المقبرة، وتبعه أهل بحزاني، فصرخ الجد بأعلى صوته حين رأى ميرزا ميتا، وهو يحتضن قبر هنار، وراح يرتل مرثيته الجنائزية، فوقف أهل بحزاني مرتبكين بصمت ثقيل حزين، وهم يرون الجد يرفع رأسه إلى السماء، ويخاطب طيور السنونو:

ـ إرحلي، أن ميرزا مات، وهو يبلغ الكمال، هاجري إلى بلاد الدفء، فأصواتك صدى الوداع!

كان أهل بحزاني يتكلمون في داخلهم أن طيور السنونو تأخرت في هجرتها لأنها تعرف أشياء لا يعرفها البشر لذلك انتظرت حتى تودع ميرزا. أجل، دارت طيور السنونو ثلاث مرات حول المقبرة ، ثم شكلت سربا ضخما أسودا، وحلقت في السماء بعيدا بينما كان أهل بحزاني يتابعون إختفائها عن أنظارهم، وهم يهمسون لأنفسهم:

- إنها هاجرت.

دفن ميرزا مع خرقته السوداء المقدسة بجوار قبر هنار، وقد خيم ذهول عظيم على وجوه أهل بحزاني لهذا الحب الطاهر الذين كانوا يتبادلون النظرات بإندهاش، وكانت نظراتهم تتحدث:

- نمجد هذا الحب، نعظمه، نكرمه لأنه باهر ونقي.

وفي اليوم الثالث بعد الدفن زار الكوجك وأخو الآخرة القبر، وإذا بهما يشاهدان سحابة وردية تحت قرص الشمس تغطي المقبرة، وأن نورا ارتفع من القبر، فقال الكوجك بصوت مبهور خافت:

- أن روح الميت الطاهرة زفت مرفرفة إلى السماء.

حينئذ سالت الدموع من عيني أخو الآخرة، وهو يقول:

- ستلتقيها روح الحبيبة هنار، وتقاسمها المجد والكمال.

لم يلبث الكوجك إلا أن سحب نفسا عميقا، وقال:

- هذه معجزة الروح المخلصة.

أجل، خرجت روح ميرزا من جسدها، وتخلصت من أسرها، وصعدت مرفرفة شامخة محلقة نحو الأعالي تداعبها لطائف السماءِ المنعشة دون أن تقاسي البرد أو الحر أو يبللها المطر لأنها صافية مرهفة، لأنها أبدية خالدة في نور الخالق الأعظم. هذا سر عظمتها!

أجل، تلقتها هنار فوق السحابة الوردية في أنغام زفة هادئة تناغيها، وتناغمها:

- ها، جئتِ إلي في نعيم السلام، مبارك مجيئك، فأنا عذراء، وأنت حبيبي العذري البكر، نسير سوية فوق هذه السحابة الوردية يدا بيد، قلبا بقلب. روحان متداخلان، مشتركتان معا في كل شئ.

أجل، روحان متعانقان في رقة لا تفترق أحداهما عن الآخرى ولو للحظة من الزمن، فالحبيبان أدركا حبهما على الأرض، والتقى حبهما بعد الموت.

هما خالدان في ظلال طاووس ملك!

الفصل العشرون

ومضت الأعوام

هذا جزء من التاريخ الذي مر على بحزاني سواء كان في قصة حقيقية برموزها الواضحة ذات البعد العميق الصافي مثل صفاء النجوم أم صفاء الروح الأيزيدية التي تردد دائما: أنا قلبي أبيض مثل بياض سيرتي الدنيوية، ألبس ثوبا أبيضا نظيفا وأمشي في الطريق الصحيح، وإذا ما تلوث ثوبي أو تعلق فيه غبار أو بقعة من السواد فسوف يظهر هذا التلوث للجميع دون أن أستطيع أن أخفيه، حينئذ لم يعد لي أن أمشي في طريق النور، أجل، عندما تظهر بقعة سوداء على ثوبي لم يعد لي أن أمشي في طريق النور، لكن أنا لم أسرق، لم أكذب، لم أعتد على أحد، وألد أعدائي الكذب. إذن الصفاء الحقيقي هو معيار الخير في الحياة، ألم يشع النور صافيا من الشمس في النهار، ألم يشع الضوء صافيا من القمر في الليل، إذن النور هو صفاء الروح وروعة القلب، وهذا يبتغيه إنسان الخير على الأرض مثل صفاء الدموع في الليالي الحزينة، ومثل قطرات الندى في الصباح، ومثل صفاء النجوم في السماء، إذن أن عالمنا اليوم يحتاج إلى مثل هذا الصفاء الخالص سواء كان من الروح الكونية أم من الروح البشرية، فهو في النهاية الصفاء الخالص منقذ البشر، فهذا هو ثمرة عظيمة من حب هنار وميرزا، حب واضح صافٍ يقهر العالم، فمن هذا الحب بدأت الحكاية التي صارت أسطورة تتغنى بها الشعوب، صارت قدسية ربانية حقيقية مرتبطة أوثق الارتباط بجمال الوجود، والتأمل، ليبتسم لها العالم، يرعى خلودها، ويتشبع بنضج ثمرتها ذات العطر الذكي، ليدخل كل إنسان عصرا ذهبيا، متهللا في وجه مرح

الوجود بعزف إيقاع الناي الرقيق الخفيف اللطيف وسط عالم يضج بالحروب الفظيعة، وتتعالى فيه أصوات النحيب والبكاء، وتطول فيه أيام الظلام الكئيبة الحزينة، وينتهي العصر الغاشم، عصر الكراهية والآلام والقهر والطغاة، العصر المليء بالفظائع الذي تهدر فيه الدماء بفظاعة وقسوة، وترتكب حماقات دون أن يحس المجرم بوخز ضمير...

إذا كان الخيال الخصب هو الذي صنع أسطورة حب هنار وميرزا في الصفاء، فإنه مهابة في ضوء القمر، نستوحي منه، ونستلهم هذا الطريق الواجب سلوكه لسبر أغوار الحقيقة، لينكشف لنا عالم جديد في الذوق والمعرفة الروحية بعد أن رسم لنا الخيال لوحة لا تتاح إلا لمن له مثل هذا الخيال في التصوير والصياغة والإبداع حتى نحلق إلى آفاق الخلق والروح الرحبة، لكي ننشد الصفاء والتوغل في عمق النفس الانسانية بانسجام وهيجان روحي متناسق في ذروة التوحد بين صورة هذا الخيال والمعنى ونبصر خارج المحدود ونخرج من قيودنا ونتحرر إلى الحب والجمال.

إذ ما زالت الحكايات تتداول في بحزاني بعد عهود وعهود سواء في الليالي المقمرة أم المظلمة أي في النور والظلام غير أن بحزاني القديمة لم تبق كما كانت، فاتسعت بيوتها لتندمج مع بعشيقة، وجف ينبوع شيخ وبكر الذي كان يروي بساتين الزيتون، فقد حفروا بئرا بالقرب من ينبوع الماء، وكذلك جفت مياه ينبوع عين فنجان، ولم تعد العين الرئيسية مثل السابق تهدر مياهها الجارية، وقد اختفى أيضا السوق القديم الذي احتضن إرث أهل بحزاني، إلا أن مزار الحبيبين هنار وميرزا ما زال يزوره الغرباء العشاق، وما زال يزوره الأحبة

من كل مكان، وها هي أخبار الشر تتناقل على ألسنة الأيزيدين: الدواعش قتلوا آلاف الأيزيدين في سنجار، واغتصبوا البنات، وسبوا آلاف النساء لبيعهن في سوق النخاسة، وخربوا مراقدنا، وأمتنا الأيزيدية تهاجر إلى المجهول.

نعم، ظهر إدعياء الاسلام الجدد في القرن الواحد والعشرين الذين يطلق عليهم داعش ـ سفاحون، قتلة، مجرمون، يغتصبون النساء والصبايا بعد السبي الذي فيه أظهروا وحشيتهم تحت رايات سوداء لتتداعى في قطع الرقاب وسيول الدماء الدافئة البريئة. الويل لهذا العصر الذي تكلل بلباسهم الأسود المزيف، وراياتهم المزيفة، فها هم الدواعش العدميون الظلاميون قادمون إلى بحزاني. هم متشبعون بأخلاق الكره والحقد، أخلاق سفك الدماء والإغتصاب والتخريب. أراد أهل بحزاني أن يقاوموهم، ويدافعون عن قريتهم لكن بما يقاوموهم وهم لا يمتلكون السلاح، لذلك قرروا أن ينسحبوا من القرية، وفي أثناء ذلك رأوا عجوزا التي كانوا يسمونها الأم الجليلة قد تأخرت في بيتها. ذهبوا إليها، فوجدوها تحفر في أرضية غرفتها، وتخرج صندوقا نحاسيا من الأرض ثم ضمته إلى صدرها، وهي تقول بصوت وقور:

ـ هذا كنزي الثمين.

غادر أهل بحزاني القرية، وتوزعوا في المدن والقرى التي لا يستطيع داعش الوصول إليها بينما احتشد شيوخ وأعوان القرية، حول العجوز، وعيونهم تتساءل:

ـ ماذا يوجد في هذا الصندوق؟

دخل داعش قرية بحزاني دون أن يجدوا أحدا، فتقدموا إلى مزار ميرزا وهنار، وفجروا المزار بمتفجراتهم، وسووه مع الأرض، فاختفت الكثير من الطيور الجميلة التي عشقت هواء بحزاني وعذوبة مياهها، ورَاح الدواعش يخربون، ويدمرن في القرية مسعورين كوحوش ضارية.

بينما كان أهل بحزاني يحتشدون حول المرأة العجوز حافظة الحكايات، وقد توسل أحد الشيوخ إليها كي تريه ما يحتويه الصندوق من أسرار، وتكشف عنه. استجابت العجوز، وفتحت الصندوق، وأخرجت منه لفتين من أوراق قديمة صفراء. تناولهما الشيخ بحماس، وتلهف، وإذا به يجد مخطوطتين ثمينتين، فراح مع مجموعة من الكتبة يستنسخون المخطوطتين بأعدا كثيرة، ويرسلونها إلى أطراف الأمة الأيزيدية، كي تكشف الأسرار التي لا حدود لها في التاريخ، وعن مضامين فريدة، فراح الأيزيديون يرددون ، وهم يقرأون المخطوطتين:

- هنا تكمن المعرفة الحقيقية.

وكان في مقدمة كل مخطوطة رسالة تقول:

هذا الإرهاب تشكل منذ قرون طويلة، وهو لبنة من لبنات السلطة الإستبدادية. لم يظهر بالصدفة، ولم يكشف عنه بالصدفة، إنه بني، ووضع بطريقة متوحشة منذ آلاف السنين حين تعرض أثنائها شعبنا الأيزيدي إلى أكثر من ثلاثة وسبعين إبادة. هذا الإرهاب هو تدمير وفتك، وقد أدخل الإرهابيون عليه تحويرات تناسب وحشيتهم في كل عصر كي يتماشى مع

طبيعتهم الهمجية المتوحشة. يا أخوتي الأيزيديون، تمسكوا بأرضكم، فهذه أرض الأصالة والأجداد، وكافحوا من أجل حق البقاء، وحافظوا على تراثنا من الزوال.

المخطوطة الاولى

الأمير الأعور (ميري كوره)

في صباح خريفي استيقظ محمد من منامه. نهض حائرا من فراشه، وعلى حين غرة أصابه أسى عميقا. استشعر أن شيئا غريبا حدث في وجهه. لم يكن غريبا أن يحدث هذا في مثل هذا الصباح. إذ يحدث شئ غريب في بداية كل عصر من التاريخ. غطى وجهه بيديه، وشعر باشمئزاز من وجهه الأسمر، ثم مسد لحيته متفكرا بما حدث لوجهه، وتظاهر مع نفسه أنه يستفيق من إعجوبة خفية. أنها حقا ظاهرة عجيبة في صباح خطر، خطر جدا، قد تكون محض صدفة أو قد تكون محض صدفة من خطأ ما. إذ وجد محمد أن وجهه أصبح بعين واحدة. انتابه ضجر شديد من اختفاء عينه الأخرى، وراح يردد مع نفسه:

ـ ما أبشع وجهي بعين واحدة!

كيف سيتحمل الناس أن ينظروا إلى وجهي في كل صباح؟

في نفس تلك اللحظة جاءه صدى الناي من بعيد، بعيد جدا. لم يكن يقدر محمد أن يدرك إعجوبته، ولم يكن يقدر أن يفهم صدى الناي جاء ليعزيه في مثل هذا الصباح، بل غرق في

تأمل عميق، عميق جدا ـ أن الناي يزدري منه ـ لذلك استشعر بالغضب من صدى الناي. الأن، يسمع صدى الناي يعلو وينخفض في ترنيمته الحزينة في خضرة الصباح. هذا أيضا شئ غريب. حينئذ حرك عينه التي صارت تتبع أفكاره في اضطراب، فرمشت في شئ من الهول، وهو يقول بصوت فيه رنة من الحزن والأسى:

ـ لا شئ، لا شئ، أن الناي يستهجن الصباح.

حدث هذا في راوندوز ذات مرة في التاريخ. حدث هذا مرة واحدة في بداية عصر جديد، وقد تلاشى صدى الناي. يومئذ وقف الأمير الأب العجوز ينظر إلى عين أبنه الواحدة بارتياب وتوجس خاصة لم يحدث هذا إلا في زمن غابر جدا. لم يقدر الأب أن يتصور أبنه بعين واحدة بينما لم يكن محمد يبالي بهذا التحول، ولم تبد على وجهه سمات الأضطراب، فقد تظاهر كعادته أنه القوي الجبار. عندئذ ركز محمد عينه الثاقبة التي تقدح شررا على عيني والده، ثم غرق في التفكير: أنه يستطيع أن يرى العالم بعين واحدة. في نفس هذه اللحظة داهمته فكرة دون أن تخطر في بال والده أبدا. ساد صمت غريب، مقلق بينهما فيه من الفتور ما يكفي. تبادلا نظرات خائبة، معبرة في نفس اللحظة بالذات. عين محمد كانت تزدري من عيني والده المتعبتين، لذلك كانت عينه تنظر من نفق مظلم وتبحث في عيني والده كما لو أنها لا ترى إلا عيني والده وكأن لا توجد في الدنيا إلا هاتين العينين. حينئذ نضجت فكرة محمد تماما في هذا الموقف الحرج، فسأل والده:

ـ ما رأيك بعيني؟

فرد الوالد بلهجة طيبة:

ـ أنها رائعة، رائعة جدا.

حينها حدق محمد بوجه والده قائلا:

ـ الآن، أنا أمير راوندوز الجديد.

هكذا صار الصمت بينهما رهيب. صمت فيه نزعة تأمل، فيه حيرة استثنائية، فيه انشغال تفكير في لحظة وجود مشوش. هذا الصمت كان بداية النهاية حين استولى محمد على إمارة راوندوز، ونصب نفسه حاكما مطلقا يتوق إلى مجد عظيم، فقد نفى والده ووالدته إلى قرية اكوبان، وجعلهما يقيمان في قلعة دمدم. الآن، قد حان الوقت له ليخرس كل شئ، الآن، راح يحدق في البعيد مضيقا عينه بنظرة زائغة، قاسية، فقد اتقد شئ ما في ذهنه فجأة، فهو يمتلك قدرات هائلة في الحكم، ويمتلك تركيزا قويا في الرؤية وبعد النظرة. الآن، هو مخلوق بشري استثنائي في غفلة من التاريخ كأنه يتوعد كردستان. إذ أول ما فعله بكونه محارب عظيم أن قتل عمه تيمور خان صلبا، وقتل عمه يحى أيضا صلبا بعد أن سجن الأثنين فترة قصيرة. الآن، أدرك هو بالذات نبوءة الصباح، وأدرك نبوءة الناي ليبلغ العالم عن ظهور سفاح في راوندوز وسيملأ كردستان رعبا في آناء الليل، في نقاء الفجر، في قيظ الظهيرة، وليحل عالم مظلم يجثم عليه البطش، ويئن من صراخ الموت حيث بدأت تنفجر في هذا العالم ينابيع الدماء من الأجساد.

الآن، تهامس الناس أن الأمير مثير للإعجاب، مثير جدا في النور والظلام. آنذاك سدوا أفواههم آملين بمعجزة الأمير الكبرى. إذ أن الأمارة لا يمكن أن تستغني عن قدراته الهائلة في الذبح والقتل أمام أعين الناس. أنه يحتاج فقط مجرد إلى وقت قصير كي يثبت جدارته الكاملة التامة في أرساء الأمان. لذلك توافد عليه شيوخ دين، وإقطاعيون من أرجاء الإمارة لتقديم الولاء والطاعة. لم تمض فترة من الزمن حتى صار هؤلاء الأكابر يحلون الألغاز المستعصية للأمير الشاب لتكون قوانين الحياة والموت في الإمارة. هذا لا يكفي على الاطلاق، إذ لابد

من براعة أخرى لتوسيع نفوذ الإمارة لاسيما وأن الأمير تثيره الدماء، وتثيره الأجساد التي تتلقى طعنات قاسية متواصلة وتلقى وسط برك من الدماء صارخة في صيحات الموت. أجل، هؤلاء الأكابر صاروا يصدرون الفتاوى البسيطة والمعقدة المتعلقة بالتكفير والتحريم وسن شرائع الوجود - الأمير حقا مثير للإعجاب. لذلك راحوا يتملقونه باستعجال:

- يا باشا، يا صاحب العين الثاقبة ذات بعد النظر، أنت المؤهل الوحيد لإراقة دماء الكافرين.

يا أمير الأمراء العظيم، يا من تؤجج المخاوف والرعب في نفوس الأسياد الخاملين،

أنت الوحيد العظيم تسمو حاكما مستبدا مطلقا سفاحا ببرك الدماء والنار والحديد.

حينئذ أصبح الأمير محمد باشا الراوندوزي مشهور جدا. ذات مرة جاءه خبر بأن أخاه المفضل قطف ثمرة رمان من بستان دون أن يأخذ السماح من مالكه. استشاط غضبا ، وقال:

- آتوني به إلى هنا.

حضر أخوه بين يديه مرتعبا. سأله الأمير بكل هدوء:

- بأي يد قطفت الرمانة؟

استغرب أخوه دون أن يدرك معنى السؤال لكنه أجاب بصدق:

- بيدي اليمنى.

تمعن به الأمير، وهو يمسد لحيته، ثم قال:

ـ ضعها على هذه الصخرة.

ثم فيما بعد التفت الأمير إلى سيافه، وقال بخفوت:

ـ اقطع أصابعه.

آنذاك اشتهر الأمير الشاب في قطع الأصابع والأيدي والأرجل والأعناق، واشتهر أيضا في فقء وقلع العيون، ولم يجرأ أحد على سرقة دجاجة أو ماعز أو خروف، وصار اللصوص يلقبونه ـ الأمير القطاع ـ لكن هذا الأمير الذي اشتهر في زمانه الأمان ارتكب مذابح مثيرة وهائلة بالفلاحين الذين اكتواهم الفقر، وهم يهمسون في قراهم:

ـ الأمير الأعور (ميري كوره) محارب عظيم.

هكذا احاط الدجالون والمنافقون والمنتفعون الأمير الأعور كي يزدادون ثراء وكي يحملون الألقاب ـ شيخ، سيد، بك، أغا ـ على حساب الفلاحين الفقراء. الفلاحون راحوا يتقاولون همسا عن المجد الجديد، ويسردون قصصا في الليل العميق: ذات ليلة من صيف قائظ نهض الأمير محمد من كابوس مرعب حيث الناي العجيب كان يعزف في السماء. آنئذ استشعر محمد بالاضطراب، وهو يصرخ:

ـ أواه، أيها الناي الغريب يا من تهدد إمارتي، ستموت!

لكن هذا الصوت الذي ايقظه من نومه لم يكن صوت الناي العجيب بل كان بكاء طفلة رضيعة تبتغي حليب أمها، فهجم على مهدها متأججا كالوحش، ورفعها بيديه، وقد خرج

من طوره الجبار حيث أعماه الغضب وشراسة نفسه ليكون أشد رعبا، أشد قسوة، ويرميها إلى الوادي العميق مدمدما:

ـ لا أحد يزعج نوم الأمير.

ثم رجع إلى فراشه ليغط في نوم هادئ هانئ في آناء الليل. لم تمر لحظات، وقد عاد صدى الناي مجددا. كان صدى الناي يلاحقه في منامه ويعكر عليه نوم الهناء. كان النوم يهرب منه خاصة وقد أصبح هذا الصدى أشبه بدمدمة تقرع في رأسه. عندما نهض في الصباح مغتاضا صرخ بغضب:

ـ اسكتوا الناي.

عندئذ قرعت الطبول في ابتهاج مدوية في أرجاء الإمارة:

نداء إلى أبناء الأمة الكرام، نداء، نداء.

الأمير يحرم عزف الناي في الليل والنهار،

ويحرم رقصة (ره هشبه له ك) في الأفراح.

ثم قرعت الطبول في أرجاء الإمارة مجددا كي لا يسود الهدوء، وكي لا يهنأ الفلاح في راحة بال، لكن هذه المرة قرعت طبول الموت متتالية، وتعالت الأصوات مع إيقاع صدى الطبول:

ـ الأمير لا يهدأ دون قرع الطبول.

الكل كان يصغي في ارتباك. الكل لا يستطيع أن يستسلم للنوم في هناء. الكل يفهم أن مصيبة ستحل في زمجرة، في زلزلة. الكل مرغم أن يكون جاهزا في عدته للغزوات. غزوة ستلي غزوة في كفاءة متقنة، وقدرة كاملة. الآن، احمرت عين الأمير متوهجة مثل لهب بعد أن تم كل شئ على أحسن حال في راوندوز. ها قد انتجت أسلحة طعن من خناجر وسيوف، وانتجت أسلحة بارود من بنادق ومدافع، فتعالت فتاوى شيوخ الدين تجيز قتل الأيزيديين. كان كل شئ مبارك ونال رضا السلطان في الاستانة التي تمتد مخالبه إلى كل بدعة غارقة في الأذى والوجع والموت. فجأة اختلطت عند الأمير أصوات متشابكة تدعوه إلى الظلم، فلم يعد يميز بين الصوت الناعم والصوت الخشن. آنئذ صرخ كالمجنون كأي طاغية:

- آتوني بمرآة صغيرة!

هرع مرافقوه خائفين يبحثون له عن مرآة صغيرة. جاءوا بها فرحين. نظر الأمير إلى وجهه في المرآة، وجد عينه ما تزال واحدة، واكتشف أن وجهه فيه آثار جدري. ابتسم، ثم وضع المرآة في جيبه، وكلما اشتاق أن ينظر إلى وجهه أخرجها من جيبه، يتأمل فيها، وينظر إلى العالم من خلالها. بعد لحظة قصيرة صرخ بصوت فخور:

- زحف، ابادة تامة على إمارة بهدنان.

هكذا زحف جنوده متدافعين، متزاحمين على حرير، وكلك، ثم الشيخان، وهم يغتصبون أموال الأيزيديين وأراضيهم وممتلكاتهم، ويسرفون في القتل، ويستبيحون الفتيات والنساء. لم

تبق قرية إلا وأوقدوا عليها النار وأبادوها. لم تبق أرض إلا وعاثوا فيها الخراب. لم يبق بستان زيتون إلا وأحرقوه. أسرفوا في القتل أينما حلوا. سبوا الفتيات والنساء واقتادوهن إلى أسواق النخاسة في مدن سوران. أبادوا قرى كاملة، ذبحوا الجميع بالرغم من مقاومة الأيزيديين إلا أن جند الأمير كانوا يتفوقون عليهم بالعدة والعدد والعتاد. تلك كانت مقاومة لا جدوى منها، فانسحب من نجا منهم إلى الوديان وقمم الجبال والمغارات والكهوف، واختفى بعض منهم بين الأشجار الكثيفة البرية والأدغال والأحراش، وهم يسمعون دمدمة الزاحفين:

ـ غنيمة، غنيمة، غنيمة.

يومئذ احتشد الأيزيديون في يوم ربيعي كي ينجوا من الإبادة عند جسر الموصل الذي يربط طرفي دجلة الفائض في هدير صاخب سريع. أجل كان هذا الجسر هو الوحيد الذي عبره يصلون إلى شاطئ الأمان، لكن والي الموصل أزال الجسر وقطع طريق النجاة، فهتف الأيزيديون:

ـ لنحتمي في تل قوينجق ونقاوم وندافع عن الأطفال والنساء.

حشوا بنادقهم للاستبسال لكن في تلك اللحظة المشؤومة جاءت زخة مطر من غيمة سوداء فأفسدت البارود وتعطل مفعول البنادق، حينها فاجأهم فرسان الأمير وحدثت المذبحة دون غوث، دون رحمة، دون شفقة، وأهل الموصل يرون من شرفات بيوتهم كيف تضرب الأعناق، وتنزف الدماء، فهذا جندي ينتزع وليدا رضيعا من صدر أمه، ويذبحه أمام عينيها،

ثم يضع السيف على صدرها، وينفذه من ظهرها. ذاك جندي يسحب طفلا من حضن أمه وهو يبكي بصمت، بشهقة راجفة دون صوت، فصرخت أمه:

ـ لا تقتله.

اندهش الجندي، وقد تشتت أفكاره، وهو يراقب أمه التي راحت تتوسل:

ـ لا أريد أن يقتل أمامي.

تأملها الجندي ثم ضحك وقال:

ـ ماذا تريدين؟

ردت الأم بخفوت:

ـ اقتلني قبله، لا أتحمل أن تذبحه أمام عيني.

حينئذ رأى الطفل أمه تذبح أمام عينيه قبل أن يذبح هو أمام جريان نهر دجلة، وتحت غمامة السماء السوداء. أجل، لم ينج أحد من الأيزيديين من هذه المذبحة حتى الأم التي أخذت برأس صبيها ، ووضعته في حجرها وهي تناغيه دون غيث، حتى ذلك العجوز المتمرغ في الدماء الذي نساه جند الأمير وهو يئن في جراحه، وهم يفتشون في جيوب القتلى عن غنيمة. بعد لحظات سمع أحد الجنود آنينه، فعاد إليه قائلا:

ـ ماذا تريد؟

فقال العجوز أشبه بالتمتمة:

بئس بكم، ألم تشبعوا من الدماء؟

فغرس السيف في صدره وهو يقول:

ـ ما رأيت مثل هذا قط!

فيما بعد انتهى كل شئ. كان هذا هو الرعب في سطوة الموت. كانت هناك لحظات صمت من الوقت. صمت مشؤوم. إذ ما عادت هناك حياة للأوجه الشاحبة، الوديعة الدافئة. صرخة الاحتضار لم تجد غير الصمت في أعماق الزمان إلا أن هدير دجلة استمر في صراخه وهو ينوح، آنئذ تعكر ماؤه، ثم بعد ذلك جاء صدى الناي الكئيب الحزين كأنه في بكاء، يحوم صداه مثل طائر فوق عشرة آلاف جثة مطروحة فوق التراب، عشرة آلاف أيزيدي قد ذبحوا فوق تل قوينجق. هذا هو الرعب، ثم صار الصدى ترنيمة الموت فوق بساتين الزيتون المحروقة. هذا هو الرعب في التاريخ الأسود الكئيب. الترنيمة صارت هذيان ، ثم صمت. لم تعد هناك حياة. وجوه ساكنة في براءتها. كان صدى الناي الحزين يصلي، ويبكي، ويسبح من التاريخ:

أرواح نور ترفرف في السماء

مثل نجوم لوامع تتألق بيضاء

أجساد فوق تل كوينجق كنداء

شمس تشرق فوقها دون انتهاء

منيرة وضاحة طالعة حسناء

صفراء في نورها في السماء

ماذا وراء الأمير غير البلاء

ارتكب أكبر جريمة شنعاء

ويح له من قصائد الشعراء

الأمير الأعور في ألسن هجاء

شمس تشرق فوق القتلى في النهار

شمس تغيب فوق القتلى في انبهار

أرواح نور ترفرف في السماء

مثل نجوم لوامع تتالق بيضاء

وفيما بعد تلهف الأمير أن ينظر إلى وجهه في المرآة. أخرج المرآة من جيبه، ونظر فيها. رأى وجهه قاسيا مريبا صارما. أنه وجه مجرد فارغ من أي حلم إنساني. أنه يعكر الصمت أيضا أما عينه التي تنظر إلى البعيد من خلال المرآة، فوجدها لا ترى إلا الموت. عينه وحدها قادرة فقط أن ترى الموت. عينه راغبة في الموت. أنها مجرد ترى رغبة في القتل. ها هي عينه ترى قرية كبيرة في كردستان مسالمة آمنة مبتهجة، زاهية في أفراحها ـ سبعة أعراس في آن واحد ـ أشاح بوجهه عن المرآة: الفرح لا يعجبه. استغرق في صمت مشوه. خلال

فترة وجيزة تعتمت نظرته في الظلم، وقد فاجأه صدى الناي من بعيد. هذا يوجعه. صرخ بأعلى صوته:

- ما أسم هذه القرية.

أجابه أعوانه بذعر:

- إنها قرية ختارة يا أمير الأمراء.

تمتم بصوت متكسر:

- أنا أبحث عنها في الليل فأجدها في النهار.

لم يتمالك نفسه، ولم يتوان الصبر، وقد هز رأسه بغضب، وقال:

- هجوم.

صارت أصوات جنده تقطر دما وهم يقتحمون القرية بسيوفهم التي راحت تضرب، وتشق الرؤوس، وتهوى على الأذرع التي تقاوم. كان أهل ختارة يقاومون بشراسة. الرجال والنساء والصبايا كانوا يقاومون بشراسة: رجل ببندقيته يقاوم. هذه امرأة بخنجر تقاوم. هذا صبي بحجارة يقاوم. الكل كانوا يقاومون الغزاة القساة من أجل قريتهم التي أحبوها، وأطفال يبكون في وجه الموت، وهم بين أزيز الرصاص وصدح السيوف. اشتدت المعركة فلم يبق الختاري عصا إلا وقاوم بها، ولم يبق فأسا إلا وقاوم بها، ولم يبق مسحاة إلا وقاوم بها الغزاة، وأهل ختارة يهتفون:

- لا عيش، لا عيش إلا ختارة.

فهذا شيخ كبير بكى حتى اخضلت لحيته دما، فما بقاؤه دون أبنائه، وهذا صبي لم ينبت الشعر في شاربيه كانت ترفسه أقدام الغزاة ،وهو يصيح ما أصنع بالحياة دون حبيبتي، وهذا طفل يخرج من بين الأرجل باكيا يبحث عن أمه، وتلك أم تنحني على وليدها كي تقيه الموت، فتتلقى طعنة مميتة في ظهرها لتسقط فوق وليدها مثل نجمة سماوية تنيره بحنان. هكذا صاح أهل ختارة: غدر جند الأمير ألأعور، غدر، غدر. كانت وجوه الكره لجند الأمير الأعور قد شاهت تماما بدماء الأيزيديين. لم تنج عروس من السبي. أوثقوهن برباط، واقتادوهن إلى راوندوز بينما كانت تلك العروس بفستانها الأبيض تضم مذهولة منديل عريسها الأبيض المخضب بالدماء إلى صدرها. أضرم الغزاة النار في المعابد، وردموا الآبار، وسلبوا الممتلكات، وانسحبوا بغنائمهم كي يبتهج بها الأمير الأعور.

وفيما بعد انتهك جند الأمير حرمة القوش ـ وريثة السلام والمحبة ـ ليحل فيها الفزع، فقد استباحوا الكنائس، فها هم ينحرون الشماس على المذبح المقدس، ويذبحون المعمرين والرجال الأتقياء في اليوت، ويسحلون أجسادهم الطاهرة في الأزقة، ويصرخون:

ـ كفرة، كفرة.

لم يكتفوا في ذلك، بل راحوا يضربون العجائز ويسبون الفتيان بعد أن يجردوهن من الثياب، ثم يطاردون الناس الأبرياء إلى الجبال، يحاصرونهم، ويهجمون عليهم مقطعين أوصالهم دون رحمة، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم:

ـ أين الكنوز، الكنوز؟

استرشدوا إلى الكنوز بعد أن قتلوا الأب جبرائيل دنبو رئيس الدير وسبع كهنة، وثلاث راهبات، وألحقوا الموت والوجع والألم بأهل ألقوش، ثم وقفوا يتطلعون إلى الكنوز التي بحثوا عنها فاغري الأفواه، مدهوشي العيون دون أن تستحي نظراتهم، فقد كانت الكنوز تحتوي على صليب فضة، وكأس ذهبي ومخطوطات عن الخلق ومسيرة التاريخ ووصايا إلى الخير، وملابس طرزت بالقربان. أجل، لم تستح أبدا عيون القتلة أن ترى كنزا يؤدي إلى سمو الانسان وصفاء الروح وطهارة الجسد.

آنئذ أرسل جند الأمير الكأس الذهبي المقدس وقافلة من السبايا كغنائم حرب إلى أميرهم القابع خلف أسوار وقلاع راوندوز، فابتهج جدا، فها هو ينظر إلى عينه الفارغة الصماء الشريرة التي لا ترى إلا الرعب من وجهه اليابس الجامد. لا شئ في عينه إلا أن يرى الرعب يسود الأرض في كل مكان. فيما بعد انتهى كل شئ في الموت ـ وهو الرعب. الآن يسمع صدى الناي من داخله الذي فيه قلب متحجر يعود إلى عذر الهمجية. عندئذ اغمض عينه ثم فتحها كما لو أنه يتلاعب في نظراته بساحة الدماء. في تلك اللحظة ارتسمت على حافة الكأس المقدس عبارة مرئية جدا: أنت مهزوم. صرخ مهتاجا ثائرا وهو يصرخ: احرقوهم.

ثم فيما بعد، تثاقلت الأيام على الأيزيديين التي لم تعد تحتمل في مواجهة عتاة الظلام، وهواجس الموت. أجل، شعب الأيزيديين لمت به المحن والمذابح المروعة إذ حتى النجوم في

عليائها عتمت نفسها خجلا من المهالك التي ارتكبها الأمير الأعور على الأرض. في ذلك الوقت احتشدت العوائل في لالش كي يستنجدون بريق نور في الخلاص من البطش الذي يطاردهم في كل مكان، وكي يسرفون في التأمل والأمل من أجل النجاة. وحش بدائي ظهر لهم في كل مكان متعطش للدماء. نعم، الأيام تمضي بلا حساب في الزمن الدامي البطئ الخطى. كان جند الأمير يقتربون من لالش كي يوشحوا لالش بالموت. أنهم يقتربون بوجوههم الغليظة، فاحتوى الأبرياء الخوف الرهيب. خوف جزاؤه الموت. تلك كانت أحلك لحظات أثناء حمرة الشفق التي ظهرت في السماء بعد الغروب فوق الجبال التي تواجه المعبد. استعجل الأطفال والنساء والشيوخ ليدخلوا نفقا مظلما باردا مثقل الهواء قرب العين البيضاء. أزاحوا صخرته التي كانت بمثابة باب سري، واندسوا في جوف النفق الذي كان يسمى نفق قرقوري. تلك كانت لحظة مبهمة المصير، تمحي العيون من النظر إلى بهاء لالش الغارق في الهدوء. انحشروا في النفق طالبين منه النجاة. ذلك كان أمر مروع جدا. أمر مروع أن يتصور المرء أنه يختفي من شبح الموت الذي يطارده. أمر مروع أن يتصور المرء أن ينتهي الروع في نفق الظلام، وفي غضون أيام. كانوا يغمضون عيونهم في نفق البؤس كي يطردوا الظلام. كانوا يكتمون أنفاسهم كي يطردوا الرعب. كانوا يبكون بصمت. كانوا هم الأبرياء إن أرادوا أن يتحدثوا بكلمات يهمسون فقط من خلال الأذان. كان الهمس هو الوحيد يواسي النفس في جوف الظلام.

توالت عليهم ساعات الليل الكئيب، وتوالت عليهم ساعات النهار المخيف الغريب. لم يستطيعوا أن يعدوا الساعات في

الصمت الثقيل. الكل صامت، الكل يترقب ماذا سيجري لهم في هذا العالم الأليم. الظلام لا ينقشع إزاء مأسوري عتمة الليل والنهار في نفق قرقوري، والأمل خادع للتعساء البائسين. فجأة صار خيالهم يسبح في فزع لا نهائي وهم يسمعون أصواتا ماكرة خادعة أشبه بالزعيق فيها نبرة تتمثل باللهجة الأيزيدية، تردد اسماء نساء أيزيديات شائعة عند الأيزيديين بلكنة مموهه:

ـ فاتنة، عائشة، اخرجوا، اخرجوا، جند الأمير انسحبوا.

لكن هذا لم يخدع المختفين في نفق قرقوري من أطفال ونساء وشيوخ الذين يزيد عددهم على المئة، فلم يخرج أحد، وهم يستهينون بالعطش والجوع غير أن الأطفال بدأوا يطلبون جرعة ماء همسا، فخرجت امرأة وبيدها وعاء لجلب الماء من العين البيضاء. حينئذ لمحها أحد جند الأمير، فتجمع الجنود عند مدخل النفق المغلوق ،وراحوا يصرخون كالفحيح:

ـ اخرجوا، اخرجوا.

لم يخرج أحد. راحوا يسمعون هرجا، وأصواتا مختلطة تأتيهم من قرب مدخل النفق المغلوق. آنئذ كوم جند الأمير حطبا قرب المدخل، ثم الهبوا النار في الحطب، فشبت النار، تصلي وتحرق، وراح الدخان يتسرب إلى النفق، فأصاب الأبرياء ذهول مفاجئ، وانطلقت الأنفاس المكتومة في اهتياج، وانفجر الأبرياء في الصياح والصراخ والنحيب:

ـ القساة يقتلونا خنقا بالدخان.

هذا هو الفزع الرهيب الذي بدأ يخفق رويدا، وتضعف الأصوات، وتختفي مع الموت الحزين البطئ في فاجعة مروعة. ذلك كان في يوم رهيب.

لا شئ سوى الأحياء يستذكرون الآلام. تلك الألام الموجعة في النفس البشرية التي تعرف كل شئ عن الموت الرهيب. هذا حدث في سهل نينوى، ولالش والعمادية وسنجار وأغلب مناطق بهدنان عام ١٨٣٢. أجل، الأحياء يستذكرون تلك الدماء التي نزفت على أيدي جند الأمير الأعور في أيام مشؤومة. أيام صارت تستذكر في التاريخ، وتتناقلها الأجيال.

كان الأمير الأعور يحن إلى المرآة ، فأخرجها من جيبه وراح ينظر إلى عينه التي اضمحلت في رؤيا جديدة، رؤيا أن العالم بين يديه، يسحقه ويدمره متى رغب. الآن لديه رغبة أن يبحث عن صدى الناي الذي يهدد كيانه، في خطاب خالد:

- أنت مهزوم أيها الأعور.

فصرخ برعب:

- آتوني بعلي بك.

آنذاك وقع أمير الأيزيديين علي بك في الأسر، فاقتادوه إلى راوندوز، ثم رموه في السجن. الآن يقف علي بك في مواجهة لا تنسى أبدا عند الأيزيديين. مواجهة تشبه المبارزة بالنظرات. ذلك لم يرق لصاحب العين الواحدة، فاستشاط غيظا:

- اسلم تسلم يا علي بك.

ابتسم علي بك، وقال بصوت وقور خافت:

- ألم يقل نبيكم: (لا إكراه في الدين)، فلي ديني، ولكم دينكم.

استشاط الأمير الأعور غيظا، وشعر بأن كل شئ يهتز ويرتج تحته، فصرخ مرتعبا:

- اقتلوه.

اقتادوا علي بك إلى شلال هادر الذي صار فيما بعد يطلق الناس عليه شلال علي بك تيمنا ببطولة هذا الأمير الذى أبى أن يترك دينه من أجل قدح من الدم. قتلوه وعلقوا جثته ثلاثة أيام على جسر راوندوز حتى جاء صدى الناي من بعيد يخاطب الأمير المقهور:

- أنت مهزوم يا أعور.

استشاط غضبا وهو يردد:

- ادفنوعلي بك وسوا التراب فوقه دون أن يبقى له قبر يذكر.

فيما بعد أيضا، كانت النهاية - نهاية سطوة الأمير الراوندوزي - فجأة أحاط جيش الباب العالي راوندوز، ووجهوا المدافع صوب السور والقلاع، وقد تفرقت أيادي البطش بمجرد فتوى بسيطة من شيخ الدين محمد الخطي تحرم محاربة جيش الخليفة محمد الثاني الجالس فوق عرشه في الاستانة. فتوى تقول : (أن من يحارب جيش الخليفة العثماني غير مؤمن وزوجته منه طالق). تلك كانت النهاية. لا شئ بعد الآن. كل شئ انتهى. لا مفر للأمير محمد الراوندوزي. استسلم خانعا ذليلا باعتباره رعية من رعايا السلطان العثماني بعد أن صدر بحقه العفو. اقتادوه إلى الاستانة، وبعد مثوله مهانا أمام السلطان

قدم الطاعة والولاء لسيده خليفة المسلمين. أمر الخليفة بتقديم الهدايا الثمينة نتيجة لخدماته الجليلة لعرش الخلافة، فرجع مزهوا دون أن يدري أن العثماني يدبر له مكيدة كالمعتاد. أثناء عودته إلى راوندوز استقبله والي سيواس بحفاوة بالغة ليقوده إلى الموت.

لقد مات الأمير الأعور تحت وطأة السطوة ذاتها التي سخر نفسه من أجلها. مات بعد أن اختلق لنفسه عظمة ضبابية تلاشت أمام قوة أكثر بطشا من قوته الخرافية في سفك الدماء باسم الله. لا أحد يعرف كيف مات هذه الأمير الذي امتدت سطوته خارج إمارته. البعض يقول: ملأوا شرواله بالحجر ، ورموه في بحيرة. البعض يقول: سلخوا جلده، وشووه على نار هادئة. البعض يقول: ذبحوه على الطريقة الاسلامية لكن قد يكون الأصح أعدموه على الطريقة الحميدة بقطع الرقبة بالسيف. هكذا صار الناس يرددون فيما بينهم: أنه مات، وماتت إمارته، وتلاشت الإمارات واحدة تلو الأخرى دون أن تبنى مدرسة واحدة لتعلم القراءة والكتابة.

هذا هو التاريخ المرعب الذى انتهى بانطفاء عين الأمير الوحيدة بموته عام ١٨٣٧ بعد أن قتل عشرة آلاف من ختارة، وقتل جميع أهل بحزاني وبعشيقة، ولم ينج من القرى الثلاث إلا من كان خارجها. هذا الأمير الطاغية الوحشي الذي لا يضاهيه أحد بسفك الدماء قد قتل حوالي مائة ألف أيزيديا في زمانه. لقد مات الأمير الأعور، وماتت مراسيمه الرهيبة المروعة في القتل لكن صدى الناي ما يزال يعزف في ختارة، يعزف في الأفراح والأحزان.

المخطوطة الثانية

حين تقرع الطبول

حدث هذا في مدينة بغداد الجميلة المزدهرة بالعلوم والمعارف، وفي زمن نهايات الدولة العباسية التي ابتليت في آواخرها بخلفاء ضعفاء مرتبكين منغمسين في اللهو والتسري، والمتع في أجساد الجواري والإماء في قصورهم الملأى بملذات الدنيا. آنذاك اشتهرت بغداد بتجارة العبيد التي كانت تجلب للتجار أرباحا سريعة، فذات يوم قرع الطبالون الطبول، وهم يدورون، يجوبون في شارع الرقيق الذي يقع في القسم الشمالي من الجهة الغربية من بغداد والمليء ببيوت الرقيق، وتعالت أصواتهم:

- مزاد، مزاد في سوق النخاسة.

هرع التجار إلى السوق، وتجمهروا متدافعين، وهم في شوق أن يشتروا ما ترغب به أنفسهم في إسترقاق العبيد، ليكونوا متعة يستلذون بها، وكذلك يستمتعون بأجساد الصبايا الفاتنات الناعمات أو يتخذونهن خدما في منازلهم الفاخرة أو يزجون الصبيان في أعمال شاقة زراعية كانت أو بنائية أو يدوية أو حتى باعة في دكاكينهم. كل تلك الغاية تضفي عليهم البهجة والأرباح في نفس الوقت لأنهم أغنياء مترفون.

لم تمض لحظات حين أعلن الدلال بصوته الجهوري بدء المزاد، فصعدت صبية ببطء إلى دكة الرقيق لا يسترها إلا ثوب خفيف، وهي تقف خجلة مطأطئة الرأس، كئيبة، تترقرق الدموع في عينيها، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار مسلوبة الإرادة بينما

كان الدلال يستعرض محاسنها، ويتباهى بأنها سبية من انتصارات المسلمين العظيمة في ما وراء القفقاز.

حينئذ كان يتقدم إليها زبون، ويتفحص مفاتنها دون خجل أو وقار، ثم يعود إلى مكانه وسط الجمهور ، وهو يهز رأسه يمينا ويسارا تعبيرا بعدم الرضا بمفاتنها، ثم فيما بعد يتقدم إليها عجوز، ويتفرس فيها، ويتحسس صدرها، وساقيها، ومؤخرتها، ويدفع الثمن، ويقتادها معه لتعيش عالمها المجهول.

هكذا استطاع مالك العبيد أن يصرف بضاعته البشرية التي وفرت له أرباحا جيدة بقدرة الدلال ولباقته وحسن صوته الجهوري بسرعة. وأخيرا نادى الدلال على صبي، فصعد هذا إلى الدكة، وهو يرتدي ملابس رثة عتيقة ممزقة لكنه كان حسن الوجه موردا، وقامته حسنة. عندئذ صاح الدلال:

ـ هذا سبي من سبايا الأرمن.

تطلع إليه زبون متخصص في بيع وشراء العبيد، ثم تقدم إليه، وهو يتفحصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وبدأ يتفحص شعره، وأطرافه، ثم أشر له بأصابعه أن يفتح فمه، ويمد لسانه بينما كان الزبون ينظر إلى أسنانه. بعد برهة أعلن الزبون إنه يشتريه، فتعالت حينها همهمة بين الجمهور خاصة وإن سعره كان غالي الثمن:

ـ أخصيه!

فرد الزبون بغضب:

ـ لن أفعل ذلك.

اقتاده الزبون إلى دكانه الذي كان يبيع فيه القماش، فوجد خياطا كان بانتظاره، فرأى الخياط المملوك، واعجب به، فزاد ثمنه أضعافا، واشتراه، واقتاده معه في سفرة طويلة شاقة إلى مدينته الموصل. هناك تربى، وترعرع هذا العبد في خدمة سيده، وعلى نواميس حياة جديدة، فقد علمه سيده الصلاة، واجبره على الصيام كي ينتزعه، ويفصله عن صميم ماضيه، وانتمائه القديم، ويسلبه كل شيء يمت له صلة باصله. هذا كان إعتقاد سيده. إعتقاد خاطيء، فالعبد يدرك أنه مستلب الإرادة بفعل سلطة القوة. هذه السلطة التي تخنق حريته لكنها لا تستطيع أن تنتزع حبه الخفي لإهله وموطنه. أن المالك اعتقد أنه استطاع مسخه حينما جعله يصلي ويصوم طائعا لأوامره بدقة بينما كان المملوك يكبت الحقد والكراهية في داخله لمالكه، ولكل ما يحيط به من بشر دون أن يفصح به لأحد، ودون أن تبدر منه كلمة كي لا يفشي سره هذا الدفين في صدره.

دائما كان يقف وراء سيده يدفع عنه الذباب أو يروح له بالمهفة أو يأتيه بما يحتاج من أشياء. ذات مرة سقط من يده قدح ماء، فأمره سيده أن يضطجع على بطنه، ويرفع قدميه. بعد لحظات انهال على قدميه بالعصا ضربا مبرحا مما جعله يصرخ، ويبكي من شدة الألم. لم ينم المملوك في تلك الليلة، فقضاها في نحيب صامت، وهو يتذكر أهله، ووطنه الأصلي الذي كان حرا فيه. حر أن يركض طليقا ، ويلعب مع أقرانه في حديقة زهور، ويطاردون فراشات زاهية الألوان أو طيور مغردة فوق الأغصان. أنه كان يتذكر كيف تم خطفه وسط نيران ملتهبة أحرقت بيته. نيران شديدة مضطرمة احرقت كل شيء وسط صراخ أطفال وأمهات وقتلى تسبح في الدماء. الآن،

النيران اختفت في تذكره مثلما ظهرت على حين غرة. أجل، الآن يتذكر قريته التي كان يسودها المرح قد تحولت إلى مهجورة مقهورة منهكة أشيع فيها الرعب. الأن، لم تغمض عيناه، إذ أجفانه تؤلمه، وهو تتراءى له تلك السيوف التي تدور، وتضرب وتقتل بشراسة. هو لن يكل أن يتذكر لذلك تؤلمه عيناه. أجل، سنوات العبودية أثمرت الألم والشقاء والبؤس، وقد شبه نفسه أنه في زنزانة الكره، وهذا هو عدوه الحقيقي، فصارت عنده أصوات قرع الطبول تختلط بذكريات القهر والمذلة والمعاناة، فيحزن حزنا شديدا، وفي نفس الوقت كان يتفاعل معها باهتزاز جسمه طربا، وتثير عنده الحماس، وتبعث الهمة، فينسى، ويخف عنده الألم، فهو بقرع الطبول يعود إلى ماضيه، ويستعيد الذكريات. عودة لظله المجوف الذي مر عليه في زمن ثقيل. كم حاول أن يقبض على صدى قرع الطبول لعالم مفقود، يومئذ أدرك أن لا مبرر للخوف، ثم ما جدوى الخوف حين تقرع الطبول لتبدأ الحروب. هنا حربه التائه فيها بصمت رهيب، ليعد نفسه إليها، فالحنين لماض ولى لا تحفزه على القتال، فالطبول حين تقرع تجعل المحارب قوة جبارة لا يجاريها أحد في عظمتها وبسالتها.

في تلك الليلة الكئيبة تملك المملوك إحساس أليم بالضياع والحرمان. هذا ظل يعذبه وهو يتوق لحظة أن تقرع الطبول المقدسة، لحظتئذ ينصت إليه، ويخشع إليها في هيكله السري، ويهزم الخوف، وسوف يصرخ:

- يا حارس الطبل المقدس اقرع، اقرع!

في تلك الليلة الذليلة لم يشعر إلا كونه فريسة مستلبة مجبورة على الإذعان والإنصياع، وأن لا مهرب له من هذا الوجود المريع الذي لا ينتمي إليه، فلابد أن يتعايش معه مهما كلف الأمر. غالبا ما كان يتساءل:

- من أنا سوى سبي أرمني، يعيش في سأم وعجز وقهر.

أجل، كل شئ كان يثقل عليه، ويقيده، ويتحكم به، فما عليه إلا أن يتماثل معه لأنه مرتهنا له، فهو عبد مستهلك، مسلوب الإرادة والقدرة، وما عليه إلا أن يتلائم، ويتكيف مع كل شئ بصبر.

ذات يوم اصطحب الخياط المملوك إلى قصر الملك نور الدين أرسلان شاه الذي كان يبتغي ان يخيط الخياط له ثوبا ملكيا فاخرا مطرزا بالجواهر، ولم يكن يجيد هذا الفن آنذاك في الموصل سوى هذا الخياط. وقف المملوك في صالة القصر مندهشا مذهولا لهذه الفخامة التي يتميز بها القصر. فجأة ظهر الملك مع حاشيته، فانحنى الخياط تكريما لعظمة الملك، وفعل نفس الشئ المملوك، وقد وقع نظر الملك عليه فاعجب بحسنه، فبادر إلى شرائه بمبلغ باهض، فما كان من الخياط إلا أن يتمتم بالرضا والشكر إلى الملك، وهو لم يحلم أن يحصل على هذا المبلغ في بيع عبدٍ على الاطلاق.

هكذا اصبح هذا العبد المليح الصورة مملوكا للملك الذي أطلق عليه اسم بدر الدين لؤلؤ، ثم حظى باهتمام الملك، فعينه استاذ داره، وأولاه شؤونا وأمرا في إدارة مملكته، ثم جعله أميرا متنفذا، ثم وصيا مدبرا لابنه وارث العرش. حينئذ ادرك

بدر الدين لؤلؤ ماهية الفطنة والحيلة والمكر في مجالس الفقهاء والأتقياء وسادة المملكة والوجهاء مما جعله يعتقد بأن حاضره مزيف، وأن ماضيه أصيل بين أهله في أرمينيا، فكان يرى هنا كل القيم والتراث مزيفة. هنا كل الأشياء مزيفة مهما فتحت ابوابها له، ومهما تماشى معها. كان هذا سره الذي يرتبط بكيانه، ويندمج به، ويغلف نفسه به. سره بحبه لماضيه الأرمني لا يستطيع أن يتخلى عنه، فهو يقف حائلا بينه وبين الآخرين في هذا الوجود. هذا كان أشبه بظل يرافقه في كل مكان، وفي كل زمان. سره هذا الذي يمتلك عقله وقلبه هيهات له أن يكشفه لأحد، فكان دائما يردد في عزلته:

- الكل باطل. عالم يغوص في ملذات الدنيا.

ذات مرة رأى كيف كانت تساق الجواري الجميلات إلى بغداد لتمتلأ قصور الخليفة وحاشيته بالفحش والفجور والمجون والخلاعة دون حياء وخجل، ولتكن قصورهم أوكار شرب ورقص ولهو. أجل، أنه وجود مزيف يحيا على قشور الدنيا. لكن بدر الدين لؤلؤ لبس رداء التبصر، والتماشي مع الكره، والتريث المجبور عليه، وعدم الاكتراث بغية انتظار اللحظة التي بها يستطيع الإنقضاض على هذا الموجود الذي يكرهه. أنه كا يتماشى مع الناس، ويكابد نفسه مكابدة في صمت رهيب، ويتعمد التجاهل إلى حد الدهشة، وهو يدرس أيضا مزاج، وتقلبات الناس.

ذات ليلة قرعت الطبول، فسرق صداها نوم بدر الدين لؤلؤ، فنهض من فراشه، ووقف مهووسا يدندن بصوت خافت أشبه بهمس:

ـ لماذا تقرع الطبول، أهذا حارس الطبل المقدس يقرع طبله؟

في أثناء ذلك كانت تتراءى له صور القتلى المذبوحة الغارقة في برك الدماء من أقاربه وأصدقائه بينما كانت النيران تلتهم البيوت. تلك كانت لحظة جزع مروعة بالنسبة له التي لم تفارق ذاكرته. لحظة كانت تثيره جدا كلما قرعت الطبول إلى درجة يسمع بها نداء موت غريب ومباشر في غمرة ضياعه وغربته. كان ذلك نداء بدون صوت يرن في أعماق ذاته. هو يتحمله وحده دون أن يتحرر منه نهائيا، وكذلك يطويه في خوف حين انتزع من حضن أمه باكيا صارخا:

ـ أريد أمي.

أجل، كلما سمع بدر الدين لؤلؤ قرع الطبول كانت تعيده تلك الدقات إلى الماضي، وتحي في ذهنه ذكريات المذبحة. الآن ما بعد قرع الطبول تعالى صوت المنادى:

ـ مات الملك العادل نور الدين أرسلان شاه.

في هذه اللحظة تلبس في حزن مزعوم ، وأدرك أنه سيدخل من خسرانه، وضياعه عبر بوابة مجهولة يستطيع بها أن يقبض بيديه الريح، ويقبض على ظلال الحياة والموت في هذه المملكة التي أتت اللحظة الراهنة كي يحصد زرعها، ويقطف الثمرة الناضجة في يده القوية التي بها سيمسك مطرقة يدق بها، ويضرب حديدا ملتهبا على سندان. هو الملقى في عالم لا يحبه، هو المملوك العبد الأرمني المنبثق من النسيان والسقوط في تناهي الزمن انفتح أمامه عالم لابد أن يحدث فيه

منعطفا في التاريخ والقيم والتراث، فانخرط في بكاء أليم. قرع الطبول هيجت البكاء، ولازمه الحزن على ما فات. أنه تباكى وتحازن على ذلك بأسف. فجأة سمع طرقات على الباب، فقال وهو يتلبس بالغم المزعوم:

ـ ادخل!

انحنى الخادم تبجيلا، وهو يردد بقلق وغم:

ـ مولاي الملك مات.

فقال بدر الدين لؤلؤ بصوت كئيب:

ـ اذهب!

فقال الخادم وهو يتراجع بهدوء إلى الوراء:

ـ سمعا وطاعة يا مولاي.

أستشف بدر الدين لؤلؤ في هذه اللحظة الراهنة أنه سيصبح راعي المملكة لأن سيده مات، ولأن وريثه الأبن ضعيف، وهو الوصي عليه. هو وحده استطاع ان يصنع نفسه. هو سيكون الحاكم في هذا الوجود، ولكن كيف سيكون في هذا الوجود الذي استعبده، وفتك بأهله، واستباح المحرمات تذكر أحاديث مجالس الفقهاء التي كانت دائما تتشعب إلى لغة الأسر المباح، والاسترقاق، والاستمتاع بالمسبيات أبكارا أو غير أبكار أي كل ما اصطفى للنكاح من السباء. الآن جاءته لعنة التذكر المؤلمة التي بعثت به عبوديته: محاربون أشداء أحاطوا السلاسل بالرقاب. جمعوا السبايا في صفوف متراصة بعد ان

فصلوهم عن أمهاتهم وسط صراخ. هذا سبي وقتل ذراري. هذا ظلم وعذاب. محاربون أشداء جمعوا الذهب والمال في أكوام متراصة.

الآن ذهب الزمان. الآن، هو الموجود وليس ثمة شيء آخر. هكذا قفز بدر الدين لؤلؤ قفزة سريعة التي نقلته من مملوك إلى حاكم، فأغدق العطاء على الأعوان، وأكرم العطاء على حاشيته غريبة الأطوار، وكان ينظر في أمور المملكة ويغدق الإحسان على المقربين منه، ويمد سلطته كي تستقر له الأمور. أنه أغدق كثيرا في العطايا، وأحسن إلى الرعية، وأكرم أتباعه. هو الذي أنشأ المقامات، والمدارس الدينية، والمراقد. حينئذ راحت الرعية تهتف باسمه في المحافل، وتكثر في ألقابه:

- مولانا بدر الدين ابو الفضائل، العادل، ابو المكارم.

آنذاك قرع طبله المقدس المرقص لقلبه، المتناغم معه الذي له إيقاع يخترق كل حاجز يقف أمامه. ذلك جعله كائنا خرافيا مرعبا، ويعلن الحرب:

قتل أولاد الملك الميت واحدا بعد الآخر، وقتل خصومه بالحيلة والمكر دون أن يتقيد برحمة أو شفقة، وصادر أملاك وأموال خصومه، وفتك بهم فتكا ذريعا، ونكل ببعضهم في أشد بطش وتنكيل، وعلق رؤوسهم على أبواب الموصل. ذات مرة سقى القاهر الذي طالب بأحقية الملوكية سما فمات. ذات مرة وضع رجل دين تقي صادق أمين في قفص من حديد، ومنع عنه الأكل والشرب، فكان يردد مع تراتيل دينية خافتة:

- انت الظالم مصيرك نار جهنم يا بدر الدين لؤلؤ.

نزع بدر الدين لؤلؤ عمامته، وحلق لحيته، وعذبه بحديد ملتهب ثم قتله بتلذذ. أجل، هذا بدر الدين المملوك الذي يتلذذ بقرع الطبول صار ملكا. هو الذي تجبر وتكبر وأوغل الموصل في الظلمات، فصار يطلق عليه صاحب الموصل، وصار يلقب بالمولى أما الخليفة في بغداد الذي ملأ قصره بالجواري والغلمان والخمور والمغاني والخلاعة والمجون فصار يلقبه بالرحيم لقسوته وظلمه وبطشه.

ها هي تخمد أصوات قرع الطبول، وتغيب، فيصمت بدر الدين لؤلؤ مع نفسه، ويصبح شيئا غريبا جدا مزمجرا. يومئذ أدرك ان أصوات قرع الطبول لم تكن إلا أصواته هو. أصوات تحترق في داخله مفعمة بالصخب. أصوات تحذره من الأعداء المتواجدين في كل زمان ومكان، فلذلك كان ينهض متململا متجهما، وينخرط في قلق وحزن لأن داخله كان يحترق: دن، دن، دن. فيما بعد كان يتحدث مع نفسه بنبرة تهكمية:

ـ أتسمع أيها الطبل المقدس، هو ذا أنا حارسك المقدس أما أنت فمحكوم بحلمي المكتوم. أنت، أنت منذور لي في عالم مقيت. أنا حاكمك، ومجدك، وحين تقرع سأجعل الأعداء ينهزمون، وسأجعل قتلهم مرير. اقرع ايها الطبل المقدس، أيها الغوث العظيم. شد من حماسي، وعزيمتي في ميدان القتال، إنها الحرب المقدسة من أجل الغزو، والقتل، والسبي! اقرع، واستثير حلمي المكتوم في عالم مقيت!

قرعت الطبول، وخاض بدر الدين لؤلؤ معارك، وحقق انتصارات، وتابع الخلع والاحسان على الناس كافة، فكانت هذه المرة تتعالى أصوات جنوده:

- مولانا الملك الجبار، مولانا البطل الشجاع قاهر الأعداء، مولانا قضيب الذهب المغوار.

هذا هو بدر الدين لؤلؤ الذي صادر أملاك وأموال خصومه بعد قتلهم. هو الذي كان يدعو إلى قرع الطبول كلما أشتاقت نفسه إلى مذبحة، كلما اشتاقت نفسه إلى مجزرة جديدة. أما اليوم فقرعت الطبول، فهرعت الرعية إلى الشوارع مبتهجة في الأفراح والهناء، وتوجهت إلى قصر بدر الدين لؤلؤ الذي كان يقع على نهر دجلة شمال شرق الموصل، وكان يسمى (قرة سراي) أي يعني السراي الأسود. كانت الحشود تتعالى أصواتها:

- مولانا السلطان الرحيم المجاهد، المظفر الناصر، بدر الدين والدنيا، سيد الملوك والسلاطين، حامي اليتامى والمساكين، جلال الأمة ومعين المجاهدين.

فجأة ظهر بدر الدين لؤلؤ من شرفة قصره بثيابه الزرقاء الموشحة بالجواهر والذهب، وهو يرى تلك الحشود الجبارة التي تقف باجلال رافعة الأيدي للدعاء:

- ربنا احفظ لنا مولانا السلطان بدر الدين لؤلؤ ناصر الحق ابو الفضائل.

لم يلبث أن أومأ بيده، فصمتت الحشود جامدة في مكانها مشبوكة الأيدي على الصدور، بعضهم لم تستكن ارواحهم، فسالت الدموع من عيونهم لعظمة هذا الظهور. لم ينطق بدر الدين بكلمة بل راح ينثر النقود النحاسية الفضية والذهبية

عليهم، فامتدت الأيدي تتلقفها متدافعة متزاحمة وسط صخب لا مثيل له.

هكذا قد عرفت الأمة أن بدر الدين لؤلؤ قد سك النقود، وذكر اسمه عليها، وذكر ايضا اسم الخليفة في بغداد، واسم السلطان السلجوقي كيخسرو الثاني، وتواصل ذكر اسماء كل سلطان أو ملك يجد فيه ضالته كي يدعمه في البقاء على سلطته التي صارت تمتد وتتوسع في البطش والقتل، فهو يداري ويجاري من جهة ويقتل، ويشنق، ويقطع أوصال الأعداء والخصوم من جهة أخرى، فهذه الموصل محط رحال الركبان التي تصل بين البلدان، وتصل بين دجلة والفرات ابتلت بهذا الطاغية السفاح، وهو لم يتوقف عن قطع الرؤوس، وتعليقها على أبواب الموصل.

الآن، أحس برغبة جامحة في الضحك، وهو يروح ويجئ في صالة قصره الفسيحة المزركشة إلا أنه خنق قهقهته لأن نظراته توهجت على ثراء الصالة بتماثيل آدمية مصطفة مقطوعة الرؤوس شابكة أيديها إلى صدورها، فراح يتباهى بعظمته في قطع الرؤوس. ذلك كان مظهر خلاب جعله يفتخر به. لحظتئذ بدت علائم الغضب والصرامة على وجهه، وهو يطيل التفكير مستغرقا بعظمة ما حققه. أنئذ كانت ابتسامة تنم عن رضاه بنفسه الغامضة التي ستفضي به إلى نجاح جديد، ويتخلص من الألم الساحق الذي يطارده بكونه عاش عبدا ذليلا، فهو كان يرى علياءه في قطع الرؤوس، ويرى أيضا أن جميع البشر صاغرون أمام عظمته، وأمام كبريائه المتوج على عرش سلطة الإستبداد، فصار أشبه بذئب هائج من فصيلة البشر، ينذر

بالشر. آنذاك عوى في نفسه مرتبكا باحثا عن فريسة صعبة المنال:

ـ أنا هو العدو.

حينئذ صار العواء الداخلي مدويا، فراح ينصت إليه كما لو أنه يدعوه أن يدبر هجوما بعناية ما وراء العواء البشري لاسيما أنه أخذ يردد مع نفسه:

ـ أنه يضمر شيئا ضدي.

هكذا دبر مكيدة بمكر ودهاء تمكن بها أن يستدرج شيخ الأيزيدين الشيخ حسن، ثم حبسه في القلعة، وقتله خنقا بوتر عام ١٢٤٦. هكذا كان الأمر. هكذا أمر بقرع طبول الحرب على الأيزيدين ليتفاعل معها، ويرتعش جسمه، وتبعث في نفسه الإثارة والهمة، وتأتيه قوة خارقة جبارة في قطع الرؤوس لأن في ذلك شيئا جديدا مفزعا. آنذاك بطش بالأيزيدين ، واستكشف مواهبه المتوحشة في المجازر، والسلب، وحرق القرى، وسبي الأطفال والنساء، ثم أمر بنبش قبر الشيخ آدي، وإخراج عظامه، وحرقها، وتدمير المرقد. هو ذا بدر الدين لؤلؤ العدو المقهور لذاته، المنهمك في التدمير، وسفك الدماء، التواقة روحه لإشاعة الفزع والرعب في أرض الأيزيدين، فصارت الناس تلقبه بسفاح وسفاك الدماء.

إن كل ما ارتكبه من مجازر بعدئذ تعجز المشاهدة من وصفها، فهنا، فوق الأرض الأيزيديةأجساد بريئة تنتفض من ضرب السيوف. أجساد تصطرع بين الحياة والموت في أنينها الذي صار صدى يقترب سريعا من الموت، وهناك ترتفع

أصوات الأنين المفزع بينما السيوف تضرب الأجساد، وتتواصل في ضربها دون أن تميز بين وليدة أو امرأة، بين رجل عجوز أو طفل. أجساد تهمد في بركة دماء دون ذنب أما قلب بدر الدين لؤلؤ لم تكن فيه ذرة من رحمة، فقد شغف بلذة قطع الرؤوس، وكان وجهه المغبر قد أصبح صارما قاسيا عنيفا لا يتحمل أحد أن يراه. ذلك قد زين لنفسه الكاذبة أنه صاحب السلطان الأعلى في شق شمس السماء، ، وإنه القادر أن يحجب ضوأها الساطع، ويذهب بسناه لكن السماء طلعت منها شمس حمراء متوردة على الاجساد البريئة، وإن بدر الدين لؤلؤ لم يدرك أن لا أحد يستطيع أن يصد ضياءها. هذه الشمس قد اطلقت لحنها في إعجوبة من النور البراق، والكل قد وجه نظره إليه، ليستمع إلى اللحن السماوي المقدس:

- يا أرض الشمس الأيزيدية الجميلة المفروشة بالزهور، أنا أنظر إليك!

أنت باهرة خيرة مثل شجرة الهرهر أصلها ثابت، وفروعها في السماء.

أنا أنظر إليك، فأنت شجرة ما يبست قط، وما فنيت قط، وأثمارك مودتي.

ضيائي تلاحن ترابك وأعشابك وعيون مياهك مهما تألبوا عليك مسعورين.

فها قد ملئت الأرض بأبنائي القتلى لتكون أجسادهم الطاهرة صورا من نوري.

أنا أنظر إليك يقظة وأطلع من المشرق بنوري الباهر فوق جمالك العذب البرئ.

فيما بعد، جلس في صالته ليحتفي في عيد الشعانين لوحده الذي كان يحتفل به مع أقرانه في أرمينيا، فترك الصلاة، وراح يشرب الخمرة، ويتطلع إلى التماثيل كأي سفاك دماء، كأي سفاح متوحش مستبد يستمع إلى قرع الطبول: دن، دن، دن. عندئذ دوت وشوشة في أذنيه مختلطة فيها أصوات غامضة كأنها تهمس ساخرة:

ـ أنت عدو نفسك.

انتفض واقفا، وتصاعد في أعماقه المظلمة ألم أصوات صارخة. تلك أثارت في نفسه الغضب. شرب كأسا آخر من الخمرة، وهو ينصت إليها باندهاش:

ـ أنت عدو نفسك.

حاول أن يطرد الوشوشة من أذنيه، والأصوات التي تواصلت دون انقطاع. ذلك استغرق لحظات حين اختفى الصخب منه خاصة وقد راح يكتم أنفاسه لكن صوت الصخب عاد مسرعا أكثر رسوخا:

ـ أنت عدو نفسك.

عند ذلك صرخ:

ـ اذبحوا مائة من الأسرى الأيزيديين، اصلبوا مائة منهم، اقطعوا أرجل وأذرع أميرهم، اصلبوهم على أبواب الموصل!

ذلك استغرق لحظات قصيرة، فصار واضحا أن عالمه المظلم المتلبس في أعماقه جعله يشرب الخمرة دون خجل وتفوح من أنفاسه المتدفقة رائحة الخمرة، وتختلط عليه ذكريات حرقة القلب وألم عذاب الماضي، فيما هو يهيم سابحا في رؤيا تماثيله التي راحت تهجم عليه، وراحت تنهش جسده عضا، فسحب سيفه من غمده، وصرخ:

- معركة.

ثم بدأ يضرب، ويدمر، وقد تراءى له أن الصالة أصبحت قاتمة، وقد حاول عبثا أن يستدل على الضوء فيما هو تراءت له نفسه أشبه بوحش ضارٍ، فسقط على أرضية الصالة، وقد أثقله وأرهقه السهاد. حينئذ دخل خادمه ليشم رائحة الكحول ، ويرى تحطم التماثيل، وهو يهمس لنفسه بصمت:

- سمعا وطاعة يا مولاي!

أجل، كان قرع الطبول نداء الحروب، ونداء المعارك التي خاضها بدر الدين لؤلؤ، وكذلك نداء نفسه الغامضة الغريبة التائهة في سجنه الداخلي المظلم العدواني الذي منه كان يرى ضحايا معلقة من أرجلها تلتهمها النيران، وهم يتضورون ألما مفزعا رهيبا، وكان يرى ضحايا مصلوبة أو معلقة إلى مشانق. هذه العدوانية جعلته متوحشا مسعورا متعطشا دائما إلى الدماء. هو دائما يتصارع مع عذابه الذي لا يطاق: أنه كان عبدا ذليلا. أجل، عذابه كان متوقدا دائما، وقد تحول إلى داء يطارده في أعمق ظلال نفسه. ذلك جعله يفرط بالتوتر لكنه كان يلزم

الصمت، ويصبح قليل الكلام لأن في ذاته خبيئة موصدة بإحكام. أحيانا كان يغمغم لوحده:

- آه، لو استطعت بسط سلطاني على الأرض، لغرقت الكون بالدماء!

آه، لو استطعت أن أحرك الشمس والنجوم، لغيرت الليل والنهار!

ذات يوم خمد قرع الطبول لأن بدر الدين لؤلؤ أوعز أن يرمي الطبالون طبولهم، ولأن ما يقرع في داخله جعله يرتجف في إضطراب مخيف، إذ الغول المتوحش هولاكو الأقوى منه أتاه من بعيد.

- أنه قادم، هولاكو قادم، أنه يزحف بجيش جرار.

هذا ما قاله مرتعبا، وقد أدرك أنه لم يعد هو الواحد المطلق بقطع الرقاب. آنذاك صار قرعه الخاص يتآكله، وتتآكله المأساة، خاصة وإن رسالتين وصلتا توا. الرسالة الأولى كانت من الخليفة المستعصم بالله الذي يطلب فيها المزيد من الجواري الحسناوات، والمزيد من ذوي الطرب، والآلات الموسيقية بينما كانت الرسالة الثانية من هولاكوالذي طلب فيها أن يمده بالمنجنيقات، وآلات الحصار، والأسلحة والذخائر لمحاصرة بغداد، فأحس بإحساس مرعب في داخله، وراح ينظر فزعا شاردا إلى خواصه، وحاشيته، والمقربين إليه الذين كانوا يحيطون به، ثم تأوه، وقال كلمته المشهورة:

- انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله.

يومئذ عرف بدر الدين لؤلؤ أنه أصبح طريدة مرتعبة لن تفلت من قبضة هولاكو، وأن ملكه في زوال، فتظاهر بالطاعة لهولاكو دون خجل من هذا الإنحطاط، وتظاهر بالاستجابة دون خزي الخيانة، فكان ذلك اندفاعا جره في ظلال الرعب الدموية القادمة، لاهثا متمرغا في وحل الغدر كغنيمة سهلة ضئيلة النفس. ذلك افضى به في آخر الأمر أن يكشف سره الذي اطبق عليه سنوات طويلة، فقد أرسل ابنه الملك الصالح مع جيشه ليشارك في حصار بغداد. أخيرا وصل هذا الجيش متأخرا غير أن بغداد الحضارة سقطت، وارتكب هولاكو فيها مجازر رهيبة، وبعدها توعد هولاكو بدر الدين لؤلؤ بالعقاب لمراوغته، ووصول كتائب جيشه متأخرة، وأرسل مع ابنه رؤوس أعيان بغداد ليعلقها على أبواب الموصل. حينئذ كادت الأرض تنشق تحت قدمي بدر الدين لؤلؤ وتبتلعه في هاوية مظلمة من الخوف والرعب الشديد . أجل، فها هو الظالم المشوه لا يمتلك دموعا يذرفها، ولا يملك كلمات يقولها، فاندفع مسرعا متوترا إلى خزائنه، وأخرج ما فيها من اللآلي والجواهر ثم صادر كل ما هو ثمين من تحف من أثرياء الموصل، وكذلك انتزع من أبنائه وحاشيته الدرر والذهب، وراح يعدو حاملا هداياه على ظهور الخيول التي كان بها يقتحم قرى الأبرياء، ويقطع الرقاب. فها هو يعدو ذليلا مسحوقا يمزقه الرعب إلى جبال همذان حيث كان هولاكو يستريح على ساحل بحيرة أرومية. استأمن هولاكو حياته لكبر سنه، واستقبله كأي خادم مطيع يقدم الطاعة والولاء. استأذن بالصعود إلى التخت الذي كان هولاكو يمد رجليه وهو جالس على كرسي السلطة بعد أن انحنى بخشوع وخنوع، فسمح له هولاكو بذلك، فاقترب منه، ،أذن له هولاكو أن يرصع في

أذنيه بيديه حلقتين فيهما درتان متلألأتان لا يعرف أحد من أي أذنين سلبهما في معاركه الشريرة.

عاد بدر الدين لؤلؤ إلى الموصل ، وقد أقره هولاكو أميرا على الموصل، وكان أهل الموصل يهمسون مع بعضهم: عاد خائن الأمة الإسلامية. أجل، هذا هو التاريخ انتج عبدا كبدر الدين لؤلؤ يحمل الحيف والحنق في داخله. كبته لسنوات طويلة، ثم صار سفاحا يقطع الرقاب، فإذا به يوما يجد نفسه عاجزا تجاه قوة هولاكو، فحرر حقده المكبوت بخنوع ثأرا ضد من أذله كعبد في نزعة يكابد الهزيمة والفشل والعجز تجاه مصيره. لم تمض عدة أيام على عودته، فمرض ومات وهو عجوز، ودفن في قلعة الموصل، ثم نقل ابنه الملك الصالح رفاته إلى مدرسة البدرية على شاطئ دجلة. وبدأ عهد جديد حيث ضربت نقود ذهبية حملت اسم ملك المغول منكو خان، وهي تقول: صاحب العالم سلطان ما على وجه الأرض زاده الله عظمة.

الرواية تتحدث عن قصة حب بريء في منتهى النقاء والصفاء بين هنار وميرزا في قرية بحزاني الايزيدية التي انتهت بمأساة تراجيدية موءلمة في عالم يغوص بالجمال والغناء والرقص.

الرواية صدى الرجع البعيد وصور من تاريخ اتصف بالقسوة ومحاولات إلغاء شعب يؤمن بأخوة البشر، فكل ما تعرض له الشعب الايزيدي حتى الان حاضر في احداث الرواية.

ISBN 978-9933-9226-3-4
9 789933 922634

بيت الكتاب السومري